قضايا إسرائيلية

فصلية تصدر عن
مدار المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية
MADAR The Palestinian Forum for Israeli Studies

السنة العشرون

العدد الثامن والسبعون / صيف 2020

No. 78

ISBN No. : **978-9950-03-030-5**

مدير التحرير:

رائف زريق

محرران مشاركان:

نبيل الصالح

هنيدة غانم

المراسلات:

«مدار» – فلسطين – رام الله – الماصيون – عمارة ابن خلدون

ص.ب: ١٩٥٩ – هاتف : ٢٩٦٦٢٠١ – ٠٢ فاكس: ٢٩٦٦٢٠٥ – ٠٢

صفحة «مدار» الإلكترونية www.madarcenter.org

بريد «مدار» الإلكتروني: e–mail: madar@madarcenter.org

youtube.com/user/madarcenter01 YouTube (facebook.com/markaz.madar) facebook

twitter.com/madar_center

الاشتراكات السنوية: 20 دولاراً للأفراد – 30 دولاراً للمؤسسات (تشمل نفقات البريد)

الاخراج والطباعة: مؤسسة الأيام – رام الله– فلسطين

المواد المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو المركز.

الغلاف : مجدي حديد

كلمة العدد

اللاسامية، الصهيونية وقضيه فلسطين

منذ أن تبنى التحالف الدولي لتخليد ذكرى الكارثة (ihra) تعريفه الجديد للّاسامية، دخل سؤال فلسطين مرحلة جديدة أخلاقيا ومعنويا وسياسيا؛ لأن التعريف الجديد المعمول به يحوّل الرواية الفلسطينية برمتها إلى رواية يمكن وصفها بأنها لا سامية، وفي واقع الأمر، فإنه يعتبر مطلب حق العودة، ومطلب دولة المواطنين في إسرائيل، والذي يهدف إلى إلغاء امتيازات اليهود على المواطنين الفلسطينيين، يجعله مطلبا معاديا للسامية أيضا. كذلك الأمر مع كل من يحلم بدولة ثنائية القومية في فلسطين التاريخية، أو بدولة واحدة علمانية ليبرالية تسودها المساواة.. وهذا يعني بداية مرحلة جديدة في حرب فلسطين على روايتها وعلى مطالبها العادلة. صحيح أنه حتى هذه اللحظة كان تحقيق هذه المطالب متعذرا، لكن منذ الآن فصاعدا، فإن مجرد المطالبة بها هو عمل غير شرعي، ويعتبر معاديا للسامية.

ليس هذا الخطر مجرد خطر نظري، إنما قد يتحول إلى ممارسة فعلية في الكثير من الدول الأوروبية وأميركا والتي تبنت هذه التعريفات وتعمل بموجبها، ووصل الأمر في ألمانيا أنه جرى تبني قرار برلماني يعتبر أن حركة المقاطعة الفلسطينية هي حركة معادية للسامية. عليه، تتعرض الرواية الفلسطينية والمطالب المتعلقة بسؤال فلسطين إلى حملة واسعة لنزع شرعيتها دوليا، وإدانتها لتتحول الضحية إلى مجرم تجري إدانته لمجرد أنه يقف ويصرخ مطالبا بحقوقه، وناشدا العدالة من مجتمع أوروبي- أميركي بات يعتقد أن شعب فلسطين فائض عن الحاجة، وأن صرخات الألم الآتية من فلسطين تزعج رهافة أذنه، وبالتالي وجب إسكاتها، لأن صوت فلسطين الدائم يذكر أوروبا بجريمتها ومسؤوليتها عن المحرقة، ويذكر أنه لا يجوز للضحية باسم ضحويّتها أن تحول شعبا بكامله إلى ضحية.

اخترنا أن نضع في محور هذا العدد سؤال اللاسامية ومناهضة اللاسامية والصهيونية وطبيعة علاقتها بسؤال فلسطين. نحن نعتقد أن هذا هو واحد من أكبر التحديات- إن لم يكن أكبرها على الإطلاق- والذي يواجه سؤال فلسطين. خسر الفلسطينيون الكثير من معاركهم العسكرية والسياسية، لكنهم حافظوا على جذوه سؤالهم الاخلاقي متقدة، وهذه الجذوة هي أهم وآخر معاقلهم، وإن خبت تخبو معها فلسطين وسؤالها، وعليه فإنها معركة مصيرية من أجل التاريخ أولا، ومن أجل المستقبل ثانيا.

هيئة التحرير

المحتـويـــات

محور العدد: معاداة الساميّة، الصهيونية وقضية فلسطين

9 **تعريف عملي لمعاداة السامية - نبذة عن التحالف الدولي لإحياء ذكرى محرقة اليهود (نَصّ)**

11 **التعريف العملي لمناهضة السامية.. كاتم صوت منتقدي إسرائيل/ خلدون البرغوثي**

تستعرض هذه الدراسة الخلفيات التاريخية لمناهضة السامية من ناحية تفسير دوافعها، ثم الظروف التاريخية التي دفعت مناصري إسرائيل إلى السعي لتطوير تعريف مناهضة السامية الكلاسيكي، عبر ربط العنصرية ضد اليهود بانتقاد إسرائيل. ونقطة التحول في الانتفاضة الثانية التي تبعها مباشرة العمل على إصدار التعريف الجديد لمعاداة السامية المسمى «التعريف العملي لمناهضة السامية». كما تستعرض النقاشات والجدل المتعلق بهذا التعريف وصولا إلى شطبه من قبل الهيئة الأوروبية التي أصدرته، وتبني مناصري إسرائيل له على الرغم من ذلك، وصولا إلى اعتماده من قبل عدد من الدول والمنظمات بضغط من إسرائيل والمنظمات الصهيونية المدافعة عنها، واستمرار السعي لتبنيه عالميا. وتطرح الدراسة بعض نماذج القوانين التي استندت للتعريف بكامله أو لمقاطع منه، بهدف قمع منتقدي إسرائيل تحت غطاء مكافحة مناهضة السامية، إضافة إلى أبرز المنظمات التي يشكل الترويج للتعريف هاجسا لها، مع إقرارها أن الدفاع عن إسرائيل هو من ضمن مبادئ عملها.

27 **معاداة السامية الجديدة كجزء/ككل من الاشتباك مع المسألة الفلسطينية العادلة/ مهند مصطفى**

ترمي هذه الورقة إلى عرض وتحليل السجال الإسرائيلي حول مفهوم العداء للسامية، وحصره في المسألة الفلسطينية. وينطلق المقال من ادعاء أن السجال الذي فجره قرار البرلمان الفرنسي اعتبار المعارضة للصهيونية شكلا من أشكال العداء للسامية، يتعلق في جانب منه بسؤال جوهر الصهيونية في السجال الإسرائيلي، وأي صهيونية بالضبط يجب معارضتها، وهو جزء من الصراع السياسي والأيديولوجي الأوسع في إسرائيل حول احتكار تفسير الصهيونية ودورها وغايتها. ويأتي هذا التأطير للعداء للسامية من خلال توسيع المفهوم ليشمل كل نقد على إسرائيل وسياساتها باعتبارها تعبيرا جمعيا عن حق تقرير المصير للشعب اليهودي، وذلك كجزء من سحب خطاب العدالة الذي تتسم به القضية الفلسطينية.

39 **تعريف التحالف الدوليّ لإحياء ذكرى المحرقة (IHRA) لمعاداة الساميّة: تعريف معاداة الساميّة من خلال محو الفلسطينيّين/ ربيكا غولد**

«تعريف التحالف الدوليّ لإحياء ذكرى المحرقة (IHRA) لمعاداة الساميّة»- ويُسمّى هنا التعريف العمليّ أيضًا- هو وثيقة تقترح تعريف، أو بالأحرى إعادة تعريف، معاداة الساميّة، وتشكيل ردود الفعل المؤسّساتيّة تجاه مظاهرها. تفوق الاستخدامات السياسيّة لهذا التعريف، الذي تمّ وضعه في السنوات الأخيرة، في أهميّتها مضمون التعريف نفسه، الذي لا يعتبر مضمونًا أصليًّا. فعلى الرغم من عدم كونها سابقة، إلّا أنّ هذه الاستخدامات تمثّل جبهة جديدة في المجهود المبذول لقمع الخطاب الناقد لإسرائيل، فيما يتعلّق بأسلوب عملها (من خلال فعل إعادة التعريف)، وقمع فعاليّته. ومن أجل تقييم أثر التعريف العمليّ، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار ما هو هذا التعريف بالضّبط معجميًّا، بما يتعلّق بمضمونه، وتاريخيًّا، كردّ على المعاني المتغيّرة لمعاداة الساميّة. نبدأ بالبعد المعجميّ: تعريف IHRA هو عبارة عن تصريح

مكـوّن مـن ثمانيـة وثلاثـين كلمـة عـن معـاداة السـاميّة، وجوهـره: «تصـوّر معـيّن عـن اليهـود، والـذي مـن الممكـن وصفـه ككراهيّـة لليهـود». يتبـع هـذا التعبـير أحـد عـشر مثـالاً قيـل إنّهـا «تأتـي بهـدف التوضيـح». تُسـلِّط سـبعة أمثلـة الضـوء عـلى تصريحـات وتقييمـات تنتقـد إسرائيـل كمـؤشّرات عـلى معـاداة السـاميّة. مـدى انتمـاء هـذه الأمثلـة للتعريـف الصحيـح هـو موضـع خـلاف».

47 الكولونيالية والمحرقة اليهودية: صدام بين روايتين/ عاموس غولدبرغ

يبحـث المقـال في نشـوء وتأسّـس روايتـين تاريخيّتين كبيرتـين جاءتـا لـشرح طبيعـة الحداثـة، وكلتاهمـا قصّـة كـوارث تاريخيـة. إحداهمـا هـي قصّـة المحرقـة اليهوديـة واللاسـامية، والأخـرى هـي القصـة اللا/مـا بعـد كولونياليـة anti/post colonial)، والعنصريـة الغربيـة. ولهاتـين الروايتـين اللتـين أصبحتـا – إلى حـدّ كبـير – كونيّتـين جـذورٌ عميقـة في التاريـخ وفي فكـر مناطـق مختلفـة مـن العالـم. تصطـدم هاتـان الروايتـان العالميّتـان اصطدامًـا هـو الأكثـر وجاهيـة وفظاظـة في مسـألة إسرائيـل – فلسـطين.

الهـوّة بـين هاتـين الروايتـين في قضيـة فلسـطين -إسرائيـل عميقـة جـدًّا. فحسَـب روايـة المحرقـة اليهوديـة واللاسـامية فـإنّ العـداء تجـاه اليهـود في أوروبـا كأقليـة عـلى امتـداد مئـات وآلاف السـنين، جعـل وجـود اليهـود في النظـام السـياسيّ الجديـد بعـد نمـوّ الوطنيـة الحديثـة وتشـكّل الـدول القوميـة غـير ممكـن، تقريبًـا بـدون دولـة قوميـة خاصّـة بهـم. وفي هـذه الروايـة فـإن الحـلّ الناسـف للاسـامية وللمحرقـة اليهوديـة هـو إقامـة دولـة يهوديـة في فلسـطين. هـذا في حـين تنظـر الروايـة اللّا/المـا بعـد كولونياليـة إلى النضـال في فلسـطين بصـورة مغايـرة تمامًـا، فهـي تـرى في الصهيونيـة حالـة أخـرى مـن حـالات الكولونياليـة والإمبرياليـة الغربيـة.

66 هو، أنا والآخر/ أبراهام بورغ

«مـن الصعـب علينـا، نحـن الإسرائيليّـين اليهـود، فهـم اللاسـاميّة. ليسـت هنـاك دائـرة لاسـاميّة كلاسـيكيّة في أيّ مـن دوائـر حياتنـا الشـخصيّة والفوريّـة. حياتنـا عاديـة إلى حـد بعيـد: نعمـل، نقـضي وقتًـا ممتعًـا، نتـبرع ونشـارك. لا نـرى في أنفسـنا الشـيطان الرجيـم الـذي ينسـبنا اللاسـاميّ إليـه. وعمومًـا، نقـرأ عـن جرائـم الكراهيـة، ونعـرّف عـن مظاهـر العنـف وملاحقـة اليهـود لكـنّ قليلـون مـن بيننـا مـن تعرّضـوا لهـا عـلى المسـتوى الشـخصيّ. لدينـا أسـس مـن الصداقـة حتّـى في أصعـب أنـواع الخصومـة السياسـيّة. النتيجـة هـي أنّـه لا يوجـد أحـد مـن حولنـا يعرّفنـا مـن الخـارج. ومثلنـا أغلـب أصدقائنـا ومقرّبينـا. ومـع ذلـك، جـزء كبـير مـن الهويّـة اليهوديّـة للكثيريـن منّـا مبنـي عـلى العلاقـات المَرَضيّـة، غـير الصحيّـة، بين اليهـوديّ والـ»غـوي»؛ أي غـير اليهـوديّ. وللدقـة، اللاسـاميّ واللاسـاميّة همـا جـزء جوهـريّ مـن التعريفـات اليهوديّـة، هـذا شـعور راسـخ وموغـل في القـدم، يسـبق بكثـير أجيـال الرفـاه، التـي حظيـت بـه غالبيـة اليهـود المعاصريـن.»

80 من الأرشيف
ناتان ألترمان- نصّان
نشوز واضطراب الأسس التي يقوم عليها ادعاء الصهيونيّة الأخلاقي
إعداد وترجمة مالك سمارة

86 مقالات
حكومة الضم الإسرائيلية:
تغيير في الشكل لا في الجوهر/ أشرف بدر

تسـعى هـذه المقالـة إلى التعـرف عـلى تركيبـة الحكومـة الإسرائيليـة الـ ٣٥، وتحليـل أهـم بنـود اتفـاق الائتـلاف الحكومـي، والخطـوط العريضـة لسياسـات الحكومـة المكونـة مـن تكتـلي الليكـود (برئاسـة بنيامـين نتنياهـو)، وأزرق أبيـض (برئاسـة بينـي غانتـس). سـتحاول المقالـة الإجابـة عـلى عـدة أسـئلة في مقدمتهـا: مـا هـي الخطـوط العريضـة لهـذه الاتفاقيـات، ولهـذه الحكومـة؟ ومـا هـي أهـم دلالاتهـا، ومـا هـي انعكاسـاتها المسـتقبلية المتوقعـة؟ سـتنتهج المقالـة مقاربـة تحليليـة لوثائـق ومـواد أوليـة تـم نشرهـا عـلى موقـع الكنيسـت الإسرائيـلي،

وتحوي بنود الاتفاق بين الطرفين، بالإضافة إلى الخطوط العريضة لسياسات الحكومة الـ ٣٥، وكذلك الاتفاقيات الائتلافية.

99 **من الخلاص الجماعي إلى تحقيق الذات: تحولات البطولة في الدراما الإسرائيلية المعروضة عبر «نتفلكس»**

نور الدين أعرج وباسل رزق الله

تتبع هذه المداخلة عينة من الإنتاجات الدرامية الإسرائيلية التي تظهر فيها تمثيلات عسكرية إما بشكلٍ رئيسي أو ثانوي، وتقدم قراءةً لها ترتكز على السعي لفهم مركزية البعد العسكري، في الفضاء العام الإسرائيلي، وتراجعه، والممارسات التي ترتبط باستعادته، أو إعادة إنتاجه، في خضم التحولات المستمرة داخل المجتمع الإسرائيلي ومجتمع الجيش. لا تقتصر المداخلة على قراءة صورة الجندي الإسرائيلي في الإنتاجات الدرامية كبطل خارق يُنقذ المجتمع ورفاقه، مبنيةً على الصورة التقليدية للجندي البطل الذي يحمل قيم الذكورة والتضحية، لكنها تعيد قراءتها، مطلة على أنماط من الجدل الداخلي في إسرائيل، وأزمات عدة مثل النقاشات عن انخفاض نسب التجنيد في الوحدات القتالية وأيضًا الحديث عن صلاحيات الجندي الإسرائيلي ومدى قدرته على اتخاذ القرارات، وهي مترافقة مع النقاشات حول مدى فاعلية وجود جيش الشعب.

110 **خداع التاريخ ووعد المستقبل**

إيان لوستك

جزء من الفصل الأخير في كتاب إيان لوستك ، وفيه يتناول مآلات حل الدولتين في الواقع الراهن للقضية الفلسطينية:

Paradigm Lost: From Two-State Solution to One-State Reality. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2019

في هذا الكتاب، رأينا مرّة تلو الأخرى كيف تتبدّل الخطط والمشاريع السياسيّة بسبب قانون العواقب غير المقصودة. أرغمت الإستراتيجيّة المستميتة المسمّاة «الجدار الحديديّ للصهيونيّة» العرب على تخفيف مطالبهم، إلّا أنه كان للنجاح الجزئيّ لهذه الإستراتيجيّة عواقب غير مقصودة. ضخّمت هذه الإستراتيجيّة المطالب اليهوديّة-الإسرائيليّة، كما شجّعت تطرّفًا متعنّتًا دمّر كلّ إمكانيّة لتسوية تاريخيّة كان من المفروض أن تحقّقها. كما أن منظور الكارثة، الذي أصبح مهيمنًا في إسرائيل، قوّض السلام مع العرب لأنّه شحذ إحساس الخوف والشك والكراهيّة، وجعل من «التسوية» كلمة نابية. نتجت الجهود الناجعة التي أحرزها لوبي إسرائيل في الولايات المتّحدة، والتي غذّاها منظور الكارثة بشكلٍ جزئيّ، عن كرم مفرط تجاه إسرائيل. دمّرت النتيجة غير المقصودة للتأثير المفرط للوبي إسرائيل أرجحيّة الاعتدال السياسيّ في إسرائيل وحوّلت سياسة الدولة اليهوديّة نحو الرفضيّة، ووضعت الختم النهائيّ على دمار مشروع حلّ الدولتين، كما أنّها جلبت فلسطينيّين عربًا أكثر ممّا جلبت يهودًا إلى داخل نطاق سيطرة الدولة الإسرائيليّة.

119 **قراءات نقديّة ومراجعات**

يائير والاخ، إسرائيل وفلسطين في عهد ترامب

Seth Anziska, Preventing Palestine, A Political History from Camp David to Oslo.

125 **حريّة زيادة، قراءة في رواية «أمام الغابات» أبراهام ب. يهوشواع، أمام الغابات.**

131 **أميرة عبد الحفيظ عمارة، قراءة في رواية «القرش» لـ ميشقا بن دافيد.**

135 **المكتبة- عرض موجز لأحدث الإصدارات الإسرائيليّة**

إعداد: علي زبيدات

قواعد النشر في مجلة قضايا اسرائيلية

- ترحب المجلة بالدراسات والمقالات ومراجعات الكتب التي تكون مواضيعها ذات صلة بالقضايا الاسرائيلية وبالمشهد الإسرائيلي على تنوعاته.
- يشترط في المواد المرسلة الالتزام بمنهج البحث العلمي، ويشترط في المواد أن لا تكون قدمت للنشر في اللغة العربية في أية مجلة أخرى، سواء أتم نشرها أم لم يتم.
- تعرض البحوث على محكمين من ذوي الاختصاص والخبرة، للتقرير بشأن النشر.
- تقدم البحوث باللغة العربية وترسل مرفقة بتعريف موجز للكاتب إلى بريد مدار الإلكتروني: madar@madarcenter.org
- يجب ألا يتجاوز عدد الكلمات في الدراسات المرسلة إلى المجلة ٦٠٠٠ كلمة، بما فيها الملخصات والجداول والمراجع، وأن لا تتجاوز المقالة ٣٥٠٠، ومراجعة الكتاب ٢٠٠٠ كلمة.
- على المواد المرسلة مراعاة قواعد التوثيق والاقتباس بحسب المنهج الأكاديمي المتعارف عليه، ووفق التالي:
- الكتب: اسم الكاتب (سنة النشر). اسم الكتاب. مكان الصدور: اسم دار النشر.
- مقالة في كتاب تحرير: اسم المؤلف (سنة النشر). «اسم المقال». عند: اسم المحرر (محرّر)، اسم الكتاب. مكان النشر: اسم دار النشر، الصفحات من – إلى.
- مقال منشور في مجلة: اسم المؤلف (السنة). «اسم المقال»، اسم المجلة، المجلد (العدد)، الصفحات من – إلى.
- كتب مترجمة: اسم المؤلف (سنة صدور الترجمة). اسم الكتاب. اسم المترجم، مكان النشر: اسم دار النشر.

محور العدد القادم | **التغيرات في المجتمع الحريدي**

تعريف عملي لمعاداة السامية
نبذة عن التحالف الدولي لإحياء ذكرى محرقة اليهود (نَصّ)*

يُعَدّ التحالف الدولي لإحياء ذكرى محرقة اليهود المنظمة الوحيدة المشتركة بين الحكومات، والتي تملك الولاية التي تخولها أن تركز تركيزًا حصريًا على القضايا المتصلة بالمحرقة. ولذلك، فمع تواتُر الأدلة على استشراء آفة معاداة السامية، فقد عقدنا العزم على أن نضطلع بدور رائد في محاربتها. وقرّر خبراء التحالف وجوب توخّي الوضوح في تحديد ماهية مشكلة معاداة السامية من أجل الشروع في معالجتها.

وقد عملت اللجنة المعنية بمعاداة السامية وإنكار المحرقة المنبثقة عن التحالف على بناء إجماع دولي حول تعريف عملي لمعاداة السامية، حيث اعتمدته الهيئة العامة للتحالف في وقت لاحق. وبذلك، ضرب التحالف مثلًا تحتذي به المحافل الدولية الأخرى في السلوك المسؤول، وقدّم أداة مهمة تستطيع البلدان الأعضاء فيه تطبيقها على أرض الواقع. وليس هذا سوى مثال واحد يوضّح الطريقة التي اعتمدها التحالف في تمكين صانعي السياسات من معالجة الزيادة التي طرأت على الكراهية والتمييز على مستوى أوطانهم.

التعريف العملي لمعاداة السامية

انطلاقًا من روح إعلان ستوكهولم الذي ينص على أنه "باستمرار شعور البشرية بالذعر إزاء ... معاداة السامية وكره الأجانب، فإن مسؤولية رسمية تقع على عاتق المجتمع الدولي متمثلة في مكافحة هذه الآثام"، وجّهت اللجنة المعنية بمعاداة السامية وإنكار المحرقة الدعوة إلى الهيئة العامة للتحالف

* النص الأصلي بالانكليزية على الرابط
https://www.holocaustremembrance.com/index.php

الدولي لإحياء ذكرى محرقة اليهود في بوخارست إلى اعتماد التعريف العملي التالي لمعاداة السامية في العام ٢٠١٥.

في يوم ٢٦ أيار ٢٠١٦، قررت الهيئة العامة في بوخارست:

اعتماد التعريف العملي التالي غير الملزم قانونيًا لمعاداة السامية:

"معاداة السامية هي تصوّر معين إزاء اليهود، ويمكن التعبير عنه بوصفه كراهية تجاه اليهود. وتُوجَّه المظاهر الخطابية والمادية لمعاداة السامية نحو الأفراد اليهود أو غير اليهود أو ممتلكاتهم أو كلاهما معًا، ونحو المؤسسات المجتمعية والمرافق الدينية اليهودية."

ولغايات توجيه التحالف الدولي لإحياء ذكرى محرقة اليهود في عمله، فقد تشكّل الأمثلة التالية أمثلة توضيحية:

قد تشمل هذه المظاهر استهداف دولة إسرائيل، باعتبارها جماعة يهودية. ومع ذلك، لا يمكن اعتبار انتقاد إسرائيل على نحو يشبه الانتقاد الموجّه لأي بلد آخر معاداةً للسامية. فمعاداة السامية كثيرًا ما تتهم اليهود بالتآمر على إلحاق الأذى بالإنسانية، وغالبًا ما توظَّف للإنحاء باللائمة على اليهود على "الأسباب التي تقف وراء سوء الأمور". ويجري التعبير عنها في الكلام والكتابة والأشكال البصرية والأفعال. كما توظِّف صورًا نمطية مشؤومة وخصالًا شخصية سلبية.

والأمثلة المعاصرة على معاداة السامية في الحياة العامة والإعلام والمدارس وأماكن العمل والحيز الديني، مع وضع السياق العام في عين الاعتبار، تشمل ولا تقتصر على:

- الدعوة إلى قتل اليهود أو إلحاق الأذى بهم، أو تقديم يد العون في ذلك أو تسويغه، باسم أيديولوجيا راديكالية أو وجهة نظر دينية متطرفة.
- توجيه اتهامات كاذبة لليهود أو تنتقص من آدميتهم أو تضفي صفة شيطانية عليهم أو تبثّ صورًا نمطية عنهم باعتبارهم يهودًا أو قوة اليهود بوصفهم جماعة – من قبيل، بصفة خاصة وبما لا يقتصر على، الخرافة التي تنطوي على مؤامرة يهودية عالمية أو سيطرة اليهود على الإعلام أو الاقتصاد أو الحكومات أو غيرها من المؤسسات المجتمعية.
- اتهام اليهود بصفتهم شعبًا بتحمُّل المسؤولية عن أفعال غير مشروعة حقيقية أو متخيَّلة يرتكبها شخص يهودي أو جماعة يهودية بمفردها، أو حتى عن الأفعال التي يرتكبها غير اليهود.
- إنكار حقيقة الإبادة الجماعية التي تعرّض لها الشعب اليهودي أو نطاقها أو آلياتها (كغرف الغاز) أو تعمُّدها على يد الجزب الاشتراكي القومي الألماني ومناصريه والمتواطئين معه في أثناء الحرب العالمية الثانية (المحرقة).
- اتهام اليهود بصفتهم شعبًا، أو إسرائيل بصفتها دولة، باختراع المحرقة أو المبالغة فيها.
- اتهام المواطنين اليهود بإيلاء قدر أكبر من الولاء لإسرائيل، أو لأولويات اليهود المزعومة في جميع أنحاء العالم، من ولائهم لمصالح الأمم التي ينحدرون منها.
- إنكار حق الشعب اليهودي في تقرير المصير، كالادعاء بأن وجود دولة إسرائيل يُعَدّ مسعًى عنصريًا.
- تطبيق معايير مزدوجة من خلال توجيه الطلب إليه لسلوك مسلك لا يُتوقع أو لا يُطلب من أي أمة ديمقراطية أخرى.
- استخدام الرموز والصور المرتبطة بمعاداة السامية الكلاسيكية (كالمزاعم التي تقول إن اليهود قتلوا المسيح أو فرية الدم) في توصيف إسرائيل أو الإسرائيليين.
- عقد المقارنات بين السياسة الإسرائيلية المعاصرة وسياسة النازيين.
- تحميل اليهود بمجموعهم المسؤولية عن أفعال دولة إسرائيل.

وتُعد **الأفعال المعادية للسامية أفعالًا جنائية** عندما يعرّفها القانون على أنها كذلك (إنكار المحرقة أو توزيع المواد المعادية للسامية في بعض البلدان، مثلًا).

وتُعد **الأفعال الجنائية معادية للسامية** عندما يقع الاختيار على أهداف الهجمات، سواء أكانت أشخاصًا أم ممتلكات – كالمباني والمدارس وأماكن العبادة والمقابر – لأنها يهودية أو مرتبطة باليهود أو لأنه يُنظر إليها على أنها كذلك.

يشير **التمييز المعادي للسامية** إلى حرمان اليهود من الفرص أو الخدمات المتاحة للآخرين، وهو يُعد مخالفًا للقانون في العديد من البلدان.

(ترجمه عن الإنجليزية: ياسين السيد)

خلدون البرغوثي *

التعريف العملي لمناهضة السامية.. كاتم صوت منتقدي إسرائيل**

مقدمة

تتناول هذه الدراسة اعتماد المدافعين عن إسرائيل على وثيقة تسمى "التعريف العملي لمناهضة السامية"، في استهداف منتقديها، عبر الربط بين انتقاد ممارسات إسرائيل كقوة احتلال وبين العنصرية تجاه اليهود، وهما قضيتان منفصلتان بالنسبة لمناهضي الاحتلال، إذ إن هناك فرقا شاسعا بين العنصرية ضد اليهود، وبين انتقاد نظام سياسي يمارس القمع ضد شعب آخر. ويبرز التناقض في طرح المدافعين عن إسرائيل عندما يتصدى لهم يهود، ممن يرفضون طرح إسرائيل لنفسها كممثلة ليهود العالم، من ناحية، ويدعمون الحقوق الفلسطينية ويرفضون الاحتلال وممارساته.

ولم يسلم هؤلاء اليهود المناصرون للحقوق الفلسطينية من قمع مناصري إسرائيل، ففيما يوصف منتقدو إسرائيل من غير اليهود بأنهم مناهضون للسامية، يوصف اليهود الذين يعارضون سياسات إسرائيل وينتقدونها بأنهم "كارهون لأنفسهم".

تستعرض هذه الدراسة الخلفيات التاريخية لمناهضة السامية من ناحية تفسير دوافعها، ثم الظروف التاريخية التي دفعت مناصري إسرائيل إلى السعي لتطوير تعريف مناهضة السامية الكلاسيكي، عبر ربط العنصرية ضد

* صحافي وباحث مختص بالشأن الإسرائيلي.

** هذه المقالة هي ملخص محدّث لدراسة أعدها الكاتب عام ٢٠١٣ بعنوان استخدام مناهضة السامية كتهمة لمنع انتقاد ممارسات إسرائيل بحق الفلسطينيين ٢٠٠٠-٢٠١٣"، ضمن دراسته للحصول على درجة الماجستير في "الدراسات الإقليمية-الدراسات الإسرائيلية" بجامعة القدس.

تستعرض هذه الدراسة الخلفيات التاريخية لمناهضة السامية من ناحية تفسير دوافعها، ثم الظروف التاريخية التي دفعت مناصري إسرائيل إلى السعي لتطوير تعريف مناهضة السامية الكلاسيكي، عبر ربط العنصرية ضد اليهود بانتقاد إسرائيل.

اليهود بانتقاد إسرائيل. ونقطة التحول في الانتفاضة الثانية التي تبعها مباشرة العمل على إصدار التعريف الجديد لمعاداة السامية المسمى "التعريف العملي لمناهضة السامية". كما تستعرض النقاشات والجدل المتعلق بهذا التعريف وصولا إلى شطبه من قبل الهيئة الأوروبية التي أصدرته، وتبني مناصري إسرائيل له على الرغم من ذلك، وصولا إلى اعتماده من قبل عدد من الدول والمنظمات بضغط من إسرائيل والمنظمات الصهيونية المدافعة عنها، واستمرار السعي لتبنيه عالميا. وتطرح الدراسة بعض نماذج القوانين التي استندت إلى التعريف بكامله أو إلى مقاطع منه، بهدف قمع منتقدي إسرائيل تحت غطاء مكافحة مناهضة السامية، إضافة إلى أبرز المنظمات التي يشكل الترويج للتعريف هاجسا لها، مع إقرارها أن الدفاع عن إسرائيل هو من ضمن مبادئ عملها.

١. لمحة تاريخية

تصاعد في العقود الثلاثة الأخيرة بشكل خاص، الحديث عن مناهضة السامية، وتعريفها، في سياقات متعددة، بدءًا من تعريفها الكلاسيكي أي "العدوانية تجاه أو التمييز ضد اليهود كمجموعة دينية، أو عرقية"،[١] وصولا لتطوير التعريف إلى صيغة جديدة توسعه وتُضمّنه، بنودا أخرى يمكن استخدامها في سياقات سياسية–دعائية–قضائية، كي تمكّن المدافعين عن إسرائيل –حتى في سياق ممارساتها كقوة احتلال– من استخدام التعريف الجديد، لقمع منتقديها، بذريعتين: حماية اليهود، ومنع تكرار الهولوكوست.

ويسعى التعريف الجديد إلى الربط بين مناهضة السامية، ومناهضة الصهيونية، من جهة، وربط انتقاد إسرائيل بالعنصرية ضد اليهود، من جهة أخرى.

نشأت "مناهضة السامية"بمفهومها الكلاسيكي في أوروبا منذ قرون، وتمثلت بالعداء ضد اليهود في المجتمعات الأوروبية التي كانوا يعيشون فيها، وكان هذا العداء يتحول من مشاعر وتلفظات عنصرية إلى إجراءات عملية عدائية على الأرض وتنكيل بهم، وصولا إلى الهولوكوست "المحرقة"في الحرب العالمية الثانية.

من أبرز النظريات التي تناولت أسباب العداء لليهود في أوروبا، يطرح الفيلسوفان اليهوديان حنة أرندت Hanna Arendt وجان–بول سارتر Jean-Paul Sartre، وجهتا نظر مختلفتان لعلهما أبرز النظريات التي تحاول تفسير أسباب العنصرية الأوروبية تجاه اليهود.

١,١ أرندت: الدور الوظيفي وراء العنصرية ضد اليهود

تعتبر أرندت في كتابها "أسس التوتاليتارية"(The Origins of Totalitariansim) الصادرة طبعته الأولى عام ١٩٥١، أن كراهية اليهود مرتبطة بمسألة الطبقية في المجتمعات التي كانوا يعيشون فيها، خصوصا في فترة ظهور الدول القومية في القارة الأوروبية. فتحولُ النظام الاقتصادي من إقطاعي –كان اليهود يلعبون فيه دور المصرفيين ورجال الأعمال–، إلى نظام رأسمالي، برز فيه أثر الثورة الصناعية وقلّ تأثير اليهود المالي، كان سببا في تراجع نفوذهم. وتشبه أرندت ما حدث لليهود، بما حدث لطبقة الأرستقراطيين في فرنسا، فتقول إن "الشعب الفرنسي كره الارستقراطيين عندما بدأوا يخسرون نفوذهم أكثر مما كرهوهم في الماضي، بالتحديد لأن خسارتهم

يسعى التعريف الجديد إلى الربط بين مناهضة السامية، ومناهضة الصهيونية، من جهة، وربط انتقاد إسرائيل بالعنصرية ضد اليهود، من جهة أخرى.

السريعة لنفوذهم لم ترافقها خسارة ملموسة في ثرواتهم... عندما فقد النبلاء امتيازاتهم، كامتيازي الاستغلال والاضطهاد شعر الشعب أنهم [النبلاء] صاروا طفيليين... ليس الاستغلال ولا الاضطهاد كانا السبب في الشعور بالاستياء، لكن الثروة دون دور واضح صار لا يمكن التسامح معها".[٢] وتربط أرندت علاقة فقدان النفوذ مع الحفاظ على الثروة بوصول مناهضة السامية ذروتها في ألمانيا؛ فعندما فقد اليهود وظيفتهم العامة وتأثيرهم، ولم يبق بحوزتهم شيء سوى ثرواتهم... وجاء هتلر، كانت المصارف تقريبا يهودية بحتة؛إذ كان اليهود يتولون مواقع رئيسية فيها منذ مئة عام.[٣]

بالمقابل ترفض أرندت فكرة أن كره اليهود نابع فقط من كونهم يهودا، أو لأن هذا الكره ينبع من الخبث الإنساني وحده، بل تربط العنصرية تجاههم مباشرة بفكرة أن الشعوب تكره الذين يملكون الثروة دون السلطة، بناء على الغريزة العقلانية التي تقول إن للنفوذ وظيفة محددة وله فائدة عامة. [٤]

كما تربط أرندت مناهضة السامية بنشوء الدولة القومية في أوروبا، فترى أن موقف اليهود الرافض للتخلي عن دورهم المالي برفضهم الاندماج في النظام السياسي القائم على المساواة أمام القانون، وتفضيلهم البقاء كمجموعة لها علاقة خاصة بالدولة، كان سببا في بقاء "المجتمع قائما على اللامساواة في النظام الطبقي، وبالتالي منع تطوير جمهوريات فاعلة ومنع ولادة تسلسل سياسي جديد".[٥]

كما ترفض أرندت نظرة "كبش الفداء"التي تقول إن اليهود بصفتهم الحلقة الأضعف في أوروبا، تم التضحية بهم كقرابين، لأن هذه النظرية تفترض البراءة المطلقة لليهود. وتشير أرندت إلى أن أصحاب هذه النظرية أنفسهم تخلوا عنها.[٦]

حنة أرندت.

١,٢ سارتر: كراهية اليهود شعور متأصل لدى الشعوب الأخرى

بالمقابل ذهب الفيلسوف الفرنسي جان–بول سارتر (١٩٠٥–١٩٨٠) باتجاه معاكس لأرندت، وربط في كتابه "المناهض للسامية واليهودي"(Anti-Semite and Jew) كره اليهود بالفرد الأوروبي–، عبر طرح أمثلة لمشاعر أفراد أوروبيين تجاه اليهود. يقول سارتر: "اليهودي الذي يسعى مناهضو السامية إلى وضع أيديهم عليه ليس كائنا تخطيطيا يُعرف فقط من خلال وظيفته بموجب قانون إداري، أو من خلال رتبته أو أفعاله، بموجب القانون. بل هو يهودي ابن يهودي، يتم تمييزه من خلال بنيته الجسدية، ولون شعره، وربما من ملابسه، بحيث يقولون إنه يتم تمييزه من خلال شخصيته".[٧]

ويقصد سارتر أن مناهضة السامية ليست رأيا ناتجا عن تفكير عقلاني، بل ناتجة عن دوافع عاطفية. فـ"الشخص المناهض للسامية بشكل معتدل هو رجل لطيف سيقول لك بهدوء (أنا شخصيا لا أكره اليهود، أنا ببساطة أجد أنه من الأفضل ولأسباب عديدة، أن يلعبوا دورا أقل في نشاط الأمة)،

وبعد لحظات وعندما تكسب ثقة هذا الرجل سيضيف بصراحة أكثر (أترى؟ لا بد وأن هناك شيئا ما في اليهود، فهم يزعجونني بسبب هيئتهم الجسدية)".[٨]

يحاول سارتر أن يعمم وجهة نظره هذه في أسباب كره اليهود، فيشير إلى أنه تحدث مع المئات عن دوافعهم، وكانت إجاباتهم مرتبطة بالعيوب التي ألصقتها التقاليد باليهود "أنا أكرههم لأنهم أنانيون، فضوليون، عنيدون، متملصون، غير لبقين، الخ... قال لي رسام: أنا معاد لليهود، لأنهم بعاداتهم السيئة، يشجعون الموظفين لدينا على العصيان".[٩]

إذن، يرى سارتر أن كره اليهود نابع من رغبة أو شهوة متأصلة في غير اليهود، وليست لها علاقة بدورهم الوظيفي في المجتمعات التي كانوا يعيشون فيها، بل بتصورات سابقة، تستخدم دورهم المالي غطاء لهذه الكراهية.

١,٣ شارانسكي: كراهية الغرباء

يلخص ناتان شارانسكي Natan Sharansky الذي تولى عدة مناصب وزارية في أكثر من حكومة إسرائيلية، ثم ترأس الوكالة اليهودية بين عامي ٢٠٠٩–٢٠١٨، ويتولى حاليا رئاسة معهد دراسات مناهضة السامية العالمية والسياسات ISGAP، الحالتين التي حاول من خلالها أرندت وسارتر تفسير مناهضة السامية الكلاسيكية، يقول شارانسكي: "في معرض إجابتهم على هذا السؤال، حاول عدد من الباحثين إعطاء ظواهر مناهضة السامية تفسيرات أكثر شمولية، غير تاريخية. ولعل التفسيرين الأكثر رواجاً هما نظرية "كبش الفداء"، والتي تقضي بأن اتهام المجموعة الأضعف من ناحية اجتماعية – وهي مجموعة اليهود في أغلب الأحوال – بكل مشاكل مجموعة الأغلبية، ما هو إلاّ وسيلة لتنفيس التوترات الاجتماعية. والتفسير الثاني يتمثل في النظرية "الشيطانية"التي قدر لليهود بموجبها لعب دور "الآخر"نتيجة لحاجة المجتمع الدائمة لرفض كل ما هو مختلف من ناحية إثنية ودينية أو عرقية. طبقاً لهذه التوجهات السوسيولوجية، يتلخّص جلّ خصوصية مناهضة السامية كظاهرة مناوئة لليهود إذن في تسميتها، أما في جوهرها فهي ليست سوى نوع من أنواع الكراهية، ومن ضمنها أيضاً العنصرية وكراهية الغرباء".[١٠]

بالمجمل هناك آراء مشتركة بين بعض من كتبوا عن مناهضة السامية، تشير إلى أن أساسها ينبع من كره الشعوب الأخرى لليهود، إما لأسباب عرقية أو دينية أو لدور اليهود المالي في المجتمعات الأخرى –الأوروبية بالذات–. وسيطرة اليهود على المال كان أبرز الأسباب لتعرضهم للغيرة من قبل غيرهم من الشعوب.[١١ ١٢ ١٣]

١,٤ بينسكر: الحل في دولة اليهود

يرى الطبيب والمفكر اليهودي ليو بينسكر Leon Pinsker أن كره اليهود مرض متأصل في الشعوب الأخرى، لكنه يعتبر هذا الشعور نتيجة أكثر منه سببا. "في سيكولوجيا البشر نجد جذوراً للانحياز ضد أمة اليهود؛ لكن هناك عوامل أخرى ليست أقل أهمية تجعل من المستحيل اندماج اليهود في الشعوب الأخرى أو مساواتهم معهم.[١٤]

ويربط بينسكر في مقالته التي كتبها عام ١٨٨٢ تحت عنوان (Auto-emancipation) ، أو "التحرر الذاتي"سبب كره اليهود في المجتمعات الأوروبية، بواقع عدم وجود دولة للشعب اليهودي. "الأجنبي [من غير اليهود] له حق الضيافة [في الدول الأوروبية الأخرى]، لأنه يستطيع أن يقابل الضيافة بمثلها في بلده. لكن اليهودي لا يستطيع الادعاء بأحقيته في الضيافة. فهو ليس ضيفًا، ناهيك عن أن يكون ضيفًا مُرحّبًا به. هو أقرب إلى المتسول، وهل يكون المتسول في موضع ترحيب!".[١٥]

يضيف بينسكر "أن اليهود دخلاء ليس لهم ممثلون، لأنه لا توجد لهم دولة". لذلك تنظر إليهم طبقات المجتمعات المتواجدين فيها بمناظير ترتبط بطريقة تفكير أبناء الطبقة؛ فاليهودي "بالنسبة للأحياء جثة، وللمواطن هو أجنبي، وبالنسبة للمزارع هو بدوي متشرد، ولصاحب الأملاك فاليهودي متسول، وبالنسبة للفقير فهو محتال ومليونير، وللوطني هو شخص دون وطن، لذلك فهو خصم مكروه".[١٦]

نلاحظ هنا إصرار بينسكر على الربط بين كره اليهود وعدم وجود وطن قومي لهم.

٢. البدايات

الربط بين مناهضة السامية ومناهضة الصهيونية، قد يكون ظهر أبكر بكثير من الجدل القائم حاليا، ولو على شكل إشارات، لعل أبرزها تصريح منسوب لدافيد بن غوريون في سياق تعليقه على قرار محكمة بريطانية عام ١٩٤٣ أشارت

قد يكون الربط بين مناهضة السامية ومناهضة الصهيونية، ظهر أبكر بكثير من الجدل القائم حاليا، ولو على شكل إشارات، لعل أبرزها تصريح منسوب لدافيد بن غوريون في سياق تعليقه على قرار محكمة بريطانية عام ١٩٤٣ أشارت فيه إلى تورط قادة صهيونيين في تهريب السلاح للحركة الصهيونية. بن غوريون قال "من الآن فصاعدا، أن تكون مناهضا للصهيونية يعني أن تكون مناهضا للسامية".

فيه إلى تورط قادة صهيونيين في تهريب السلاح للحركة الصهيونية. بن غوريون قال "من الآن فصاعدا، أن تكون مناهضا للصهيونية يعني أن تكون مناهضا للسامية".[١٧]

٢,١ حرب الأيام الستة.. ومناهضة السامية الجديدة

يستعرض نورمان فينكلستاين بداية التحول العملي في استخدام مناهضة السامية كأداة للتصدي لمنتقدي إسرائيل بصفتها قوة احتلال في كتابه "صناعة الهولوكوست: تأملات في استغلال المعاناة اليهودية". ويلفت فينكلستاين النظر إلى أن اليهود خاصة الناجين من "المحرقة"كانوا يخجلون من الحديث عن تجربتهم حتى أواسط الستينيات من القرن الماضي، ولكن بعد احتلال إسرائيل للضفة الغربية وغزة وسيناء والجولان عام ١٩٦٧، تنبه الصهيونيون إلى أهمية استغلال ما حدث لليهود في الحرب العالمية الثانية، كورقة يرفعونها في وجه من ينتقد احتلال إسرائيل للأراضي العربية في حرب الأيام الستة.[١٨]

ويؤيد نعوم تشومسكي ما ذكره فينكلستاين أن الاهتمام الحقيقي بربط انتقاد الصهيونية وإسرائيل بمناهضة السامية برز بعد عام ١٩٦٧: "ويقول "فترة ما بعد ١٩٦٧ شهدت تحويل هذا التكتيك إلى فن رفيع بشكل متصاعد للدفاع عن سياسات صار من الصعب الدفاع عنها".[١٩]

في عام ١٩٧٤ نشر كتاب بعنوان "مناهضة السامية الجديدة"(The New Anti-semitism) من تأليف آرنولد فورستر وبنجامين آر. إبستاين Arnold Forster & Benjamin R. Ep-stein. وقد يكون الكتاب من أوائل الدراسات التي استخدمت مصطلح "مناهضة السامية الجديدة"، لتمييزها عن الكلاسيكية، ونشر بعد حرب ١٩٧٣ التي وقعت بين مصر وسورية من جهة وإسرائيل من جهة أخرى. وفيه يحاول فورستر وإبستاين التقليل من شأن العلاقة السببية بين أي خطوة انتقادية أو عملية ضد إسرائيل مثل حرب ١٩٧٣، وبين الوضع السياسي الناتج عن احتلالها للأراضي الفلسطينية والعربية. المؤلفان يسوّقان لفكرة أن هذه المحاولات هدفها القضاء على دولة إسرائيل فقط لأنها دولة اليهود، وليس لأنها تحتل أراضي شعوب أخرى.[٢٠]

ويسوق المؤلفان أمثلة على مناهضة السامية الجديدة، التي ترتبط بانتقاد إسرائيل، أو مناهضة الصهيونية، فيتهمان الصحافي جيفري اس تي. جون بمناهضة السامية بسبب تصريح له بثته شبكة CBS الأميركية بتاريخ ١٠ أيلول ١٩٧٣، حول دعم الولايات المتحدة لإسرائيل. يقول جون إن "السبب في أنه لا يوجد عندنا نقاش جارٍ في هذا البلد حول إن كنا ندفع ثمنا باهظا لضمان أمن إسرائيل، هو –كما يبدو لي– أن الرأي العام الأميركي يتم تشكيله من وجهة نظر مؤيدة لإسرائيل. وعندما يحاول شخص ما أن يقترح أن نبدأ بتغيير سياستنا (...) فإن ماكينة الدعاية المؤيدة لإسرائيل في أميركا تقوم بصلبه [تدمير سمعته] بشكل علني".[٢١]

يعتبر فينكلستاين أن إبراز فورستر وإبستاين مصطلح "مناهضة السامية الجديدة"، ليس الهدف منه "مقاومة مناهضة السامية، بل استغلال معاناة اليهود التاريخية لتحصين إسرائيل ضد الانتقاد". ويضيف أن كتاب "مناهضة السامية الجديدة"صار معيارا لمن تلاه من إصدارات تتناول موضوع مناهضة السامية الجديدة.

وتوالت الإصدارات التي تحاول الربط بمن مناهضة السامية وبين انتقاد إسرائيل في السنوات اللاحقة، حتى

كانت الانتفاضة الثانية عام ٢٠٠٠ نقطة تحوّل في معركة إسرائيل على مستوى العلاقات العامة لتحسين صورتها التي تضررت كثيرا في العالم، بسبب قمعها الشديد للفلسطينيين خلال الانتفاضة.

وشكّل مؤتمر الأمم المتحدة ضد العنصرية في "ديربان"في جنوب أفريقيا عام ٢٠٠١ صدمة لإسرائيل إثر الانتقادات الشديدة التي تعرضت لها.

جاءت الانتفاضة الثانية التي شكلت تحولا في إستراتيجية المدافعين عن إسرائيل.

٣. نقطة التحول الحاسمة

كانت الانتفاضة الثانية عام ٢٠٠٠ نقطة تحوّل في معركة إسرائيل على مستوى العلاقات العامة لتحسين صورتها التي تضررت كثيرا في العالم، بسبب قمعها الشديد للفلسطينيين خلال الانتفاضة.

وشكّل مؤتمر الأمم المتحدة ضد العنصرية في "ديربان"في جنوب أفريقيا عام ٢٠٠١ صدمة لإسرائيل إثر الانتقادات الشديدة التي تعرضت لها. وتصف البروفسور في تاريخ اليهود الحديث في جامعة تل أبيب دينا بورات Dina Porat في مقال لها عن التعريف الجديد لمناهضة السامية، أن مؤتمر ديربان عام ٢٠٠١ كان "تظاهرة مناهضة لإسرائيل وللسامية، ولم يتحقق فيه شيء مما كانت تطمح إليه إسرائيل، بل صار المؤتمر جزءا من المشكلة"، واعتبرته بورات "واحدا من أسوأ مظاهر مناهضة لليهود منذ الحرب العالمية الثانية".[٢٢]

وتضيف المحاضِرة الجامعية الإسرائيلية والمختصة في تاريخ اليهود الحديث والتي شاركت في وضع التعريف الجديد لمناهضة السامية، أنه "في عام ٢٠٠٣ نظمت منظمة الأمن والتعاون في أوروبا OSCE مؤتمرا في فيينا، ودعا المشاركون فيه، ولأول مرة، لوضع آليات لمواجهة الوضع سريع التدهور، بسبب ظهور مناهضة للصهيونية في أوروبا الغربية تثير القلق من إمكانية تحولها إلى أعمال عنف ضد مؤسسات الدول الأوروبية، خصوصا أن غياب تعريف ملائم لمناهضة السامية كان محسوسا، لذلك دعا المؤتمر إلى تصحيح هذا الوضع، فتولى المركز الأوروبي لرصد العنصرية ورهاب الأجانب The European Monitoring Centre on Racism and Xenophobia (EUMC) هذه المهمة، وتوصل عام ٢٠٠٥ إلى التعريف الذي سمي "التعريف العملي للمركز الأوروبي لرصد العنصرية ورهاب الأجانب لمناهضة السامية".[٢٣]

وتقول بورات إن تعريفات مناهضة السامية كانت ما بين الأعوام ١٨٧٩ و٢٠٠٥ عبارة عن جهود فردية وذاتية قدمها علماء ومفكرون بناء على طلب مؤسسات تصدر موسوعات أو مراجع أخرى. وجاءت هذه التعريفات ذات طابع أكاديمي ونظري.[٢٤]

وتضيف "جاء تعريف عام ٢٠٠٥ على يد فريق من مفكرين وممثلين لحكومات ومؤسسات، فكان جهدا مشتركا سعى إلى تركيب تعريف مقبول لدى جميع الأطراف، **ليكون نقطة تحول خلال ألف عام من التاريخ الطويل لمناهضة السامية.** ولم يكن هذا الوقت بعيدا عن ظهور ما تسمى مناهضة السامية الجديدة التي استلزمت أسسا عملية لنشاط دولي وتشريعي".[٢٥]

٣,١ النص والجدل

يتضمن التعريف العملي لمناهضة السامية، التعريف الأساسي لمناهضة السامية، وينص على أن "مناهضة السامية هي تصور معين لليهود، يتم التعبير عنه بالكراهية تجاه اليهود، مظاهر مناهضة السامية اللفظية أو المادية يتم توجيهها نحو الأفراد اليهود أو غير اليهود و/أو ممتلكاتهم، ومؤسسات المجتمع اليهودي ومرافقه الدينية".[٢٦]

تحت هذا التعريف يرد النص التالي "بالإضافة لهذا، فإن بعض المظاهر يمكن أن تستهدف دولة إسرائيل، باعتبارها كيانا جامعا لليهود".

لكن الورقة تتضمن أيضا، ١١ بندا، توضح ما يمكن اعتباره ممارسات مناهضة للسامية. وتم تقسيم هذه البنود إلى قسمين، الأول تحت عنوان: نماذج معاصرة لمناهضة السامية في الحياة العامة...، ويتضمن ست نقاط، الأربع الأولى منها تتناول ممارسات مناهضة للسامية تستهدف اليهود لأنهم يهودا، أما الخامسة والسادسة فتنصان على التالي:

- اتهام اليهود كشعب، وإسرائيل كدولة باختراع أو المبالغة في الهولوكوست.
- اتهام المواطنين اليهود بأن ولاءهم لإسرائيل، أو للأولويات المزعومة لليهود في العالم، أكثر من ولائهم لمصالح أوطانهم [الدول التي يعيشون فيها غير إسرائيل].[٢٧]

أما القسم الثاني فيأتي في إطار "أمثلة على المظاهر التي يمكن أن تتجلى فيها مناهضة السامية فيما يخص دولة إسرائيل مع الأخذ بعين الاعتبار أن السياق الشامل يمكن أن يتضمن:

- إنكار حق الشعب اليهودي في تقرير مصيره، مثلا بالادعاء أن وجود دولة إسرائيل هو مبادرة عنصرية.
- اعتماد معايير مزدوجة من خلال مطالبة إسرائيل بالقيام بسلوك غير متوقع أو غير مطلوب من أي أمّة ديمقراطية أخرى.
- استخدام رموز وصور مرتبطة بمناهضة السامية الكلاسيكية (مثل الادعاء بأن اليهود قتلوا المسيح، أو فرية الدم) لوصف إسرائيل أو الإسرائيليين.
- إجراء مقارنة بين سياسة إسرائيل الحالية وتلك النازية.
- اعتبار اليهود بشكل جماعي مسؤولين عن ممارسات دولة إسرائيل.[٢٨]

وعلى الرغم من أن هذه العبارات فضفاضة بحد ذاتها، أضاف واضعو هذا التعريف إشارة فضفاضة أيضا، تنص على "ومع ذلك، فإن انتقاد إسرائيل بطريقة مشابهة لما تتعرض له أي بلد أخرى من انتقادات لا يمكن أن يعتبر مناهضا للسامية".[٢٩]

مؤتمر ديربان: انعطافة حادّة.

٣,٢ مكافحة مناهضة السامية.. أم قمع منتقدي إسرائيل؟

الخطر في هذا التعريف هو أنه يمكّن المدافعين عن إسرائيل من اتهام كل من ينتقدها في أي سياق تقريبا، بأنه مناهض للسامية، فالبنود الفضفاضة المتعلقة بإسرائيل مثل البند الوارد في القسم الأول والذي ينص على "اتهام المواطنين اليهود بأنه أكثر ولاء لإسرائيل... أكثر من ولائهم لمصالح أوطانهم"، هذا النص يكفي لوصم من يتهم منظمات اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة مثل (لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية – أيباك)، بالعمل لصالح إسرائيل أكثر مما لصالح الولايات المتحدة، بتهمة مناهضة السامية. كذلك البند الوارد في القسم الثاني والذي ينص على "إنكار حق الشعب اليهودي في تقرير مصيره، مثلا بالادعاء أن وجود دولة إسرائيل مسعى عنصري"، سيجعل كل من ينتقد أو يتهم إسرائيل بارتكاب بجرائم حرب وتطهير عرقي ضد الفلسطينيين بدءا من عام ١٩٤٧ وصاعدا، عرضة لتهمة مناهضة السامية. كذلك فإن البند الذي ينص على "اعتماد معايير مزدوجة من خلال مطالبة إسرائيل بالقيام بسلوك غير متوقع أو غير مطلوب من أي أمّة ديمقراطية أخرى"، لا يحدد المعايير، من ناحية، ولا يأخذ بعين الاعتبار أن إسرائيل، في سياق الاحتلال لا يمكن أن تكون ديمقراطية، –هذا إن اسقطنا الجدل في إسرائيل حول عنصريتها الداخلية ضد من هم من غير اليهود الأوروبيين بشكل عام– وضد العرب بشكل خاص، من ناحية ثانية.

خلال إعداد رسالة الماجستير حول استخدام تهمة مناهضة السامية لقمع منتقدي إسرائيل كقوة احتلال، وردت معلومة في

ينص التعريف العملي لمناهضة السامية على أن "مناهضة السامية هي تصور معين لليهود، يتم التعبير عنه بالكراهية تجاه اليهود، مظاهر مناهضة السامية اللفظية أو المادية يتم توجيهها نحو الأفراد اليهود أو غير اليهود و/ أو ممتلكاتهم، ومؤسسات المجتمع اليهودي ومرافقه الدينية"، ويرد أيضا "بالإضافة لهذا، فإن بعض المظاهر يمكن أن تستهدف دولة إسرائيل، باعتبارها كيانا جامعا لليهود".

خبر لصفحة Electronic Intifada حول استخدام مناصري إسرائيل تعريفا ليس معتمدا، لمناهضة السامية.[٣٠] وكان التعريف المشار إليه هو التعريف الذي تمحورت حوله دراستي.

٣,٣ التخلي عن التعريف

وللتأكد من صحة المعلومات الواردة في الخبر، قمت بمراسلة Fundamental Rights Agency (FRA)، (الوكالة التي تولت عام ٢٠٠٧ مهام European Monitoring Centre on Racism and Xenophobia (EUMC)) الذي أصدر التعريف، موجها لهم سؤالا حول مكانة التعريف المشار إليه لدى الوكالة. وكان الرد مفاجئا بتأكيد المعلومة، وجاء فيه:

"التعريف العملي لمناهضة السامية"هو وثيقة تاريخية ليست لها صفة قانونية [a historical non-legal document]، ونشرت من قبل EUMC. كان الهدف من هذه الوثيقة توفير دليل يعرّف الحوادث، ويجمع المعلومات، ويدعم تنفيذ التشريعات التي تتعامل مع مناهضة السامية. وكالة الاتحاد الأوروبي للحقوق الأساسية FRA كوريث لـ EUMC، ليست هيئة مفوضة بتحديد معايير، لذلك ليس لها أي تفويض تشريعي لإصدار تعريفات، أو لإقرار معايير وطنية و/أو دولية".[٣١]

بناء على إقرار FRA أن "التعريف العملي لمناهضة السامية"هو وثيقة تاريخية ليست لها صفة قانونية، سألت الوكالة عن موقفها تجاه ادعاء منظمات صهيونية مثل CIFwatch (حاليا UK Media Watch وهو مرصد صهيوني يراقب ويوثق بشكل يومي ما ينشر في وسائل الإعلام البريطانية حول إسرائيل، ويعمل على الرد على الانتقادات الموجهة لها)، أن "الوكالة الأوروبية للحقوق الأساسية FRA دعت كل الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي لاستخدام هذا التعريف كقاعدة للتعامل مع مناهضة السامية (...)، فالتعريف العملي الذي تم إقراره من قبل مجلس إدارة FRA الذي يضم ٢٧ مندوبا عن ٢٧ دولة أوروبية (...) يمكن الافتراض وبشكل منطقي أنه يعكس وجهات نظر كل واحدة من تلك الحكومات."[٣٢]

في ١٤ نيسان ٢٠١٣ بعثت رسالة الكترونية إلى الوكالة الأوروبية للحقوق الأساسية FRA ضمنها النص التالي:

خلال عملية البحث في دراستي وجدت النص التالي أدناه على هذه الصفحة الالكترونية: http://cifwatch.com/how-we-define-antisemitism, ، (يشير النص إلى دعوة المركز الاتحاد الأوروبي لتبني التعريف) وأريد تعليقا من طرفكم حول المعلومات أدناه.

هل قامت FRA بدعوة كل الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي لاستخدم التعريف العملي الصادر عام ٢٠٠٥ من قبل المركز الأوروبي لمراقبة العنصرية ورهاب الشعوب (EUMC) كقاعدة للتعامل مع مناهضة السامية؟ إن كانت الإجابة نعم، فهل يمكنني الحصول على نسخة من هذه الرسالة أو الدعوة؟

رد FRA كان مفاجئا أيضا، وجاء فيه: "نود إبلاغك أن FRA لم تتخذ أي إجراء من هذا القبيل، EUMC في السابق قام بإبلاغ مسؤولي التنسيق (الدول الأعضاء) بالوثيقة وطلب منهم رأيهم [فيها]. البعض رد أن لدى دولته مبادئ إرشادية وطنية لجمع المعلومات حول جرائم الكراهية. ولم تتخذ أي إجراءات أخرى".[٣٣]

وهذا إقرار رسمي من الوكالة أن التعريف ليس رسميا،

لا تعتبر المؤسسة الأوروبية الرسمية التي حددت لـ ٤٧ دولة أوروبية عضوا في المجلس الأوروبي الممارسات الفعلية واللفظية التي تعتبر ممارسات مناهضة للسامية (وتشكل مخالفة قانونية)، انتقاد إسرائيل أو الصهيونية ضمن هذه الممارسات.

وليس معتمدا، ولم يوجه المركز ولا الوكالة لاحقا دعوة للدول الأوروبية لتبنيه.

أشارت رسالة FRA أيضا إلى أن المفوضية الأوروبية لمكافحة العنصرية والتعصب European Commission against Racism and Intolerance (ECRI) هي التي طورت تعريفات مصطلحات: العنصرية، ورهاب الأجانب والتعصب. كما أشارت إلى أنها تطبق مفهوم التمييز على أساس الأصل العرقي أو الإثني حسبما ورد في تعليمات مجلس الاتحاد الأوروبي المسماة (تعليمات المساواة العرقية).

ولمعرفة تعريف مصطلح مناهضة السامية لدى (ECRI)، أرسلت رسالة الكترونية إلى المفوضية حملت التساؤل التالي:

"بما أن مفوضيتكم "تتلقى تقارير الدول وتوصياتها فيما يتعلق بمكافحة العنصرية، والتمييز العنصري، ورهاب الشعوب، ومناهضة السامية والتعصب")حسبما ذكرت المؤسسة على موقعها الالكتروني في وصف طبيعة عملها(، [٣٤] فبودي معرفة التعريف الرسمي لمناهضة السامية المعتمد لدى المفوضية".[٣٥]

بتاريخ ٥ آذار ٢٠١٣ تلقى الباحث رسالة الكترونية من باولا إيك–وولترز Paula Eck-Walters المسؤولة في قسم التوثيق في الأمانة العامة للمفوضية الأوروبية لمكافحة العنصرية والتعصب، جاء فيها:

"حسب علمي، فإنه ليس لدى ECRI تعريفها الخاص بمناهضة السامية والذي يمكن حصره في جملة واحدة (..) بالنسبة لـ ECRI مناهضة السامية هي شكل من أشكال العنصرية. ECRI تعرف العنصرية على أنها اعتقاد على خلفية العرق أو اللون أو اللغة أو الدين أو الجنسية أو الأصل القومي أو الإثني يبرر احتقار شخص أو مجموعة من الأشخاص، أو مفهوم تفوق شخص أو مجموعة من الأشخاص. في حالة مناهضة السامية ستكون الحالة هي [العنصرية] على أساس الدين أو الأصل العرقي. عام ٢٠٠٤ تبنت ECRI توصيات السياسات العامة ووجهتها لحكومات الدول الـ٤٧ الأعضاء في المجلس الأوروبي فيما يتعلق بمكافحة مناهضة السامية. الجزء المتعلق بأحكام القانون الجنائي لدى الدول في التوصيات يشير إلى الممارسات التي تعتبر مناهضة للسامية كاعتداءات جنائية ارتكبت ضد شخص أو مجموعة أشخاص على خلفية هويتهم أو ديانتهم اليهودية، وهذا الجزء يقطع شوطا مقبولا في شرح فكرة مناهضة السامية.[٣٦]

تضم التوصيات تسعة بنود[٣٧] تركز كلها على مناهضة السامية الكلاسيكية فقط، ولا تتضمن أي إشارة تتعلق بالموقف من إسرائيل أو الصهيونية. بمعنى أن المؤسسة الأوروبية الرسمية التي حددت لـ ٤٧ دولة أوروبية عضوا في المجلس الأوروبي الممارسات الفعلية واللفظية التي تعتبر ممارسات مناهضة للسامية (وتشكل مخالفة قانونية)، لا تعتبر انتقاد إسرائيل أو الصهيونية ضمن هذه الممارسات.

٣,٤ الاحتجاج الصهيوني

بعد ثمانية شهور من المراسلات مع FRA، والتي تضمنت الإشارة إلى ادعاء منظمات صهيونية أن الوكالة دعت إلى تبني الدول الأوروبية التعريف العملي لمناهضة السامية، والمؤرخة في ١٤ نيسان ٢٠١٣، وهو ما نفته الوكالة في ردها بتاريخ ١٧ نيسان ٢٠١٣، شطبت FRA التعريف العملي لمناهضة السامية عن موقعها الالكتروني.

ونسب موقع Times of Israel إلى مدير البرامج في الوكالة بلانكا تابيا Blanca Tapia في ردها على تساؤلات من قبل وكالة الأنباء اليهودية Jewish Telegraphic Agency حول شطب التعريف، قولها "لسنا على علم بوجود تعريف رسمي [لمناهضة السامية]".[٣٨]

في التقرير الصحافي ذاته ذكرت Times of Israel أن من يقودون الحملات ضد مناهضة السامية يقولون إن الوثيقة مهمة لأنها –إلى جانب الممارسات المناهضة للسامية الكلاسيكية– تضع قائمة من الممارسات التي تهدف إلى تشويه سمعة إسرائيل والتي يسميها بعض المفكرين بـ"مناهضة السامية الجديدة". لكن تابيا قالت إن وكالتها لم تعرض الوثيقة باعتبارها تعريفا معتمدا.[٣٩]

وعلق شمعون صامويلز من مركز "سيمون وايزنثال"المتخصص في مكافحة مناهضة السامية، والدفاع عن إسرائيل، على شطب التعريف من موقع FRA بالقول "إن تخليهم عن تعريفهم أمر صادم.. وقد خسر من يكافحون مناهضة السامية سلاحا مهما.. وستتضرر سمعة الاتحاد [الأوروبي] بتخليه عن التعريف".[٤٠]

لكن تابيا ردت على هذه التعليقات بالقول إن "الوكالة لا تحتاج أن تطور تعريفا خاصا بها لمناهضة السامية من أجل البحث في القضايا المتعلقة بها.. والوكالة لم تطور تعريفات لمصطلحات أخرى، لكنها تستخدم هذه المصطلحات بناء على التعريف العالمي لها".[٤١]

أشار "المنتدى التنسيقي لمكافحة مناهضة السامية"The Coordination Forum for Countering Antisemitism (CFCA) إلى شطب التعريف أيضا، وقال في بيان إن التعريف استخدم من قبل وحدات منظمة الأمن والتعاون في أوروبا (OSCE) التي تعمل على مكافحة مناهضة السامية، وكذلك استخدم في التقرير السنوي لوزارة الخارجية الأميركية [Global Anti-Semitism Review].[٤٢]

وتضمن ما نشره CFCA أيضا تفسير وكالة FRA لشطب التعريف بالقول إن تعريف مناهضة السامية كان "ورقة للنقاش.. ولم يتم تبنيها أبدا من قبل الاتحاد الأوروبي كتعريف عملي على الرغم من أنها كانت موجودة على موقع الوكالة، حتى وقت قريب، وتم شطبها ضمن عملية للتخلص من كل الوثائق غير الرسمية".

صحيفة The Guardian البريطانية علقت على شطب FRA تعريف مناهضة السامية العملي عن موقعها بالقول إنه "لا يوجد في التعريف المطوّل ما يمكن الاعتراض، باستثناء "قرصة"خطيرة في نهايته، فتضخيم هذا التعريف مقارنة بالتعريف البسيط المعروف منذ ٢٠٠٠ عام حول كراهية اليهود، يسعى إلى تصيد من ينتقدون إسرائيل.. عبر مطالبة إسرائيل بالقيام بسلوك غير متوقع أو غير مطلوب من أي أمّة ديمقراطية أخرى، أو اعتبار اليهود بشكل جماعي مسؤولين عن ممارسات دولة إسرائيل". هذه الإضافة المثيرة للشكوك استخدمت مؤخرا لإسكات، أو على الأقل لكتم حرية التعبير لمعظم الانتقادات الموجهة لإسرائيل في وسائل الإعلام في المملكة المتحدة وخارجها.[٤٣]

٣,٥ بين الشطب والتبني

شهدت السنوات التي تلت شطب تعريف مناهضة السامية تطورات كثيرة، فيما يخص التعريف ومكانته، فبعد تخلي FRA عنه، تبناه التحالف الدولي لإحياء ذكرى الهولوكوست The International Holocaust Remembrance Alliance IHRA، بصيغة تكاد تكون مطابقة للنسخة الصادرة عن EUMC، مع تعديل طفيف في موقع الجملة التي تقول (ومع ذلك، فإن انتقاد إسرائيل بطريقة مشابهة لما تتعرض له أي بلد أخرى من انتقادات لا يمكن أن يعتبر مناهضة للسامية)، إذ تم تقديم موقع الجملة من نهاية ورقة التعريف، إلى مقدمة الورقة بعد فقرة التعريف الأولى.[٤٤]

ويعرف IHRA نفسه بأنه منظمة "توحد الحكومات والخبرات لتعزيز وتطوير ونشر التثقيف والأبحاث وإحياء ذكرى الهولوكوست".[٤٥] كما تشير إلى إنها تضم ٣٤ دولة عضوا فيه. وسنأتي إلى ذكر IHRA لاحقا.

٤. استخدامات تطبيقية للتعريف.. والجدل حولها

اعتمدت إدارة الرئيس الأميركي جورج دبليو بوش عام ٢٠٠٤ تعريف EUMC لمناهضة السامية، ضمن قانون رصد الممارسات العالمية المناهضة للسامية Global Anti-Semitism Review Act. وجاء في البند العاشر من الفقرة الثانية في نص القانون ربط مباشر بين مناهضة السامية والتحريض على الصهيونية وإسرائيل. تنص الفقرة على أن "مناهضة

اعتمدت إدارة الرئيس الأميركي جورج دبليو بوش عام ٢٠٠٤ تعريف EUMC لمناهضة السامية، ضمن قانون رصد الممارسات العالمية المناهضة للسامية. وجاء في البند العاشر من الفقرة الثانية في نص القانون ربط مباشر بين مناهضة السامية والتحريض على الصهيونية وإسرائيل.

السامية اتخذت في بعض الأحيان شكل تشويه الصهيونية، والحركة الوطنية اليهودية، والتحريض ضد إسرائيل".[٤٦]

وفي السادس من آب ٢٠١٢ أقر كونغرس ولاية كاليفورنيا الأميركية قانونا يسعى لمنع التمويل الفيدرالي للجامعات التي تمارس مناهضة السامية، عبر تنظيم نشاطات قد تجعل الطلبة اليهود يشعرون بأنهم مستهدفون، لكن القرار عمليا يستهدف الفعاليات المناهضة للاحتلال الإسرائيلي والمؤيدة للحقوق الفلسطينية. وينص القانون HR:35 في ديباجته على أن من الممارسات التي تعتبر مناهضة للسامية: "المتحدثون والأفلام والمعارض التي يموّلها الطلبة، والجامعة، والمجموعات [من مجتمع جامعة ولاية كاليفورنيا] التي تشارك في الخطاب المناهض للسامية أو تستخدم الاستعارات أو اللغة التي توجه تهما زائفة لإسرائيل والصهيونيين واليهود، بما في ذلك أن إسرائيلَ دولةُ عنصريةٍ وفصلٍ عنصريٍ ودولة نازيةٍ، وأنها مذنبة بارتكاب جرائم ضد الإنسانية مثل التطهير العرقي والإبادة الجماعية (...) وأنها بالغت في استخدام الهولوكوست كأداة للدعاية الصهيونية وأن لليهود في أميركا قوة كبيرة في السيطرة على السياسة الأميركية الخارجية".[٤٧]

تضمن القانون المذكور فقرات كاملة من تعريف EUMC العملي لمناهضة السامية. ويلاحظ أن نص قانون كونغرس ولاية كاليفورنيا، لا يفرق بين انتقاد ممارسات إسرائيل كدولة أو نظام سياسي، ونشاطات المنظمات الصهيونية المؤيدة لها وطرق تجنيدها للدعم السياسي وحتى المالي من جهة، وبين الممارسات العنصرية تجاه اليهود كعرق أو دين من جهة أخرى.

وضمن دفاع أعضاء كونغرس كاليفورنيا عن إسرائيل جاء في ديباجة القانون أن "مناهضة السامية في بعض فروع الجامعة تأتي تحت غطاء انتقاد إسرائيل، وعلى الكليات والجامعات أن تضمن أن يكون الطلبة محميين من أي نشاطات قد تخلق بيئة مناهضة للسامية"،[٤٨] في إشارة إلى الفعاليات المؤيدة للحقوق الفلسطينية والمناهضة للاحتلال في جامعة ولاية كاليفورنيا.

يلاحظ في هذا النص أن كلمة إسرائيل تكررت ١٤ مرة.

وإثر الجدل الحاد الذي أثير حول القرار HR-35، أعلنت جامعة كاليفورنيا أنها لن تلتزم به. وقال رئيس الجامعة مارك يودوف حينئذ "إنه لن ينتهك الدستور"[٤٩] عبر تطبيق هذا القانون. ويودوف خبير في التعديل الأول [في الدستور الأميركي الذي يكفل حريات التعبير].

وفي عام ٢٠١٧ أقر الكونغرس في ظل إدارة دونالد ترامب قانون مكافحة مناهضة السامية في أوروبا COMBATING EUROPEAN ANTI-SEMITISM ACT OF 2017، وذكرت كلمة إسرائيل فيه ٤ مرات ضمن بنود نقلت من التعريف العملي لمناهضة السامية المنسوب حاليا للتحالف الدولي لإحياء ذكرى الهولوكوست IHRA.

وجاء في البند السادس، في الفقرة الثالثة، من نص القانون أن "وزارة الخارجية الأميركي ستواصل العمل على تشجيع تبني المؤسسات الحكومية الوطنية والمؤسسات متعددة الأطراف تعريفا عمليا لمناهضة السامية، مشابها للتعريف المعتمد لدى التحالف الدولي لإحياء ذكرى الهولوكوست IHRA".[٥٠]

ورغم تبني هذا التعريف احتج مفكرون أميركيون، ضده باعتبار أنه يتعارض مع التعديل الثاني في الدستور الأميركي الذي يحمي حق التعبير عن الرأي. فقد أرسلت مجموعة "علماء كاليفورنيا من أجل الحرية الأكاديمية" California Scholars

for Academic Freedom رسالة لأعضاء كونغرس الولاية الذين صاغوا أو شاركوا في صياغة القرار. تقول الرسالة: "القرار يشكل تهديدا واضحا للحرية الأكاديمية في جامعة كاليفورنيا وفي أنظمة جامعات ولاية كاليفورنيا."[٥١]

وتقتبس الرسالة من نص القرار فقرة مما يمكن وصفه بأنه عمل مناهض للسامية تتضمن "الخطاب في حرم الجامعة الذي يصف إسرائيل بأنها دولة عنصرية أو أبارتهايد."وتعلق الرسالة على الفقرة بالقول إن "القرار HR-35 يدعو بشكل ضمني للرقابة على المحاضرات والعروض المنتقدة لإسرائيل، والتي قد يقدمها حائزون على جائزة نوبل للسلام، مثل جيمي كارتر ودزموند توتو، وميريد ماغواير، وجميعهم استخدموا مصطلح "الفصل العنصري"في وصف إسرائيل أو سياساتها. الكاتبة الشهيرة أليس ووكر، جنبا إلى جنب مع أعضاء آخرين في محكمة راسل المرموقة، يمكن أيضا أن يُمنعوا [من دخول] حرم جامعات كاليفورنيا إذا التزم مديروها بتوصيات القرار."[٥٢]

وكتبت مجموعة "الدعم القانون لمناصرة فلسطين"Palestine Solidarity Legal Support رأيا يعتبر ربط وزارة الخارجية الأميركية مناهضة السامية بانتقاد إسرائيل، أمرا إشكاليا، خصوصا أن هذا الربط يعزز الضبابية التي لا تفصل بين انتقاد إسرائيل كدولة وبين مناهضة السامية.[٥٣]

٥. أبرز المروجين للتعريف

٥,١ رابطة مكافحة التشهير ADL

بدأت رابطة مكافحة التشهير Antidefamation League ADL عملها في الولايات المتحدة عام ١٩١٣، على يد المحامي سيجموند ليفينجستون، وتصف مهمتها بأنها "وقف التشهير بالشعب اليهودي، وضمان العدالة والمعاملة العادلة للجميع...".[٥٤]

وفيما تضع المنظمة على رأس أجندة عملها بند "مكافحة مناهضة السامية"، تشير في البند الرابع إلى "الوقوف إلى جانب إسرائيل".[٥٥]

وتحت هذا البند تقدم الرابطة إرشادات أو دليليْ عمل، الأول يتضمن خطة عمل تربط بشكل واضح بين مناهضة السامية، والفعاليات المناهضة لإسرائيل في الجامعات. أما الثاني فيأتي تحت عنوان "إسرائيل: دليل إرشادي للناشطين". وتقدم فيه ما تصفها بأنها "حقائق عن إسرائيل، وأدوات للدفاع عنها".[٥٦]

أما تحت دليل العمل الثاني الذي جاء بعنوان "النشاطات المعادية لإسرائيل وحركة BDS، فتذكر صراحة دورها في محاربة "حركة مقاطعة إسرائيل وفرض العقوبات عليها وسحب الاستثمارات منها BDS".[٥٧]

ولتوضيح موقف ADL من الاحتلال، تفرد الرابطة مثلا فقرة خاصة بموقفها من الاستيطان، تقول فيها إن المستوطنات، أي التجمعات اليهودية التي أقيمت في الضفة الغربية وقطاع غزة بعد استيلاء إسرائيل على المناطق في حرب ١٩٦٧ لا تنتهك القانون الدولي".[٥٨]

يشير البروفسور نوعام تشومسكي إلى دور رابطة مكافحة التشهير في الدفاع عن إسرائيل في كتابه :Fateful Triangle The United States, Israel, and the Palestinians، ويستعرض فيه بشكل مفصل عدة نماذج تدافع فيها الرابطة حتى عن الحروب التي شنتها إسرائيل ضد لبنان، وعن احتلالها الأراضي الفلسطينية.

ويجمل تشومسكي مكانة رابطة مكافحة التشهير في إسرائيل، بالقول إنها توصف كـ"واحدة من الركائز الأساسية"للدعاية الإسرائيلية في الولايات المتحدة.[٥٩]

وفي نشرة أصدرتها منظمة "مسلمون أميركيون من أجل فلسطين"American Muslims for Palestine AMP حول طبيعة دور رابطة مكافحة التشهير في الدفاع عن إسرائيل، تشير AMP إلى أنه وفي ظل "تنامي الوعي حول الاحتلال في فلسطين، –خصوصا فيما يتعلق بحركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات على إسرائيل–، تكثف رابطة مكافحة التشهير من جهودها لمنع وصول المعلومات إلى الجمهور الأميركي، وأشد أسلحتها هو اتهام الأفراد والمنظمات أو المؤسسات التي تعمل لصالح الحقوق الفلسطينية، بمناهضة السامية. وتشير منظمة "مسلمون أميركيون من أجل فلسطين"في نشرتها إلى موقف قاض فيدرالي أميركي في نص قرار حكمه في قضية ضد الرابطة عام ٢٠٠١، قال فيه إن "رابطة مكافحة التشهير لها مكانة فريدة تمنحها القدرة على التسبب بضرر جوهري للأفراد عندما تدعم اتهامهم بمناهضة السامية".[٦٠]

وعن التعريف العملي لمناهضة السامية، تشير ADL إلى التعريف الكلاسيكي لمناهضة السامية- لكنها تربطه في سياق توضيح الممارسات المناهضة للسامية بالانتقادات التي توجه لإسرائيل.[٦١]

وتشير في جهودها لمكافحة مناهضة السامية العالمية إلى التعريف العملي لمناهضة السامية المعتمد لدى التحالف الدولي لإحياء ذكرى الهولوكوست IHRA لتحديد ما يمكن اعتباره ممارسات مناهضة للسامية.[٦٢]

كما تتوفر في موقع الرابطة الالكتروني عشرات بيانات الترحيب منها بقرارات تبني دول أو منظمات هذا التعريف.[٦٣]

٥,٢ مركز سيمون وايزينثال Simon Wiesenthal Center

يصف القائمون على مركز سيمون وايزينثال على صفحته الالكترونية بأنه "منظمة حقوق إنسان يهودية عالمية تسعى لمواجهة مناهضة السامية والكراهية والإرهاب، وتعزيز حقوق الإنسان وكرامته، ودعم إسرائيل، والدفاع عن سلامة جميع اليهود في أنحاء العالم، وتعليم الدروس المستفادة من محرقة اليهود للأجيال القادمة. وللمركز مقر رئيسي في لوس انجلوس، ومكاتب في نيويورك وتورنتو وميامي وشيكاغو وباريس وبوينس آيرس، والقدس."[٦٤]

ويركز المركز على حركة مقاطعة إسرائيل BDS أيضا، ويحاول إلصاق تهمة مناهضة السامية بها، بالادعاء أن "BDS عادة ما تتجاوز الخط الأحمر للانتقاد الشرعي لسياسات الحكومة الإسرائيلية إلى لغة مسمومة تشيطن دولة اليهود ومؤيديها في كل مكان".[٦٥]

٥,٣ اللجنة اليهودية الأميركية AJC

شاركت اللجنة اليهودية الأميركية American Jewish Committee – AJC ضمن المنظمات الصهيونية التي عملت على وضع التعريف العملي لمناهضة السامية. وتشير AJC إلى أهمية التعريف وتفرد له نشرة خاصة بعنوان "التعريف العملي لمناهضة السامية: ماذا يعني؟ لماذا هو مهم؟ وماذا يجب أن نفعل به؟.[٦٦]

وتذكر أن هذا التعريف مهم في تحديد الممارسات المعادية لإسرائيل التي يمكن أن توضع في إطار مناهضة السامية. كما تشير إلى عدد من المؤسسات الأكاديمية والبحثية في أميركا وأوروبا التي تعتمد التعريف وتستخدمه في تحديد الممارسات المناهضة للسامية. كما تقول إن ٥٧ دولة تستخدم ما ورد في التعريف كمعايير لجمع البيانات المتعلقة بالممارسات المناهضة للسامية.

٥,٤ التحالف الدولي لإحياء ذكرى الهولوكوست IHRA

نظم التحالف الدولي لإحياء ذكرى الهولوكوست IHRA مؤتمرا دوليا في القدس المحتلة بتاريخ ٢٣ كانون الأول ٢٠٢٠، تحت عنوان "يوم إحياء ذكرى الهولوكوست في القدس International Holocaust Remembrance Day in Jerusalem، بمشاركة قادة من أربعين دولة.

وسبقت الإشارة إلى أن هذا المركز تبنى عام ٢٠١٦ تعريف مناهضة السامية العملي بعد تخلي FRA عنه.[٦٧]

واستغل رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو المؤتمر في خطابه، للربط المباشر بين مناهضة السامية، ومناهضة الصهيونية.[٦٨]

وبات التعريف العملي لمناهضة السامية مرتبطا حاليا بالتحالف الدولي لإحياء ذكرى الهولوكوست IHRA، ويسمى عند الإشارة إليه بـ"تعريف التحالف الدولي لإحياء ذكرى الهولوكوست العملي لمناهضة السامية".

٦. حزب العمال البريطاني وتبني تعريف مناهضة السامية.. نموذج على الجهد الصهيوني

عُرف عن زعيم حزب العمال البريطاني السابق جيريمي كوربن، انتقاداته الشديدة لإسرائيل وتأييده للحقوق الفلسطينية، الأمر الذي دفع إسرائيل ومنظمات صهيونية إلى توجيه انتقادات شديدة له واتهامه شخصيا بمناهضة السامية، والعمل على الإطاحة به. وسبق الانتخابات لزعامة حزب العمال الأخيرة التي خسرها كوربين في بداية شهر نيسان ٢٠٢٠، تبني حزب العمال التعريف العملي لمناهضة السامية بكافة بنوده في أيلول ٢٠١٨. ورفض الحزب ملاحظات طلب كوربين إضافتها في القرار تتعلق بالحق في انتقاد إسرائيل، لكن حزب العمال أصدر بيانا منفصلا تحدث فيه عن حرية التعبير فيما يتعلق بإسرائيل والحقوق الفلسطينية.[٦٩]

وأشار تقرير نشره موقع Middle East Eye إلى إمكانية وقوف وزراتي الخارجية والشؤون الإستراتيجية الإسرائيليتين وراء الحملة التي تعرض لها كوربين وأدت إلى الإطاحة به. وذكر التقرير أن مجموعة إسرائيلية تضم ناشطين حقوقيين ومحاضرين جامعيين طلبت الحصول على معلومات من الحكومة البريطانية حول تدخل حكومة بنيامين نتنياهو في الشؤون السياسية البريطانية عبر استهداف إسرائيل

ومؤيديها لجيريمي كوربين، ضمن حملة أكبر للمس بالناشطين في حملة مناصرة الحقوق الفلسطينية في بريطانيا.[٧٠]

الخلاصة

يمثل تعريف مناهضة السامية أداة مهمة لقمع منتقدي إسرائيل. فتهمة مناهضة السامية خصوصا في الغرب تعتبر وصمة قد تقضي على الحياة المهنية لمن يتم إلصاقها به، وهنا تجدر الإشارة إلى ملاحظتين:

١. على الرغم من تضمين التعريف نصا ضبابيا جدا حول شرعية "انتقاد إسرائيل فيما يمكن انتقاد الدول الديمقراطية الأخرى"، لكن التطبيق العملي لهذا التعريف، من ناحية، والضغوط الهائلة التي تمارسها المنظمات الصهيونية المتفرغة للدفاع عن إسرائيل من ناحية ثانية، تشير إلى أهميته كسلاح يتم التلويح به في وجه منتقدي سياسة إسرائيل حتى عندما يتعلق الأمر بالاحتلال بهدف إسكاتهم.

ولن نجد اعترافا صريحا بذلك، أكثر مما كتبه كينيث ستيرن في صحيفة الـ"غارديان"البريطانية، إذ أقر في مقال له، أنه هو الذي صاغ التعريف العملي لمناهضة السامية قبل خمسة عشر عاما ضمن عمله مع اللجنة اليهودية الأميركية AJC، التي كانت شريكا مع EUMC وغيرها من الأطراف والخبراء في وضع التعريف، لكنه عندما وضع صياغة التعريف كان يهدف إلى حماية اليهود من الممارسات المعادية لهم، وتوفير آليات لرصد الممارسات المناهضة للسامية، ولم يكن يستهدف أبدا قمع حريات التعبير.[٧١]

ويضيف ستيرن في مقدمة مقاله إن الأمر التنفيذي رقم١٣٨٩٩ الصادر عن الرئيس الأميركي دونالد ترامب بتاريخ ١١ كانون الأول ٢٠١٩ تحت عنوان "مكافحة مناهضة السامية"،[٧٢] تعدى هذه الأهداف، عبر استخدامه في تحديد الممارسات التي قد تعتبر مناهضة للسامية من وجهة نظر إدارة ترامب في الجامعات الأميركية؛ ما يعني أن الأمر التنفيذي هذا يشكل "اعتداء على الحريات الأكاديمية وحرية التعبير، ولن يؤذي المناصرين للقضية الفلسطينية فقط، بل أيضا الطلبة اليهود والمحاضرين والتعليم الأكاديمي بحد ذاته".[٧٣]

وستيرن مدير مركز BARD لدراسات الكراهية، ومؤلف كتاب "الصراع على الصراع: الجدل الفلسطيني الإسرائيلي في الجامعات"The Conflict Over the Conflict: The Israel/Palestine Campus Debate.

٢. رصد كل التغيرات المتعلقة بمناهضة السامية أمر صعب جدا، وحسب المتابعة اليومية لا يكاد يخلو يوم واحد من الإشارة إلى التعريف أو إلى الربط بين مناهضة السامية وانتقاد إسرائيل، عبر الكثير من المقالات والدراسات التي يعمل المدافعون عن إسرائيل على إعدادها، فضلا عن تحقيق مناصري إسرائيل والمدافعين عنها حتى بصفتها دولة قائمة بالاحتلال، نجاحات عبر الضغط على الحكومات الأجنبية والمنظمات الدولية لتبني التعريف. وحسب اللجنة اليهودية الأميركية AJC فقد تبنى بين عامي ٢٠١٧ – ٢٠٢٠ أكثر من عشرين دولة أوروبية التعريف العملي لمناهضة السامية بشكل رسمي، أو دعت برلمانات وحكومات هذه الدول إلى تبنيه.[٧٤]

الهوامش

1. https://www.merriam-webster.com/dictionary/antisemitism.
2. Hanna Arendt, *The origins of totalitarianism*, 2nd Edition, (Cleveland and New York: The World Publishing Company, 1958), p 4.
3. Arendt, p 4
4. Arendt, p 5
5. Arendt, p 5
6. Arendt, p 5-6
7. JeanPaul Sartre, *Anti-Semite and Jew*, (Translated by George J. Becker), (New York, Schocken Books, 1944), p-p 9-10.
8. Sartre, p 10
9. Sartre, p 10
10. Natan Sharansky, "On Hating the Jews", *Commentary*, (November 2003),

    https://www.commentarymagazine.com/articles/natan-sharansky-3/on-hating-the-jews/

١١. ماير فلنر وآخرون. دراسات في الصهيونية. (القدس: منشورات صلاح الدين. ١٩٧٦).

١٢. ثيودور **هرتسل، الدولة اليهودية** (ترجمة محمد فاضل) (بدون عنوان واسم الناشر والسنة). الصيغة الأصلية نشرت في سنة ١٨٩٤

١٣. برنار لازار، **مناهضة السامية: تاريخها وأسبابها**. (ماري شهرستان، مترجمة ٢٠٠٤). الطبعة الأولى. (دمشق: دار الأوائل، ١٨٩٤).

14. Leon Pinsker, "Auto Emancipation", (1882), Jewish Virtual Library.

    https://www.jewishvirtuallibrary.org/quot-auto-emancipation-quot-leon-pinsker.

15. Pinsker, 1882
16. Pinsker, 1882
17. Noam Chomsky. Fateful Triangle: *The United States, Israel, and the Palestinians*, (London: Pluto Press, 1999), p 59.

١٨. نورمان فنكلستاين، **صناعة الهولوكوست: تأملات في استغلال المعاناة اليهودية**. الطبعة الأولى. (بيروت: دار الآداب، 2001).

19. Chomsky. p 59.
20. Arnold Forster, Benjamin R. Epstein, *The New Anti-Semitism*. 1st Edition, (New York: Mc-Graw-Hill, 1974).
21. Forster and Epstein, p 313.
22. Dina Porat, "The International Working Definition of Antisemitism and Its Detractors", Israel Journal of Foreign Affairs, 5 (2011), pp 93-101.

    http://www.kantorcenter.tau.ac.il/sites/default/files/DinaPorat5%209_0.pdf

23. Dina Porat
24. Dina Porat
25. Dina Porat.
26. European Union Agency for Fundamental Rights. Working Definition of Anti-Semitism. Retrieved April 28, 2011, from : http://fra.europa.eu/en/publication/2011/working-definition-antisemitism
27. European Union Agency for Fundamental Rights. Working Definition….
28. European Union Agency for Fundamental Rights. Working Definition…..
29. European Union Agency for Fundamental Rights. Working Definition…..
30. White, B. (2012). *Israel lobby uses discredited anti-Semitism definition to muzzle debate*. Retrieved Sep. 28, 20012 from: http://electronicintifada.net/content/israel-lobby-uses-discredited-anti-semitism-definition-muzzle-debate/11716.
31. European Union Agency for Fundamental Rights - FRA (media@fra.europa.eu). Re: The Definition of Anti-Semitism. E-mail to Khaldoun Barghouti. (k_barghouti@hotmail.com) (12 October, 2012).
32. https://camera-uk.org/2013/10/31/in-praise-of-the-eu-working-definition-of-antisemitism/
33. European Union Agency for Fundamental Rights - FRA (media@fra.europa.eu) (2013, April, 17). RE: Another Question. E-mail to Khaldoun Barghouti. (k_barghouti@hotmail.com).
34. https://www.coe.int/en/web/european-commission-against-racism-and-intolerance/country-monitoring
35. Khaldoun Barghouti. (k_barghouti@hotmail.com). (2013, February, 27). The Definition of Anti-Semitism. E-mail to European Commission Against Racism and Intolerance (ECRI) (ecri@coe.int).
36. "European Commission Against Racism and Intolerance (ECRI) (ecri@coe.int). (2013, March, 05). Re: The Definition of Anti-Semitism. E-mail to Khaldoun Barghouti. (k_barghouti@hotmail.com).
37. "European Commission Against Racism and Intolerance (ECRI) (ecri@coe.int). (2013, March, 05). Re: The Definition of Anti-Semitism. E-mail to Khaldoun Barghouti. (k_barghouti@hotmail.com).
38. JTA, "EU drops its 'working definition' of anti-Semitism", *Times of Israe* (December, 2013).

    https://www.timesofisrael.com/eu-drops-its-working-definition-of-anti-semitism/.

39. JTA, "EU drops its 'working definition'…
40. JTA, "EU drops its 'working definition'…
41. JTA, "EU drops its 'working definition'…
42. https://antisemitism.org.il/he/83489/.
43. https://www.independent.co.uk/voices/comment/the-eu-has-retired-its-working-definition-of-anti-semitism-its-about-time-8986565.html.

44. https://www.holocaustremembrance.com/working-definition-antisemitism.
45. https://www.holocaustremembrance.com/about-us.
46. https://www.congress.gov/bill/108th-congress/senate-bill/2292/text?q=%7B%22search%223%A%5B%22actionDate%3A%5C%221147%C20165%19-04-C%22+AND+%28billIsReserved%3A%5C%22N%5C%22+or+type%3A%5C%22AMENDMENT%5C%2229-%5%22%D%7D.
47. NUMBER: HR 35: http://leginfo.ca.gov/pub/1112-/bill/asm/ab_00010050-/hr_35_bill_20120823_amended_asm_v98.html.
48. NUMBER: HR 35
49. http://www.sfgate.com/education/article/UC-rejects-anti-Semitism-resolution-3822759.php#ixzz24xuc1Ulw.
50. congress.gov/bill/115th-congress/house-bill/672/text.
51. USACBI, An Open Letter from California Scholars on HR-35, 2012

    http://www.usacbi.org/201209//an-open-letter-from-california-scholars-on-hr-35/.
52. An Open Letter from California Scholars on HR-35
53. https://static1.squarespace.com static/548748b1e4b083fc03ebf70e /t/556490f5e4b0658666cfe8676/1432654069359/.+FAQ-onDefinition-of-Anti-Semitism-315-9-.pdf.
54. https://www.adl.org/who-we-are/our-mission.
55. https://www.adl.org/what-we-do.
56. https://www.adl.org/what-we-do/israel/anti-israel-activity-bds.
57. https://www.adl.org/what-we-do/israel/anti-israel-activity-bds.
58. https://www.adl.org/resources/fact-sheets/response-to-common-inaccuracy-settlements-and-international-law.
59. Noam Chomsky. *Fateful Triangle: The United States, Israel, and the Palestinians*, (London: Pluto Press, 1999).
60. https://www.ampalestine.org/sites/default/files/attachment/201603//ADLbooklet.updated2014.pdf.
61. https://www.adl.org/anti-semitism.
62. https://www.adl.org/take-action-global-100.
63. https://www.adl.org/search?keys=Working+Definition+of+Anti-Semitism.
64. Harold Brackman. "Boycott Divestment Sanctions BDS Against Israel: Anti-Semitic Anti peace Poison Pill", (N.P.): Simon Wiesenthal Center, 2013.
65. Harold Brackman. "Boycott Divestment Sanctions BDS Against Israel: Anti-Semitic Anti peace Poison Pill", (N.P.): Simon Wiesenthal Center, 2013.
66. https://www.ajc.org/sites/default/files/pdf/2020-04/IHRA%20Working%20Definition%20of%20Antisemitism%20Booklet%20Web%20-%203.20.pdf.
67. https://www.holocaustremembrance.com/resources/working-definitions-and-charters.
68. https://www.youtube.com/watch?v=_yoaMDo51Js.
69. https://www.theguardian.com/politics/2018/sep/04/labour-adopts-ihra-antisemitism-definition-in-full.
70. https://www.theguardian.com/politics/2018/sep/04/labour-adopts-ihra-antisemitism-definition-in-full.
71. https://www.theguardian.com/commentisfree/2019/dec/13/antisemitism-executive-order-trump-chilling-effect.
72. https://www.federalregister.gov/documents/2019/12/16/2019-27217/combating-anti-semitism.
73. https://www.theguardian.com/commentisfree/2019/dec/13/antisemitism-executive-order-trump-chilling-effect.
74. https://www.ajc.org/sites/default/files/pdf/2020-04/IHRA%20Working%20Definition%20of%20Antisemitism%20Booklet%20Web%20-%203.20.pdf.

مهند مصطفى*

معاداة السامية الجديدة كجزء/ ككل من الاشتباك مع المسألة الفلسطينية العادلة

ملخص

ترمي هذه الورقة إلى عرض وتحليل السجال الإسرائيلي حول مفهوم العداء للسامية، وحصره في المسألة الفلسطينية. وينطلق المقال من ادعاء أن السجال الذي فجره قرار البرلمان الفرنسي اعتبار المعارضة للصهيونية شكلا من أشكال العداء للسامية، في جانب منه، يتعلق بسؤال جوهر الصهيونية في السجال الإسرائيلي، وعن أي صهيونية بالضبط يجب معارضتها، وهو جزء من الصراع السياسي والأيديولوجي الأوسع في إسرائيل حول احتكار تفسير الصهيونية ودورها وغايتها.

ويأتي هذا التأطير للعداء للسامية من خلال توسيع المفهوم ليشمل كل نقد لإسرائيل ولسياساتها باعتبارها تعبيرا جمعيا عن حق تقرير المصير للشعب اليهودي، وذلك كجزء من سحب خطاب العدالة الذي تتسم به القضية الفلسطينية، ووسم تأييد الحق الفلسطيني كجزء من العداء للسامية، ولكن الأهم اعتبار المعارضة للصهيونية جزءا من العداء للصهيونية. فتوسيع المفهوم لا يفيد مواجهة العداء للسامية النابع من ممارسات وتفوّهات أو خطاب تقليدي صنف على أنه عداء للسامية في الماضي، بل جاء كجزء من مواجهة الخطاب المؤيد لحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وعدالة قضيته وحقه في مقاومة الاحتلال أو الاستعمار الإسرائيلي، وفي الجانب الآخر سبغ المشروع الصهيوني بالأخلاقية من خلال إفراد تعريف خاص به من خلال نفيّ كل ناقد له. في هذا المقال سيكون

* باحث ومحاضر جامعيّ في العلوم السياسيّة، مدير عام مدى الكرمل – المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية– حيفا.

يتم في السنوت الأخيرة استعمال مكثف لتهمة العداء للسامية ضد كل ناقد لإسرائيل، أو ضد كل نقد أو ناقد للوبيات اليهودية في الدول الغربية، رغم أن هذه اللوبيات هي جزء من النظام السياسي في الدول الديمقراطية، ونقد دورها هو حالة طبيعية لنقد العلاقة بين السلطة وبين القوى السياسية الضاغطة.

من الصعب التفريق بين النقاش حول جوهر الصهيونية وبين تعريف معاداة السامية.

توطئة

في العام ١٩٧٥ أقرت الهيئة العامة للأمم المتحدة بأغلبية كبيرة قرارا ينص على أن «الصهيونية هي أحد أشكال العنصرية والتمييز العنصري». وفي العام ١٩٩١ عادت الهيئة العامة واتخذت قرارا بإلغاء القرار السابق. حدث ذلك نتيجة تحولات دولية (نهاية الحرب الباردة) وتحولات إقليمية (حرب الخليج، وبدء مؤتمر السلام في الشرق الأوسط بين الدول العربية وإسرائيل). وهكذا ألقت الأمم المتحدة هذا الشأن الذي كان جزءا من قرار دولي رسمي، إلى ساحة السجال الأكاديمي، والفكري والسياسي، والأهم الأيديولوجي، واخضعته لميزان القوة والقوى في العالم، وليس لميزان المعايير الأخلاقية والعدالة وحقوق الإنسان والشعوب.

في السنوات الأخيرة، أقرت مجموعة من البرلمانات الأوروبية والولايات الأميركية قرارات اعتبرت فيها أن التوجهات المعارضة للصهيونية هي شكل من أشكال العداء للسامية، وقبل ذلك اعتبرت أن حركة المقاطعة لإسرائيل تحمل مركبات معادية للسامية أو أنها معادية للسامية، بدأ السجال الأخير في أعقاب قرار البرلمان الألماني اعتبار حركة المقاطعة لإسرائيل حركة معادية للسامية بشكل جارف، ولاحقا قرار البرلمان الفرنسي اعتبار معارضة الصهيونية شكلا من أشكال معاداة السامية، اتّخذ القراران في النصف الثاني من العام ٢٠١٩، تتويجا لجهود إسرائيلية كبيرة بذلت في السنوات الأخيرة للوصول لهذه النتيجة، إن الإسقاط الجارف للتعريفات آنفة الذكر على حركة المقاطعة وعلى المعارضين للصهيونية، هو بذاته يؤكد على تعسّف هذه التوجهات، وتماهيها من التوجهات الإسرائيلية الحالية، اليمينية القومية الدينية، التي تعمل على إزالة كل عقبة أمام تنفيذ مشروعها الاستيطاني في فلسطين، تحديدا في مناطق ال–٦٧.

بكل الأحوال، حملت هذه الخطوات والتوجهات معها سؤالا؛ سؤالا إسرائيليا تحديدا، حول مفهوم الصهيونية إلى جانب مفهوم العداء للسامية، والعلاقة بينهما.

يتم في السنوت الأخيرة استعمال مكثف لتهمة العداء للسامية ضد كل ناقد لإسرائيل، أو ضد كل نقد أو ناقد للوبيات اليهودية في الدول الغربية، رغم أن هذه اللوبيات هي جزء من النظام السياسي في الدول الديمقراطية، ونقد دورها هو حالة طبيعية لنقد العلاقة بين السلطة وبين القوى السياسية الضاغطة. فمثلا، بعد تصريحات النائبة الديمقراطية الهان عمر عن مدى تأثير اللوبي اليهودي في أروقة الحكم في الكونغرس، ونقدها للسياسات الإسرائيلية عموما، فقد اتهمت بمعاداة السامية، حتى أن الرئيس الأميركي دونالد ترامب هاجمها، واتهم الحزب الديمقراطي بأنه حزب معاد لليهود وإسرائيل.[١] وتكرر الأمر نفسه مع صحفي ألماني في دير شبيغل نشر تقريرا عن اللوبي اليهودي في ألمانيا، فاتهم مباشرة بالعداء للسامية، واتضح أنه كتب تقريرا من عدة حلقات عن لوبيات أخرى في ألمانيا.[٢]

يستعمل نتنياهو بشكل مكثف العداء للسامية لوسم كل نقد بإسرائيل سواء أكان المنتقدون أفرادا أم مؤسسات، كان آخرها وسم محكمة الجنايات الدولية بمعاداة السامية، وقبل ذلك وسم القيادات الفلسطينية بمعاداة السامية، والقائمة لا

يثير النقاش الإسرائيلي حول مفهوم معاداة السامية وربطه بمعارضة الصهيونية، سؤالا مركزيا حول الصهيونية نفسها في إسرائيل والعالم، بالدرجة نفسها التي يثيرها مفهوم معاداة للسامية. ولا شك أن موقف أغلب المعارضين الإسرائيليين للقرار الفرنسي باعتبار معارضة الصهيونية شكلا من أشكال العداء للسامية نانع من الحرص على مفهوم واحد للصهيونية كما يرونه.

تتسع لإحصاء الاتهامات التي تطلقها إسرائيل الحالية، لا سيّما نتنياهو، على كل ناقد أو معارض لإسرائيل وسياساتها بأنه معاد للسامية. استعملت إسرائيل العداء للسامية لنزع شرعية الناقدين لإسرائيل، لا سيّما المناهضين لها فكريا، وسياسيا واخلاقيا، ووصفت بالإرهاب كل يقاوم الاحتلال الإسرائيلي بأدوات عنفيّة.

مقدمة

يثير النقاش الإسرائيلي حول مفهوم معاداة السامية وربطه بمعارضة الصهيونية، سؤالا مركزيا حول الصهيونية نفسها في إسرائيل والعالم، بالدرجة نفسها التي يثيرها مفهوم معاداة للسامية. ولا شك أن موقف أغلب المعارضين الإسرائيليين للقرار الفرنسي باعتبار معارضة الصهيونية شكلا من أشكال العداء للسامية نانع من الحرص على مفهوم واحد للصهيونية كما يرونه؛ أي حركة تحرر وطني أنهت مهمتها القومية بإقامة دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. وما حدث لاحقا، من استمرار الاحتلال عم ١٩٦٧، هو خارج عن المفهوم «التحرري» للصهيونية، ويجب معارضته لأنه يشوه الصهيونية. يثابر الباحث الإسرائيلي اليساري ديمتري شومسكي في نصوصه الأكاديمية والصحافية، في التفريق بين الحركة الصهيونية كحركة تحرر وطني وبين المقاربة الحالية الصهيونية، لا سيّما لدى اليمين القومي الديني المسيطر على الحكم، كحركة كولونيالية تسيطر على شعب آخر وحتى تقوم باستعباده.[٣]

يعتقد شومسكي، أن «جوهر الصهيونية يتمثل في تأسيس وطن قومي لليهود في حدود آمنة ومعترف بها، في اطار دولة ديمقراطية مساواتية مع أغلبية يهودية– [بينما] مشروع الاحتلال والمستوطنات، الذي لا تحدّه حدود سياسية، وليس له أثر اخلاقي يستأنف على مبدأ الصهيونية [كحركة تحرر وطني] منذ أكثر من ٥٠ عاما».[٤] إذن، يعتقد شومسكي أن استمرار الاحتلال منذ عام ١٩٦٧، وصعود الصهيونية الدينية ومشروع الاستيطان والسيطرة على شعب آخر، ومنعه من حق تقرير المصير هو الذي شوّه جوهر الصهيونية، وعلى الرغم من أن شومسكي لا يحمل مسؤولية كل عوامل التشوه على الصهيونية الدينية فقط، والتي يعتبرها كتيار استيطاني هو الأكثر نفوذا وتأثيرا في إسرائيل الراهنة. ويؤكد أن الصهيونية الدينية هي استمرار للصهيونية العلمانية التي أقامت الدولة على أنقاض الشعب الفلسطيني، ومع ذلك فهو يُعارض فكرة الدولة الواحدة، بل يقترح تركيز النضال ضد البعد الاستيطاني في الصهيونية بعد عام ١٩٦٧. يفرق شومسكي بين المشروع الصهيوني عام ١٩٤٨، وبين المشروع الصهيوني عام ١٩٦٧، يعتبر الأول حركة تحرر وطني، والثاني حركة كولونيالية، يتقدم شومسكي عن المعارضين للاحتلال في إسرائيل في اعتباره أن ما حدث عام ١٩٤٨ جاء على أنقاض ومأساة الشعب الفلسطيني، وتتحمل الحركة الصهيونية مسؤولية ذلك.

يندرج هذا التمييز العملي والنظري داخل الصهيونية مع التصنيف الذي قام به حاييم غانز، أستاذ القانون في جامعة تل ابيب، في مجموعة من الكتب التي أصدرها، والتي ميّز فيها بين ثلاثة أنماط من الصهيونية: الصهيونية المساواتية، الصهيونية التمكلية (الاستحواذية)، والصهيونية التراتبية. في كتابه «الصهيونية المساواتية»، يتطرق غانز لهذا المفهوم معتبرا أن مصداقية الصهيونية الأخلاقية تتمثل في اعترافها بحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير وإقامة دولة فلسطينية

على حدود عام ١٩٦٧، والاعتراف بدورها في ولادة مشكلة اللاجئين دون القبول بعودتهم لحدود دولة إسرائيل، ومساواة المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل وإلغاء قانون حق العودة مع اعطاء امتياز معين لليهود الراغبين بالهجرة لإسرائيل. ويصل غانز إلى نتيجة مفادها أن على إسرائيل تبني الصهيونية «المساواتية» وإلا فإن الأمر سوف يؤدي إلى اهتراء خطابها الاخلاقي وتصدعه، ويهدد مستقبلها.[٥]

يعتقد غانز في كتابه حول «نظرية سياسية للشعب اليهودي»، الذي صدر باللغتين العبرية والإنكليزية، أن الصهيونية التراتبية التي تعطي أفضليّة لليهود على غير اليهود في الدولة اليهودية تتناقض مع جوهر الصهيونية المساواتية التي من منظومتها، برأيه، انطلق المشروع الصهيوني كحركة قومية لليهود. يشير غانز في هذا الصدد أن حق تقرير المصير لمجموعة قومية معنية لا يعطيها الحق في الهيّمنة أيضا في حدودها السياسية؛ أي داخل الدولة التي تعبر عن حقها في تقرير المصير.

يناقش غانز أصحاب الصهيونية التراتبية الذين يعتقدون أن على دولة إسرائيل إعطاء امتيازات وأفضلية للمجموعة اليهودية مقابل باقي المجموعات، معتبرا ذلك متناقضا مع أسس الصهيونية المساواتية. تتعلق الصهيونية التراتبية، تحديدا، بحقوق المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل والتمييز اللاحق ضدهم، والنابع من هذا المفهوم للصهيونية.

أما الصهيونية التملكية والتي يرفضها غانز أيضا، فهي تلك الصهيونية التي ترى في السيطرة على الأرض واستعمارها (الاستيطان تحديدا) والتوسع، الغاية الجوهرية للصهيونية؛ بمعنى تلك هي الصهيونية التي ترى الرابط التملكي أو الاستحواذي بين المجموعة القومية والأرض. والتي تنطلق من جوهر واحد مستمر للماهية القومية، والحق في تطبيقها في فلسطين.[٦]

انطلق غانز في تصنيفه للصهيونية من خلال أطر نظرية وفلسفية مختلفة، صبّها في دراسة المشروع الصهيوني في التاريخ والحاضر. ويرمي غانز من هذا النقاش، في سلسلة من كتبه ومقالاته، إلى إعطاء مصداقية أخلاقية للمشروع الصهيوني بأدوات نظرية وفلسفية مُحكمة التطريز، غير أنه لكي يقوم بذلك يعترف بوجود أنماط من الصهيونية تهدد الأساس الأخلاقي للصهيونية، وهي التملكية والتراتبية. وعلى خلاف شومسكي، لا يربط غانز هذه الانماط بالمسألة الفلسطينية فحسب، بل في جوهر المشروع الصهيوني. فعلى عكس شومسكي الذي يعتبر أن الصهيونية كان لها جوهر واحد وغاية واحدة انحرفت عن مسارها بسبب احتكاكها مع الفلسطينيين وتحديدا عام ١٩٦٧، فإن غانز يعتقد أن الماهيات الثلاث كانت قائمة منذ البداية في المشروع الصهيوني، وزاد التوتر بينها وحضورها بعد مجيء هذا المشروع إلى فلسطين.

قبل التصنيف الذي قدمه غانز للصهيونية، وهو تصنيف متأخر، ولا شك متأثر من التحولات السياسية في إسرائيل في العقد الأخير، المُتمثلة في تعميق السيطرة الاستعمارية على الأراضي الفلسطينية، وتلاشي فكرة تقسيم البلاد بين دولتين، وتقليص حيز المواطنة للفلسطينيين داخل إسرائيل. ساد نقاش آخر في سنوات التسعينيات، يتعلق بالصهيونية نفسها، وتمثل في صعود توجهات «ما بعد صهيونية»، تستأنف على الصهيونية من داخلها، أو تنتقد الواقع الذي أنتجه المشروع الصهيوني على طرفيّ الخط الأخضر.

يشير شلومو اهرنسون أن التوجهات «ما بعد الصهيونية» الموجودة في صفوف يهود إسرائيل وفي العالم، لا سيّما التوجهات الاكاديمية والثقافية قد نهلت من تراث العداء للسامية في الغرب.[٧] في هذا الصدد، يفرق أوري رام بين المعارضة للصهيونية وبين ما بعد الصهيونية، لأن الثانية نمت من رحم المجتمع الإسرائيلي وتعبر عن الواقع الإسرائيلي، في حين أن المعارضة للصهيونية تلغي التعبير القومي للصهيونية المتمثل في دولة إسرائيل. لا يعني ذلك، حسب رام، أن ما بعد الصهيونية لا تلغي الصهيونية، ولكنها تنطلق من الواقع الذي حققه المشروع الصهيوني.[٨] ليس من أجل إلغائه والعودة إلى نقطة البدء أو الصفر، وإنما من أجل تغييره بما يحقق المساواة للفلسطينيين في إسرائيل، والاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني.[٩]

يرتبط هذا النقاش حول المشروع الصهيوني من داخله، بالسجال حول معاداة السامية في السنوات الأخيرة، وتحديدا مع توسيع تعريف معاداة السامية. فالأمر لا يتعلق بتعريف معاداة السامية فحسب، وإنما بات متعلقا بمقاربة الصهيونية من داخلها. فتوسيع تعريف معاداة السامية الذي جرى في السنوات الأخيرة يستهدف بالأساس هذا الاشتباك بين المشروع الصهيوني والمسألة الفلسطينية. فالتعريف الكلاسيكي لمعاداة السامية لا يمكن أن يحقق أهدافا سياسية

لا يمكن أن يحقق التعريف الكلاسيكي لمعاداة السامية أهدافا سياسية وأيديولوجية إسرائيلية في اشتباك المشروع الصهيوني مع المسألة الفلسطينية، التي يتم التعامل معها في طرفها الأول كقضية احتلال ونضال مشروع لشعب يناضل من أجل حق تقرير المصير، وفي طرفها الآخر كسؤال استعماري يتمثل في مقاربة الصهيونية كحركة استعمارية استيطانية.

وأيديولوجية إسرائيلية في اشتباك المشروع الصهيوني مع المسألة الفلسطينية، التي يتم التعامل معها في طرفها الأول كقضية احتلال ونضال مشروع لشعب يناضل من أجل حق تقرير المصير، وفي طرفها الآخر كسؤال استعماري يتمثل في مقاربة الصهيونية كحركة استعمارية استيطانية، فضلا عن نضال الفلسطينيين داخل إسرائيل من أجل مساواة حقوقهم الفردية المدنية والقومية الجماعية. لذلك يهدف توسيع مفهوم معاداة السامية إلى استسهال أخلاقي، وسياسي وقانوني في تجريم حراكات فلسطينية، إن لم يكن كلها على أنها معاداة للسامية، وبذلك فهو يضع مأزقا أخلاقيا أمام يهود صهيونيين وغير صهيونيين في مقاربة الصهيونية من جهة، ومقاربة الواقع السياسي الناتج عن المشروع الصهيوني من جهة ثانية.

معاداة السامية كأداة أيديولوجية-سياسية

بدأ النقاش حول العداء للسامية قبل قرار البرلمان الفرنسي التاريخي أواخر عام ٢٠١٩ باعتبار معارضة الصهيونية شكلا من أشكال معاداة السامية. بدأ هذا السجال بُعيد قرار منظمة «التحالف الدولي لإحياء ذكرى الكارثة» (International Holo-caust Remembrance Alliance) بتوسيع هذا المفهوم، وهو توسع للتعريف بدأ التداول فيه منذ العام ٢٠١٥.

ظهر في أعقاب ذلك اشتباك مهم بين هذا التعريف وبين المسألة الفلسطينية، حيث كتب الباحث الإسرائيلي المعروف، يهودا باور، مقالا اعتبر فيه أن المطالبة بحق العودة للفلسطينيين هي جزء من معاداة السامية.[١٠] وباور هو الرئيس الفخري لهذا التحالف الذي أقيم عام ١٩٩٨، والذي يضم ٣٣ دولة في العالم، ويعمل فيه بتطوع مئات المعلمين والأكاديميين ومديري متاحف إحياء الكارثة في العالم. يشير غولدبرغ وراز أن تعريف التحالف الدولي للعداء للسامية جاء لصد كل نقد لإسرائيل، والدفاع عن المستوطنين وسياسات إسرائيل في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧، كما أنه يمنع التحقيق بقضايا انتهاك حقوق الإنسان في إسرائيل.[١١] وتوضح دينا بورات أن التعريف الجديد للعداء للسامية تبناه الراصد الأوروبي للعنصرية وكراهية الأجانب التابع للاتحاد الأوروبي (EUMC). لذلك فإن الموضوع يتعدى التحالف الدولي الذي تستعمله الحكومة الإسرائيلية لوسم كل ناقد لإسرائيل من أفراد ومؤسسات بالعداء للسامية.[١٢] حيث تم تبني التعريف من جميع دول الاتحاد الأوروبي بما في ذلك بريطانيا. تثير هذه الحقيقة أمرا مهما في المقاربة الأوروبية للصهيونية كحركة قومية تعبر عن المجموع اليهودي. فالتعريف الأوروبي يتعدى التصدي لمعاداة السامية في مجتمعاتها ضد مواطنين يهود في هذه المجتمعات، بل يمتد ويتواصل ويرمي لصد النقد عن حركة قومية، استعمارية في نظر الفلسطينيين على الأقل، نفذت مشروعها السياسي، القومي والاستعماري خارج حدود أوروبا. والمهم أنه يحمل نزعة تجريمية حسب القانون حتى لمن ينتقد المشروع الصهيوني الذي هو خارج الحدود الأوروبية. والأهم، تخصيص قانون وتعريف خاص لمعاداة السامية خارج قوانين العنصرية وكراهية الآخر العامة في الدول الأوروبية، حيث أن مجموعات أخرى تعاني من الكراهية أكثر من المواطنين اليهود، مثل المواطنين المسلمين والمهاجرين.

وقد جاء في التعريف الجديد لمعاداة السامية، التالي: «معاداة السامية هي توجه معين لليهود، الذي من شأنه أن يُعبر عن كراهية لليهود. تعبيرات خطابية وجسمانية للعداء للسامية

مُوجهة مباشرة ضد أفراد يهود وغير يهود أو/ و أملاكهم، وضد مؤسسات مجتمعية يهودية ومؤسسات دينية».[١٣]

في الاجتماع الذي عقده التحالف الدولي المذكور آنفا، عام ٢٠١٦ ، تم تبني هذا التعريف، وأضاف التحالف توضيحات حوله، حتى يوضح الغاية منه، وربما هنا تكمن أهمية هذا التحالف، وبما أنه تحالف دولي فإن الدول الأعضاء فيه تبنت التوضيحات والتأويلات التي وضعها التحالف، وهو ما أقره البرلمان الفرنسي في قراره أواخر عام ٢٠١٩. وجاء التوضيح للتعريف من خلال وضع نماذج وأمثله عملية، سوف تدخل كجزء من تعريف معاداة للسامية:[١٤]

«أولا: تعبيرات مثل هذه [تعبيرات معادية للسامية] يمكن أن توجه ضد دولة إسرائيل، والتي يتم التعامل معها كمجموعة يهودية. ومع ذلك فإن النقد الموجه لإسرائيل ويشبه كل نقد موجه لكل دولة أخرى لا يعتبر عداء للسامية. العداء للسامية هي اتهام اليهود في التخطيط لمؤامرة من أجل إلحاق الضرر بالإنسانية، وتستعمل من أجل إلقاء المسؤولية على اليهود بكل أمر خطأ يحدث. يتم التعبير عن العداء للسامية من خلال الحديث، الكتابة، وأشكال صوريّة وأفعال، واستعمال آراء نمطيّة مسبقة ظلامية وبصفات جوهرية سلبية.

أمثلة راهنة للعداء للسامية في الحياة العامة، الإعلام، والمدارس، وأماكن العمل وفي المجال الديني، يمكن أن تشمل أيضا النقاط التالية:

الدعوة إلى أو المساعدة أو تبرير قتل اليهود أو المسّ بهم باسم أيديولوجيا متطرفة، أو باسم رؤية دينيّة متطرفة.

نشر تعليقات خبيثة تنزع إنسانية اليهود، وتشيطنهم، أو ترفق لهم أفكارا نمطية كأفراد، أو تتعلق بقوة اليهود كمجموعة، علاوة على ذلك، وإن ليس بشكل حصري، الحديث عن مؤامرة يهودية عالمية للسيطرة على الإعلام، الاقتصاد، الحكومة أو مؤسسات أخرى في المجتمع.

اتهام اليهود كشعب بكونهم مسؤولون عن أفعال سلبية، سواء اكانت حقيقية أم متخيلة، التي نُفذت بواسطة فرد يهودي أو مجموعة، أو حتى أعمال نفذها غير يهود.

إنكار وجود، أهداف، الآليات (مثل غرف الغاز) ومنهجية إبادة الشعب اليهودي التي قامت بها ألمانيا النازية، ومؤيدوها وحلفاؤها خلال الحرب العالمية الثانية (الكارثة).

تظاهرة في لندن: معاداة الصهيونية لا تساوي معاداة السامية.

اتهام اليهود كشعب، أو إسرائيل كدولة، بتلفيق الكارثة أو المبالغة في حجمها.

اتهام مواطنين يهود، لا يسكنون في إسرائيل، بأنهم موالون أكثر لدولة إسرائيل، أو بتفضيل مصالح اليهود في أنحاء العالم على حساب مصالح الدولة التي يعيشون فيها.

انكار حق الشعب اليهودي في تقرير المصير، بما يشمل الادعاء أن قيام دولة إسرائيل هو مبادرة [عمل] عنصرية.

تطبيق معايير ازدواجية تجاه إسرائيل تطالبها أن تتصرف بطريقة لا تُطلب أو تُتوقع من كل أمة ديمقراطية أخرى.

استعمال رموز أو توصيفات معاداة للسامية الكلاسيكية (مثل، الادعاء أن اليهود قتلوا المسيح أو فريات الدم) من أجل وسم إسرائيل أو الإسرائيليين.

المقارنة بين السياسة الراهنة لإسرائيل وبين النازية.

توجه جماعي لليهود كمسؤولين عن أعمال دولة إسرائيل.

أفعال معادية للسامية هي جنائية عندما يتم تعريفها هكذا حسب القانون (مثل إنكار الكارثة، أو نشر مواد معادية للسامية في دول معينة)م

أعمال جنائية هي معادية للسامية عندما تكون أهداف الاعتداءات، سواء أكانوا أفرادا أو ممتلكات (مثل مدارس، أماكن عبادة أو مقابر) قد اختيرت للاعتداء بسبب كونها، أو أعتقد أنها، يهودية أو لها علاقة باليهود.

تمييز معاد للسامية هو منع اليهود من الحصول على فرصهم أو تقديم الخدمات المفتوحة للآخرين، وهي غير قانونية في دول كثيرة».[١٥]

في مقال نشره دانيال بالتمان الباحث الإسرائيلي المعروف في الكارثة اليهودية والنقدي للسياسات الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين حول تعريف معاداة السامية الجديد، اتهم التحالف الدولي بتسييس معاداة السامية لأهداف سياسية أيديولوجية لصالح حكومة إسرائيل الراهنة ومشروعها الاستعماري في فلسطين المحتلة عام ١٩٦٧. حيث بدأ مقاله بنقد قرار البرلمان الألماني باعتبار حركة المقاطعة جزءا من معاداة للسامية. وقد حظيّ هذا القرار بإجماع كل القوى السياسية في البرلمان الألماني بما في ذلك حزب الخضر. واعتبر أن هذا القرار يضع ألمانيا كرائدة من بين الدول في تشويه مفهوم العداء للسامية.[١٦] واصفا التعريف الجديد «بمعاداة السامية الوظيفية»، تلك التي تخدم الحكومة الإسرائيلية ومصالحها. في هذا الصدد، يقول بلتمان:

«معاداة السامية التقليدية والمعروفة تميزت بعداء متعدد الأوجه لليهود واليهودية، بشيّطنة اليهود، والانشغال في صفاتهم الجماعية وأعمالهم الاقتصادية، [وحبك] أساطير وآراء نمطية سلبية أنتجت اليهودي كشيطان يمشي على الأرض. بينما معاداة السامية بنسختها الجديدة التابعة للشعبوية القومجية في أوروبا اليوم، والتي تبنت ألمانيا تعريفها، يمكن تعريفها كـ معاداة سامية وظيفية. في أساسها يقف المبدأ، والذي بموجبه يتم تعريف المعادي للسامية كما يرغب يهود معينون بتعريفه هكذا... بمعنى آخر، لم تعد العداء للسامية تلك التي تفصل اليهودي عن غير اليهودي حسب معايير الدين، والثقافة، والقومية أو العرق، وإنما يتم الفصل حسب معايير تُحددها حكومة إسرائيل، ويهود وغير يهود يؤيدونها، في ألمانيا ودول أخرى».

ويعرف بلتمان معاداة السامية الوظيفية على النحو التالي:

«تعرّف معاداة السامية الوظيفية معادين للسامية يهودا وغير يهود بالحدّة نفسها، وذلك حسب مجموعة من التعريفات والمميزات التي تلائم القومجية الإسرائيلية الحالية. وبما أن معاداة السامية الوظيفية بحاجة بدورها أيضا إلى وثيقة أو جسم يُعّرف حدود الظاهرة– لأنه لا يمكن لكل شخص يقرر من هو المعادي للسامية ومن لا– فذهبوا إلى الوصايا العشر للتحالف الدولي لتخليد ذكرى الكارثة».

ويكمل بلتمان في نقده للتشوه الذي أصاب تعريف المعاداة للسامية، وتحويلها إلى وظيفية على النحو التالي:

«تُعرف معاداة السامية كإنكار حق الشعب اليهودي بتقرير المصير بواسطة الادعاء أن قيام دولة إسرائيل هو عمل عنصري، أو تطبيق معايير ازدواجية تجاه إسرائيل من خلال مطالبتها بأمور لا يتم طلبها من أمم الديمقراطيات الأخرى، أو المقارنة بين سياساتها الحالية وبين تلك النازية... مقارنة السياسات الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين في غزة لتلك الألمانية تجاه اليهود في غيتوات في بولندا هي حقا صعبة ومقلقة. ولكن هل الحديث هنا يُعبر عن معاداة السامية؟ وهل وظيفة البرلمان الألماني هو تحديد أن منظمة تستعمل هذا الادعاء هي منظمة معادية للسامية أم لا؟».

في مقاله يستحضر بالتمان المنظر الأيديولوجي الألماني المشهور الفرد روزنبرغ، الذي انتبه منذ العشرينيات من القرن الفائت لطبيعة الصهيونية، واعتبر أن الحركة الصهيونية التي تشجع انفصال اليهود عن مجتمعاتهم والهجرة إلى فلسطين يخدمون السياسة النازية في الدفع بخروج اليهود من ألمانيا. واستعمل روزنبرغ الادعاء الصهيوني كمسوغ قانوني، لإثبات أن اليهود أيضا يؤيدون هذه الفكرة لذلك يجب إلغاء حقوقهم المدنية. ويصل بلتمان إلى نتيجة مفادها:

«سخرية تاريخية مُرّة ترافق وسم كل ناقد في ألمانيا للسياسات الإسرائيلية على أنه معاد للسامية. هكذا تخدم ألمانيا توجه الصهيونية القامعة والعنصرية لدولة إسرائيل الحالية، بالضبط كما فعلت ألمانيا تلك [أي النازية] عندما خدمت احتياجات الصهيونية آنذاك؛ أي تشجيع الانعزالية اليهودية ودعم الهجرة اليهودية... الفرق الكبير بين الوضع الميؤوس منه ليهود ألمانيا في الثلاثينيات وبين دولة اليهود اليوم غاب كما يبدو عن أعضاء البرلمان الألماني».

في هذا الصدد، يشير عزمي بشارة أن المعارضة الأولى للصهيونية جاءت من التيارات الدينية الأرثوذكسية، ولكنه يشير أيضا إلى العلاقة التي نشأت بين الصهيونية ومعاداة السامية، حيث يقول:

«إن الحليف الموضوعي للصهيونية فكريًا هو العداء للسامية. وهذه المقولة هي أيضًا مقولة لمفكر يهودي هو كلود مونتفيوري في بداية القرن العشرين، في نقده لمسألة خلق الولاء المزدوج لليهود. ولكن الأمر يتجاوز ذلك؛ فقد انطلقت الصهيونية، منذ بداياتها، ليس فقط من اعتبار العداء للسامية مرضًا أبديًا ابتليت به الشعوب التي يعيش اليهود بين ظهرانيها ولا حلّ له، ولكنها أيضًا بلورت تصورًا سلبيًا (خاطئًا يكاد يكون تعميمًا عنصريًا) لشخصية يهوديٍّ المنفى الضعيف المذل المهان الذي يفتقر إلى الشخصية الوطنية والشعور القومي».[١٧]

في مقال نشره دان ميرون، أستاذ الأدب اليهودي في الجامعة العبرية في القدس وجامعة كولومبيا في نيويورك، حول العلاقة بين معارضة الصهيونية ومعاداة السامية، عبر عن موقفه الذي يدعم هذا الربط بين الأمرين.[١٨] يربط ميرون في مقاله بين الأمرين من خلال تحليل يعتمد على انطباعات شخصية، وليس على نقاش فلسفي أو تجريبي، ويسرد مجموعة من الأسباب التي يحاول من خلالها تثبيت ادعائه. أولا: يعتقد أن المعارضة للصهيونية في الغرب، لا سيّما في صفوف المثقفين في الجامعات الأميركية، تتمثل بإلغاء وجود دولة إسرائيل بشكل واضح. حيث أن قيام دولة إسرائيل كان خطأ تاريخيا، إسرائيل التي أدت إلى إحداث ظلم تاريخي وسفك للدماء لا يتوقف، وحتى يتم إلغاؤها سوف تستمر كالسرطان في جسم المجتمع الدولي. إسرائيل حسب المعادين للصهيونية هي خطأ ناتج عن مصالح مؤقتة للقوى الكولونيالية. لذلك فإن هؤلاء يعتقدون أن الخطأ بدأ مع وعد بلفور مرورا بقرار التقسيم، وما حدث في عام ١٩٤٨ وبعده هو تحصيل حاصل لذلك، لذلك فإن الحل لمعارضي الصهيونية هو إلغاء قرار التقسيم واعتراف بريطانيا بخطئها المتمثل بنشر تصريح بلفور. ويكمل ميرون ادعاءه، بأن هؤلاء الذين يسمون أنفسهم معارضين للصهيونية يريدون في الحقيقة إلغاء دولة إسرائيل، لا بل يريدون عودة اليهود إلى أصلهم؛ أي «شعب عالمي في المنفى»، وعلى الرغم كم اعترافهم أن العودة عن قرار التقسيم سيلحقه دمار وفوضى، فإن ذلك لا يهمهم في شيء، المهم تصحيح هذا الخطأ التاريخي. ولا يقدمون أي جواب عما سيحدث لنصف الشعب اليهودي الذين أسسوا دولة وثقافة واقتصادا قويا ولغة. قسم منهم سيدعي أن اليهود ليسوا أمة، بل مجموعة دينية تستطيع العيش في أي مكان في العالم».

ويستحضر ميرون موقفا عن محاضرة سمعها من إدوارد سعيد حول فرويد، حيث اعتبر سعيد أن فرويد هو نموذج لليهودي الأصلي، عندما طُرد من وطنه [النمسا] اختار العيش في لندن وليس في القدس، على الرغم من أنه اقترح عليه منصب مرموق في الجامعة العبرية. ويشير ميرون أنه عندما سأل سعيد في تلك المحاضرة عن مصير أخوات فرويد واللواتي بقين في النمسا ولم يسمح لهن بالهجرة لإنكلترا وقتلن هناك، فإنه لم يجب على ذلك. ما يريد أن يقوله ميرون من استحضار موقف سعيد (بغض النظر عن صحته ودقته) أن المعارضين للصهيونية لا يهمهم مصير الشعب اليهودي في مقارباتهم للصراع وللحركة الصهيونية، وهو برأيه شكل من أشكال العداء للسامية. لذلك يصل ميرون إلى نتيجة مفادها أنه «عمليا، في أيامنا ليس هنالك تعبير عميق ومبدئي للعداء للسامية أكثر من الادعاء أن دولة إسرائيل مع نصف الشعب اليهودي الذي رجع إلى الحياة من خلالها بعد الحرب العالمية، عليها أن تتفكك. هذا، عمليا، دعم لعملية تاريخية تشبه الكارثة ويُكمل «صناعتها»».[١٩]

ما يستحضره الكاتب في هذا المقال من العلاقة بين معاداة السامية والمسألة الفلسطينية وجوهر المشروع الصهيوني، هو بالضبط ما رمى له توسيع تعريف معادة السامية، وهو إقحام المشروع الصهيوني والسجال حول ما نتج عنه في إطار مقاربات معاداة السامية. يعتبر ميرون، وهو شخصية أكاديمية مهمة في دراسة الكارثة اليهودية، والرئيس الفخري للتحالف الدولي المذكور أن السجال حول طبيعة إسرائيل كدولة يهودية والمطالبة بنزع الطابع الصهيوني عنها أو الطابع الإثني هو معاداة للسامية، واعتبر أيضا أن المطالبة بحق العودة هو معاداة للسامية. هذا عمليا هو تجريم كل المشروع الفلسطيني على طرفيّ الخط الأخضر بمعاداة السامية. ولكنه أيضا وسم يهود بمعاداة السامية ممن يريدون حصر المشروع الصهيوني داخل الخط الأخضر، ويعتبرون أنه استعماري خارجه. أو التوجهات «ما بعد صهيونية» التي تحاول الاستئناف على الواقع الناتج عن المشروع الصهيوني وتغييره نحو تخفيف أو الغاء الطابع الصهيوني للدولة. وهو ما دفع المؤرخ الإسرائيلي المعروف شلومو ساند إلى الرد عليه، حيث أنه حسب التعريف الجديد فإنه هو أيضا معاد للسامية.

في مقال كتبه المؤرخ الإسرائيلي شلومو ساند،[٢٠] حول توسيع التعريف لمعاداة السامية، وفي معرض رده على ميرون، يقول:

«إن رهاب–اليهود اليوم يختلف تماما عن العداء للسامية في فترة قضية درايفوس. اليوم وليس كما في فترة درايفوس، لا يوجد زعيم واحد في العالم من الديمقراطيات الليبرالية يستطيع أن يعبر عن موقف عدائي لليهود ويبقى في منصبه. لن نرى اليوم صحافيين أو إعلاميين يستطيعون التفوه بعدائية ضد اليهود والاستمرار في عملهم. تقريبا كل عنصريي أوروبا والولايات المتحدة مُوحدّون حول موقف مُساند لإسرائيل ومُساند لليهود. طَردت ماري ليبان، زعيمة اليمين المتطرف في فرنسا، والدها من صفوف حزبها في أعقاب تصريحاته الجارحة حول

يعتبر ميرون، وهو شخصية أكاديمية مهمة في دراسة الكارثة اليهودية، والرئيس الفخري للتحالف الدولي المذكور أن السجال حول طبيعة إسرائيل كدولة يهودية والمطالبة بنزع الطابع الصهيوني عنها أو الطابع الإثني هو معاداة للسامية، واعتبر أيضا أن المطالبة بحق العودة هو معاداة للسامية.

إبادة اليهود في فترة الحرب العالمية الثانية، ومنعت مؤيدي المقاطعة ضد إسرائيل من الانضمام لحزبها القومي».

يوضح ساند في معرض نقاشه مع مقال دان ميرون المذكور آنفا، أن الدعاية العنصرية الفرنسية في فترة درايفوس في أواخر القرن التاسع عشر لم تكن موجهة ضد عاملي البنوك والصرافين اليهود فحسب، وإنما ضد اليهود الذين جاؤوا من مالرس، ومُوجهة بصورة أشد ضد «مهاجري شعب الايديش من شرق أوروبا». ويضيف ساند»لا بد أن ميرون يعرف الأديب القدير موريس بارس، حيث يمكن استحضار اقتباسات كثيرة من نصوصه وخطاباته، واستبدال كلمة يهود فيها بالمسلمين، وسيظهر أنها كتبت الآن. الكثير من زملاء بارس في الكتابة لم يختلفوا عن مواقفه، وهم أيضا يشبهون بشكل مذهل الكثير من المثقفين الباريسيين في السنوات الأخيرة». ويشير ساند أن الكثيرين ممن دعموا درايفوس كانوا آنذاك داعمين للتوجهات الكولونيالية، وليس كما هو الحال اليوم، ففي تلك الأوقات كان من الممكن السيطرة على شعوب بدون منحها حقوقا دون أن تعتبر معاديا للجمهورية أو للديمقراطية. ويختم ساند مقاله بأن الديمقراطية الليبرالية هي دولة جميع مواطنيها، موجها نقده لميرون الذي يعتقد أن الدولة اليهودية تابعة لأبناء «قومه» وليس لكل المواطنين الإسرائيليين، وهو (أي ساند هذه المرة) الذي يطمح لأسرلة ونزع الطابع الصهيوني عن دولة إسرائيل قد يعتبر معاديا للسامية.

أوضح رائف زريق في مقال كتبه حول أن حق العودة هو معاداة للسامية،[٢١] ردا على مقال يهودا باور، أن باور لا يقدم تفسيرا لتصنيف استعمال القوة لتحقيق هدف سياسي على أنه معاداة للسامية، وكونه؛ أي باور، يعتقد أن المطالبة بدولة فلسطينية هو مطلب شرعي، فهل يتحول هذا الحق إذا تم استعمال القوة لتحقيقه معاديا للسامية؟

ويكمل زريق في سجاله الفلسفي مع باور- بهدف تفكيك مقولته، أنه قد تنشأ امكانية أن يقبل اليهود بحق العودة بصورة أو بأخرى، الآن لا يقبلونها، ولكن قد يتغير هذا الموقف، فهل سيكون هذا الموقف معاديا للسامية أيضا؟

اتفق مع زريق في تحليله، ولكن هنا بالضبط يكمن جوهر التعريف الجديد لمعاداة السامية، أنه لا يخضع لمعايير عادلة أو أخلاقية، بل يخضع لمعايير توازن القوى، واحتكار إسرائيل تعريف من هو معاد للسامية. وما توسيع التعريف عن التعريف التقليدي إلا دليل على خضوعه لميزان القوى، والرغبات والمصالح الأيديولوجية.

في مقال كتبه الباحث الإسرائيلي ديمتري شومسكي حول قرار البرلمان الفرنسي اعتبار كل معارضة للصهيونية كعداء للسامية، اعتبر أن القرار لا يفرق بين الصهيونية المدنية التحررية والصهيونية الاستعمارية التوسعية، وهكذا فهو يضر بالنضال ضد معاداة السامية، ويعزز موقف الحكومة الإسرائيلية الحالية في استمرار مشروعها الاستعماري في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧ . يبدأ شومسكي مقاله بمقولة تفيد بأنه «بلا شك أن إلغاء حق تقرير المصير القومي لليهود في إسرائيل والعمل على إلغائها في جوهره تعبير عن العداء للسامية».[٢٢] ينطلق شومسكي من الادعاء أن أحد الأسس لمعاداة السامية الحديثة هو الطموح لإلغاء مساواة الحقوق لليهود، سواء كأفراد عبر اندماجهم كمواطنين في المجتمعات التي يعيشون فيها (فكرة المواطنة المتساوية للجميع)، وسواء كمجموعة قومية من خلال حق تقرير المصير. ويشير الكاتب

أن النوعين من الشطب هما جزء من معاداة السامية، حيث تميزت معاداة السامية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بإلغاء حق اليهود بالمساواة الفردية الكاملة في المجتمعات التي عاشوا فيها، في حين أن المعاداة للسامية في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين تتمثل بالمطالبة بإلغاء الحقوق القومية لليهود في إقامة دولة تعبر عن حقهم في تقرير المصير.

ويتقدم شومسكي إلى النتيجة التي يريد إيصالها، وهي «لو أن جوهر الصهيونية في أيامنا انحصر في تحقيق المصير القومي لليهود في إسرائيل، فكان من الوجاهة النظر إلى العداء للصهيونية كعداء للسامية بشكل واضح». ويكمل «المعنى السياسي العملي والمهيمن للصهيونية الراهنة– كما تعرضه دولة إسرائيل في كونها محتلة ومستعمرة خارج حدودها تبعدها عن أن تكون مجرد تعبير عن حق تقرير المصير الشرعي.... يرى الكثيرون أن جوهر وغاية الصهيونية في بداية القرن الـ٢١ هو تعزيز القمع المدني والاستعباد القومي للشعب الفلسطيني، علاوة عن سطو وسرقة لا يتوقفان لإراضيهم باسم الثيولوجيا اليهودية–المسيحية».

ويصل شومسكي إلى نتيجة أخرى مفادها، «أن وصول الصهيونية إلى هذه الحقيقة المؤلمة والواضحة، حيث كانت التعبيرات العملية والجوهرية للصهيونية الراهنة متعلقة بشكل واضح بالظلم الصارخ– السيطرة العنيفة على شعب آخر وعلى أراضيه– فإن المعارضة الراهنة للصهيونية هي حقا من الظواهر السياسية العادلة في هذا الوقت».

ويعتبر شومسكي أن قرار البرلمان الفرنسي اعتبار معارضة الصهيونية شكل من أشكال العداء للسامية هو قرار خطير على الشعب اليهودي، لأن ربط العداء للسامية مع التضامن مع قضية عادلة مثل قضية الشعب الفلسطيني، سيجعل من العداء للسامية أمرا صحيحا، وقد يأخذ العداء للسامية دعما وشرعية أخلاقيين بسبب ارتباطه بحق الشعب الفلسطيني. ويقصد بذلك، أنه اذا كانت المعادلة أن قضية فلسطين هي قضية عادلة، والمشروع الصهيوني بعد عام ١٩٦٧ ، هو مشروع استعماري، والنضال ضد هذا المشروع هو مشروع وعادل، ولكن من الآن فصاعدا فإن هذا النضال هو معاد للسامية، فإن معاداة السامية هي عادلة، لأنها تحمل النضال ضد المشروع الصهيوني الاستعماري، وهو نضال مشروع. ولكن الأهم في مقال شومسكي هو ما أشرنا إليه في مقدمة المقال، أن توسيع تعريف معاداة السامية طرح من جديد الصراع داخل المشروع الصهيوني، حول ماهيته، حدوده، ونتائجه، حيث أن المعارضة للصهيونية وليس العداء لليهود واليهودية هي المعاداة للسامية البارزة والأكثر انتشارا حسب التعريف الجديد. فمعاداة السامية التقليدية تتلاشى، وهي موجودة على هامش المجتمعات الغربية المسيحية، وإقحام المعارضة للصهيونية كشكل من أشكال العداء للسامية يضع القيم الديمقراطية التي قامت عليها أوروبا في مأزق أخلاقي كبير، فضلا عن المأزق السياسي للذين يعتقدون أن المشروع الصهيوني أنهى مهمته «التحررية» بإقامة دولة يهودية، والصراع يتمحور حول ماهية هذه الدولة.

يشير الباحث تسيفي برئيل إلى المنعطف الخطير لتعريف معارضة الصهيونية كعداء للسامية، لأنه يعطي المعادين للسامية مخرجا أخلاقيا وسياسيا من خلال تأييد المشروع الصهيوني من أجل التنصل من عدائيتهم للسامية التقليدية؛ أي اليهود. لذلك فإن هذا التعريف يخدم بالأساس العداء للسامية. يقول برئيل:

«عندما تتبنى إسرائيل قوانين عنصرية، وعندما تنتهك المواثيق الدولية التي تتعلق بالاحتلال، عندما تسمح بنقل سكان محتلين إلى أرض محتلة، عندما تحرض ضد أقلية قومية تعيش فيها، فإن شرعيتها تهترئ، ومبدأها المؤسس لها، الصهيونية، يمر بنزعة شيطانية تُصدّع قيمها. تغذي هذه النزعة وحش العداء للسامية، الذي لا يعرف التفريق بين اليهودية، الصهيونية والإسرائيلية. والمفارقة هنا أن تصنيف مكرون [الرئيس الفرنسي عمنويل مكرون] أن معارضة الصهيونية هي عداء للسامية يساعد المعادين للسامية. حسب معادلته، فإن تأييد الصهيونية، حتى عندما تكون مشوهة ومزيفة، وعندما تُنزل الويلات على شعب آخر، وعندما يتم مقاربتها بشكل عنصري في حكومة إسرائيل، فإنها تتحول إلى الامتحان الأخلاقي الأسمى، بالضبط كما هو مكافحة العداء للسامية. من الآن فصاعدا، كل من يريد محاربة معاداة السامية، ملزم بحلف يمين الولاء للصهيونية. هذه صفقة واحدة. سنرى كم من مناهضي العداء للسامية في العالم سيوافقون للالتفاف حول العلم الصهيوني؟».[٢٣]

إن ربط العداء للسامية بالمسألة الفلسطينية والصهيونية، اكتشفته أحزاب اليمين المتطرف في أوروبا مبكرا، حتى قبل التعريف الجديد الموسع، وشجعته الحكومة الإسرائيلية،

وتحديدا الليكود والمستوطنون، الذي تواصلوا مع أحزاب اليمين المتطرف الأوروبية التي تتسم بمعاداة للسامية التقليدية واضحة أو مضمرة، ولكنها اكتشفت أن شرعيتها تكون من خلال إنتاج نوع جديد من العداء، وهو العداء للإسلام والمسلمين في أوروبا، وقد بيضت هذه الأحزاب المتطرفة صفحتها من وسمها بمعادة السامية من خلال تماهيها الكامل مع المشروع الصهيوني على طرفيّ الخط الأخضر، في تماهيها مع الحكومة الإسرائيلية في التضييق على الأقليات، والعودة إلى مواقع الدولة القومية الإثنية الكلاسيكية، وتماهيها مع السياسات الاسرائيلية في الضفة من خلال دعمها للاستيطان.

لم تتنصل هذه الأحزاب بشكل واضح من خطابها المعادي للسامية التقليدي، وتحديدا في موضوع الكارثة اليهودية، أسبابها، ومن المسؤول عنها، وحتى حجمها. فعلى سبيل المثال تتفق هنغاريا التي يقودها زعيم اليمين المتطرف فيكتور اوربين مع سياسات إسرائيل الاستعمارية في الضفة الغربية، ولكنها تتحفظ عن الدور الهنغاري بالكارثة اليهودية وهو موقف يتناقض مع السردية الإسرائيلية واليهودية عن الكارثة، غير أن العلاقات بين الدولتين هي علاقات وثيقة، لا سيما بين زعيمي البلدين. أنقذت فكرة «معارضة الصهيونية كمعاداة للسامية» أحزاب اليمين المتطرف، والمستعدة أن «تسجد» للصهيونية ومشروعها الاستعماري الاستيطاني، وتؤيد سياسات إسرائيل في التعامل مع الفلسطينيين من مواطنيها، لأنها هي نفسها تتعامل هكذا مع الأقليات في بلدانها، فضلا عن أن هذا التعريف يحررها من وسمها بمعاداة السامية، فسياسات نتنياهو في السنوات الأخيرة لا تعلي من شأن معادة السامية التقليدية، بل تركز على ملاحقة معارضي الصهيونية ومشروعها على طرفيّ الخط الأخضر.

خاتمة

انطلق هذا المقال من مقولة أن توسيع تعريف معاداة السامية هدفه الاشتباك مع المسألة الفلسطينية، التي بقيت عصيّة عن محاولات إسرائيل وسم مؤيديها وأصحابها وداعميها بمعاداة السامية. ولكنه من جهة أخرى، أثار سؤال الصهيونية من جديد وماهيتها، حيث أكد أن الصهيونية هي بأفعالها الاستعمارية وما نتج عنها على الأرض ستكون فوق المساءلة الأخلاقية في الغرب. ولكنه يضع من يعتقد أن الحركة الصهيونية هي حركة تحرر وطني في مأزق سياسي وأخلاقي كبير.

يساهم التعريف الجديد لمعاداة الصهيونية في خلق اصطفافات سياسية جديدة في إسرائيل وخارجها؛ سيجد جزء من المعادين للسامية التقليدية في هذا التعريف مخرجا سياسيا لهم عبر التماهي مع المشروع الصهيوني، فيما سيجد معادون آخرون، لا سيّما تلك الحركات التي لا تسعى للحكم، مخرجا لتبرير معاداتهم للسامية عبر الكشف عن عدم أخلاقية الصهيونية لأنها تعادي قضية عادلة وهي القضية الفلسطينية. وهكذا سيكون معادون للسامية مع المشروع الصهيوني لتبييض مواقفهم الحالية أو التاريخية من اليهود واليهودية، مقابل معادين للسامية يتوغلون في معاداتهم عبر الإمساك بالمسألة الفلسطينية كمسألة عادلة تُبيّض معاداتهم للسامية أيضا.

يضع هذا التعريف منظري الصهيونية «المساواتية» أو «التحررية» أو توجهات «ما بعد صهيونية» في تحد سياسي ونظري كبير، لأنهم قد يجدون أنفسهم في تناقض مع الصهيونية التي يريدونها، وقد يكونون هو أنفسهم معادين للسامية إذا عارضوا المشروع الاستعماري في فلسطين عام ١٩٦٧، أو طالبوا بتعديل أو إلغاء الطابع الصهيوني عن دولة إسرائيل لتكون دولة ليبرالية ومساواتية.

وفي النهاية يُعبّر هذا التعريف أكثر من كل شيء عن ميزان القوى بين الفلسطينيين والعرب من جهة وبين إسرائيل من الجهة الأخرى، فواضح أن مظاهر معاداة السامية التقليدية باتت قليلة والأهم أنها غير شرعية سياسيا وقانونيا، والهروب إلى الأمام في توسيع التعريف، والذي يتعلق بالمسألة الفلسطينية بالأساس، هو نتاج ميزان القوى في العالم، ولا يُعبر عن معيار أخلاقي عادل بكل المفاهيم الديمقراطية، وفلسفة الحريات، والقيم العالمية لحقوق الإنسان، وحق الشعوب في تقرير المصير والنضال ضد الاحتلال أو الاستعمار. يكشف لنا التغيير بين عام ١٩٧٥ عندما عُرفت الصهيونية كحركة عنصرية، وانتهاء باعتبار معارضة الصهيونية شكلا من أشكال معاداة السامية، عن العالم الذي نعيش فيه.

الهوامش

١. حامي شيلف، «ترامب يستغل الخلاف الكبير في الحزب الديمقراطي لوسمها بأنها معادية لإسرائيل، هآرتس، ٢٠١٩/٣/١٠، ص١.

٢. عاموس غولدبرغ وراز سيغل، «التعريف المشوه للعداء للسامية يدافع عن إسرائيل أمام كل نقد»، موقع سيحا مكوميت، ٢٠١٩/٧/٢٩، أنظر الرابط: https://www.mekomit.co.il/%D7%94%D7%94%D7%92%D7%93%D7%A8%D7%94-%D7%94%D7%9E%D7%A2%D7%95%D7%95%D7%AA%D7%AA-%D7%A9%D7%9C-%D7%94%D7%90%D7%A0%D7%98%D7%A9%D7%99%D7%9E%D7%99%D7%95%D7%AA-%D7%9E%D7%92%D7%99%D7%A0%D7%94-%D7%A2%D7%9C/

٣. ديمتري شومسكي، «ليتركز النضال ضد المستوطنين»، هآرتس، ٢٠٢٠/١/٢٩، ص ١١.

٤. ديمتري شومسكي، «ليتركز النضال ضد المستوطنين»، هآرتس، ٢٠٢٠/١/٢٩، ص ١١.

٥. حاييم غانز، الصهيونية المساواتية: نص حول المكانة الأخلاقية لدولة اليهود. (تل أبيب: مركز كولاد، ٢٠١٤). بالعبرية.

٦. حاييم غانز، نظرية سياسية للشعب اليهودي: ثلاث سرديات صهيونية. (تل أبيب: منشورت يديعوت، ٢٠١٣). بالعبرية

٧. شلومو أهرونسون، «حول ما بعد الصهيونية والتراث المعادي للسامية في الغرب»، في: بنحاس غينوسار وآفي برئيلي (محرران). الصهيونية: سجال راهن. (بئر السبع: جامعة بن غوريون، ١٩٩٦). ص: ١٩٨-١٩٩.

٨. أوري رام، «ذاكرة وهوية في عهد ما بعد الصهيونية: سوسيولوجيا سجال المؤرخين في إسرائيل»، مجلة: تيؤوريا فبيكورت (نظرية ونقد)، ٨ (١٩٩٦)، ص ٩-٣٢..

٩. للاستزادة حول هذه التوجهات والنقاش بينها، أنظر المجلد الخاص حول الصهيونية في: بنحاس غينوسار وآفي برئيلي (محرران)، الصهيونية: سجال راهن، (بئر السبع: جامعة بن غوريون، ١٩٩٦).

١٠. يهودا بور، «حول العداء للسامية والتشويهات»، موقع هآرتس، ٢٠١٩/٧/٤، https://www.haaretz.co.il/opinions/.premium-1.7438296

١١. غولدبرغ وراز، ٢٠١٩

١٢. دينا بورات، «قبل ان ننصدم»، موقع هآرتس، ٢٠١٩/٨/٨، https://www.haaretz.co.il/opinions/.premium-1.7651942

١٣. دانييلا بيلد، «بريطانيا تتبنى تعريف جديد للعداء للسامية»، هآرتس، ٢٠١٦/١٢/١٢، https://www.haaretz.co.il/news/world/europe/1.3150007

١٤. موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية، تعريف عملي للعداء للسامية لمنظمة IHRA، موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية، ٢٠١٦/١٢/٢٠، أنظر الرابط: https://mfa.gov.il/MFAHEB/PressRoom/Pages/IHRA-adopts-a-working-definition-of-antisemitism260516.aspx (قمت بترجمة النص كما ورد في موقع وزارة الخارجية، فكل ما هو مكتوب من شرح للتعريف يرد هنا كما هو في النص الأصلي).

١٥. إلى هنا الترجمة كما هي مستقاة من المصدر السابق (موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية).

١٦. دانيال بالتمان، «ربما ليس هناك ألمانيا أخرى»، موقع هآرتس، ٢٠١٩/٦/٢٧، https://www.haaretz.co.il/opinions/.premium-1.7417079?lts=1590932130512

١٧. عزمي بشارة، «أصحيح أن معاداة الصهيونية هي أحد الأشكال الحديثة لمعاداة السامية؟» العربي الجديد، ٢٠١٩/٢/٢٨، https://www.alaraby.co.uk/opinion/2019/2/28/

١٨. دان ميرون، «الربط بين المعارضة للصهيونية والعداء للسامية قائم وموجود»، هآرتس، ٢٠١٩/١٢/٢٠. ص: ٢٣.

١٩. دان ميرون، «الربط بين المعارضة للصهيونية والعداء للسامية قائم وموجود»، هآرتس، ٢٠١٩/١٢/٢٠. ص: ٢٣.

٢٠. شلومو ساند، دان ميرون، «ربما أنا معاد للسامية أيضا؟» هآرتس، ٢٠١٩/١٢/٢٧، ص: ٢٣.

٢١. رائف زريق، «هل حق العودة معاد للسامية؟، هل أنتم جديّون حقا!» هآرتس، ٢٠١٩/٧/١٠، https://www.haaretz.co.il/opinions/.premium-1.7488660

٢٢. ديميتري شومسكي، «انتصار كله خسارة»، هآرتس، ٢٠١٩/١٢/١٨، ص: ١٣.

٢٣. تسفي برئيل، «إما معاد للسامية أو صهيوني؟»، هآرتس، ٢٠١٩/١٢/١٨، ص:٢.

ربيكا غولد *

تعريف التحالف الدوليّ لإحياء ذكرى المحرقة (IHRA) لمعاداة الساميّة:

تعريف معاداة الساميّة من خلال محو الفلسطينيّين

تعريف التحالف الدوليّ لإحياء ذكرى المحرقة (IHRA) لمعاداة الساميّة– ويُسمّى هنا التعريف العمليّ أيضًا– هو وثيقة تقترح تعريف، أو بالأحرى إعادة تعريف، معاداة الساميّة، وتشكيل ردود الفعل المؤسّساتيّة لمظاهرها. تفوق الاستخدامات السياسيّة لهذا التعريف، الذي تمّ وضعه في السنوات الأخيرة، في أهميّتها مضمون التعريف نفسه، الذي لا يعتبر مضمونًا أصليًا. فعلى الرغم من عدم كونها سابقة، إلّا أنّ هذه الاستخدامات تمثّل جبهة جديدة في المجهود المبذول لقمع الخطاب الناقد لإسرائيل، بما يتعلّق بأسلوب عملها (من خلال فعل إعادة التعريف)، وقمع فعاليّته.

من أجل تقييم أثر التعريف العمليّ، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار ما هو هذا التعريف بالضّبط معجميًا، بما يتعلّق بمضمونه، وتاريخيًا، كردّ على المعاني المتغيّرة لمعاداة الساميّة. نبدأ بالبعد المعجميّ: تعريف IHRA هو عبارة عن تصريح مكوّن من ثمان وثلاثين كلمة عن معاداة الساميّة، وجوهره: «تصوّر معيّن عن اليهود، والذي من الممكن وصفه ككراهيّة لليهود». يتبع هذا التعبير أحد عشر مثالاً قيل إنّها «تأتي بهدف التوضيح». تُسلِّط سبعة أمثلة الضوء على تصريحات وتقييمات تنتقد إسرائيل كمؤشّرات على معاداة الساميّة.[1] مدى انتماء هذه الأمثلة للتعريف الصحيح هو موضع خلاف.

نشأ النصّ الأساسيّ، الذي يعتمد عليه هذا التعريف، في سياق سابق وبشكلٍ مختلف، على أنّه «تعريف عمليّ

*محاضرة جامعيّة وباحثة في الأدب المقارن والعالم الإسلامي، جامعة بيرمنغهام– بريطانيا.

تمّت صياغة التعريف العمليّ لأوّل مرّة في بداية سنوات الألفين، استجابةً، جزئيًا، لما تمّت الإشارة إليه على أنّه «معاداة الساميّة الجديدة»، وهو مصطلح ظهر في الستّينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وهي وفقًا لناقديها شكل من أشكال معاداة الساميّة التي تظهر من اليسار، وترتبط ارتباطًا وثيقًا بمعاداة الصهيونيّة وبانتقاد السياسات الإسرائيليّة.

غير مُلزِم قانونيًا»، والذي تمّ نشره لفترة وجيزة في عام ٢٠٠٥ على موقع المركز الأوروبي لرصد العنصريّة وكراهيّة الأجانب التابع للاتّحاد الأوروبي (EUMC) والموجود في فيينا. من صاغ التعريف العمليّ هذا هو، في الأساس، كينيث ستيرن، والذي عبّر بصراحة عن معارضته لإعادة تعريف معاداة الساميّة والأمثلة المرافقة له في الجامعات وفي سياقات أخرى، لفرض الرقابة على الخطاب الناقد لإسرائيل.[٢] تعريف EUMC هو، في الأساس، نفس تعريف IHRA، ولكنّ الفرق الوحيد بين التعريفيْن هو ترتيب الأمثلة. تمّت إزالة التعريف العمليّ من موقع EUMC في عام ٢٠١٣، وعاد التعريف للظهور من جديد بتسمية جديدة مع إنشاء التحالف الدوليّ متعدّد الحكومات لإحياء ذكرى المحرقة، وهو تنظيم تأسّس في عام ١٩٩٨ من قبل ٣١ دولة عضوا، وتناوبت الدول الأعضاء على رئاسته. تمّ تقديم التعريف العمليّ لأوّل مرّة للعالم في ٢٦ أيّار ٢٠١٦ في بوخارست مع تصريح طبع IHRA على شكل بيان صحافيّ أصدره الرئيس الرومانيّ.

على الرغم من أنّ البيان الصحافيّ شمل الأمثلة الأحد عشر نفسها، التي تمّت إعادة تدويرها من صيغة EUMC السابقة، تمّ فصل الأمثلة في هذه الوثيقة عن التعريف الذي اعتمدته الجمعيّة العامّة في بوخارست. يُشير هذا النسق إلى أنّ الأمثلة الأحد عشر لم يكن من المفروض أن تكون جزءًا من التعريف نفسه، على الرغم من أنّ التغطية الإعلاميّة والتعليقات اللاحقة على الوثيقة قد تعاملت مع الأمثلة على أنّها جزء لا يتجزّأ من التعريف. التمييز بين التعريف والأمثلة مهمّ لأنّه أُثبت أنّ الأمثلة تساهم في الانقسام أكثر من التعريف ذاته، على الرغم من أنّه تمّ انتقادهما بسبب عدم دقّتهما والتناقضات الداخليّة فيهما. في بعض الأحيان، تمّ اعتماد التعريف دون اعتماد الأمثلة الأحد عشر، كما كان في المداولات الباكرة لحزب العمّال البريطانيّ في تمّوز ٢٠١٨ (على الرغم من أنّ حزب العمّال قد غيّر موقفه في نهاية المطاف واعتمد الأمثلة الأحد عشر بعد مرور شهرين).

تمّت صياغة التعريف العمليّ لأوّل مرّة في بداية سنوات الألفين، استجابةً، جزئيًا، لما تمّت الإشارة إليه على أنّه «معاداة الساميّة الجديدة»، وهو مصطلح ظهر في الستّينيات والسبعينيات من القرن العشرين في كتابات الفيلسوف الفرنسيّ بيير–أندريه تاغييف، ومجموعات أميركيّة مثل الكونغرس اليهوديّ الأميركيّ ورابطة مكافحة التشهير. وفقًا لناقديها، «معاداة الساميّة الجديدة» هي شكل من أشكال معاداة الساميّة التي تظهر من اليسار، وترتبط ارتباطًا وثيقًا بمعاداة الصهيونيّة وبانتقاد السياسات الإسرائيليّة. يعتبر الأشخاص الذين نحتوا مصطلح «معاداة الساميّة الجديدة» أنّها أكثر خطورة ممّا يُسمّى بمعاداة الساميّة الكلاسيكيّة، لأنّها أكثر شعبيّة بين المجموعات اليساريّة التي كانت ممثّلة جيّدًا بين المثقّفين، تقليديًا.

إلى جانب السياق الأيديولوجيّ الذي أدّى إلى إنشاء التعريف العمليّ، هناك سياق أمبيريقيّ أيضًا: بعد المحرقة بنصف قرن، ما زالت تزداد الحوادث المعادية للساميّة في أوروبا، بما في ذلك إحراق الكُنس، وأعمال القتل في بعض الحالات. أدّى قتل امرأتين يهوديّتين مسنّتين في فرنسا في الأعوام ٢٠١٧ و٢٠١٨،[٣] وازدياد شعبيّة الأحزاب التي كانت لها علاقات تاريخيّة مع النازيّين، في النمسا مثلاً، إلى تركيز انتباه أوروبا حول هذا الموضوع، وبحق. هناك حاجة واضحة لردّ مؤسّساتيّ منسّق

إلى جانب محتوياته المتناقضة، من خصائص التعريف العديدة، غموض مكانته القانونيّة. الهدف الدقيق للتعريف بعيد كلّ البعد عن الشفافيّة. لا يُصرِّح التعريف ولا الأمثلة المرفقة إليه أنّه يدعم فرض الرقابة على الخطاب الناقد لإسرائيل، ومع ذلك، فقد أثّر التعريف على فرض رقابة من هذا النوع.

على جرائم الكراهيّة التي تشمل معاداة الساميّة، بالإضافة إلى أشكال أخرى من العنصريّة.

وفقًا لكينيث ستيرن، واضع التعريف الرئيسيّ، كان الهدف الأساسيّ لإنشاء التعريف هو تصنيف البيانات: كانت الشرطة بحاجة لهذه الأداة من أجل تصنيف جرائم معادية للساميّة على أنّها جرائم كراهيّة. على الرغم من أن تشريع جرائم الكراهيّة كان متطوّرًا جدًا في الدول التي تمّ تطبيق التعريف العمليّ فيها، لم يكن هناك نهج مقبول بشكلٍ كبير لتصنيف جرائم معاداة الساميّة كجرائم كراهيّة، ناهيك عن محاكمتها. يؤكّد البعض أنّه تمّ تضمين عقاب معاداة الساميّة في تشريع جرائم الكراهيّة الموجودة، في سياق المملكة المتّحدة، مثلاً، في قانون العلاقات العرقيّة (١٩٦٥) وقانون النظام العام (١٩٨٦). أشار آخرون أنّ اليهود يواجهون أشكالاً من التمييز تختلف عن تلك التي تواجهها أقليّات إثنيّة أخرى، وناقشوا ضرورة وجود نهج مميّز من قبل الدولة والمؤسّسات العامّة من أجل محاربة معاداة الساميّة، يختلف عن النهج المتّبع من أجل توثيق ومحاكمة العنصريّة.

حتّى شهر أيّار ٢٠٢٠، اعتمدت خمس وعشرون دولة التعريف العمليّ، بما في ذلك المملكة المتّحدة، وبعض الدول الأعضاء في الاتّحاد الأوروبيّ كألمانيا وبلجيكا والسويد وإيطاليا. تجدر الإشارة إلى أنّه لم تعتمد عدّة دول أعضاء في IHRA هذا التعريف، لم تعتمده أيّ من الدول العربيّة أو دول الشرق الأوسط، عدا عن إسرائيل، ولا أيّ دولة في أميركا اللاتينيّة عدا عن أورغواي، أو أيّ دولة في آسيا أو أفريقيا. إذًا، يسود هذا التعريف بالأساس في أوروبا وأوروبا الشرقيّة وشمال أميركا (على الرغم من أنّ الولايات المتّحدة لم تعتمده).

تمّ في دول عديدة لم تعتمد التعريف، دمجه في السياسات الداخليّة للمؤسّسات الحكوميّة والوكالات الموجودة في الدولة، مثلاً، في وزارة الخارجيّة الأميركيّة ووزارة التعليم الأميركيّة. على الصعيد المحليّ، حذت عدّة مجالس بلديّة وجامعات ومنظّمات إعلاميّة وأحزاب سياسيّة وصناديق خيريّة حذو المؤسّسات الحكوميّة و«اعتمدت» التعريف.

لقد تمّ اعتماد التعريف العمليّ في كلّ الحالات التي لم يكن فيها إجماع واضح حول ماذا يعني «اعتماد» هذا التعريف. هل يُجبر التعريف أن تقوم جامعة ما بتأديب أو طرد فرد من أفراد الطاقم يُعتبر مخالفًا للتعريف؟ هل يشرّع التعريف فرض الرقابة على المنشورات المثيرة للجدل، أو يجعل من النصوص التي يُعتقد أنّها مخالفة للتعريف أو تتوافق مع أمثلته نصوصًا غير قانونيّة؟ هل من الممكن أن يؤدّي انتهاك التعريف إلى السجن أو إلى عقوبات مدنيّة؟ من الناحية القانونيّة، الجواب على كلّ هذه الأسئلة هو كلا، طالما أنّ السلطة القضائيّة المعنيّة تلتزم بمعايير ديمقراطيّة. حتّى أنصار التعريف العمليّ يشيرون إلى أنّه «لم يتم تصميمه ليتم تحويله إلى تشريعات أوروبيّة أو محليّة».[٤] مع ذلك، هذه الضمانات مُضَلِّلة أيضًا، نظرًا لمحاولة العديد من أنصار التعريف فرض قوّة قانونيّة لنشره. في حين تعامل آخرون مع التعريف العمليّ على أنّه يحمل قوّة قانونيّة من خلال نوع من أنواع ردّ الفعل التلقائيّ، مثلاً، عندما اعتمد البرلمان الفرنسيّ تعريف IHRA في كانون الأوّل ٢٠١٩ على شكل قرار، ونشر هذا التغيير في الإعلام على نطاق واسع وكأنّ هذا القرار هو بمثابة تغيير في القانون.[٥]

من الملفت للانتباه أنّه على الرغم من أنّ تعريف IHRA هو مجرّد وثيقة سياساتيّة ليس لها أيّ مكانة قانونيّة، يتم

التعامل مع هذا التعريف غير المُلزم قانونيًا كما لو أن لديه القدرة على القضاء على معاداة الساميّة من خلال العقوبات الجنائيّة. لم يتم تعريف «اعتماد» التعريف بشكلٍ كافٍ بأيّ سياق. أوضح جيفري بيندمان، وهو أحد الأصوات القياديّة في المملكة المتّحدة في مجال فقه تشريع الحقوق المدنيّة، أنّه في سياق التعريف العمليّ، يبدو أنّ «اعتماد» التعريف لا يعني أيّ شيء أكثر من التشجيع على استخدامه. ما زال [التعريف] من دون أثر قانونيّ.[٦] أشار حقوقيّ بارز آخر هو هيو طوملينسون أنّه من الممكن أن تجد الجامعات التي تطبّق التعريف من أجل فرض الرقابة على الخطاب الناقد لإسرائيل نفسها تنتهك قوانين المملكة المتّحدة، والاتّحاد الأوروبيّ أيضًا، المتعلّقة بالحريّة الأكاديميّة.[٧] هذه التقييمات القانونيّة هي من بين التقييمات القليلة التي تحدّد بوضوح ما ينطوي عليه «الاعتماد» بمفاهيم عمليّة. كما هو متوقّع، يميل الموقف الذي تمّ اتّخاذه بخصوص معنى «الاعتماد» ومكانته إلى أن يرتبط بموقف الشخص في ما يتعلّق بنقد إسرائيل.

إلى جانب محتوياته المتناقضة، من خصائص التعريف العديدة، غموض مكانته القانونيّة. الهدف الدقيق للتعريف بعيد كلّ البعد عن الشفافيّة. لا يُصرِّح التعريف ولا الأمثلة المرفقة إليه أنّه يدعم فرض الرقابة على الخطاب الناقد لإسرائيل، ومع ذلك، فقد أثّر التعريف على فرض رقابة من هذا النوع. يصف التعريف نفسه أنّه «تعريف غير مُلزِم قانونيًا»، ومع ذلك، تبيّن من خلال الممارسة أنّ هذا الإنذار الواضح هو ليس أكثر من مجرّد مراوغة. بما أنّه لا توجد سابقة لوثيقة شبه–قانونيّة في سياق تعريف العنصريّة، تعيّن تحديد معنى «غير مُلزِم قانونيًا» و«التعريف العمليّ» من خلال الممارسة. أسفر نهج التجربة والخطأ هذا، كما هو متوقّع، عن العديد من الأخطاء، والاتّهامات الباطلة، وفرض الرقابة. على الرغم من أنّ البيان الصحافيّ الذي أطلقه التحالف الدوليّ لإحياء ذكرى المحرقة ينصّ على أنّه «لا يمكن اعتبار انتقاد إسرائيل المشابه لانتقاد أيّ دولة أخرى معاداة للساميّة»، لا تتوفّر عمليّات تحقّق فعّالة، لا في الوثيقة ولا في أدواتها وملحقاتها، والتي من شأنها منع تطبيق تعسّفيّ للوثيقة، بل إنّ الحاجة لوجود نهج مؤسّساتيّ متماسك لمعاداة الساميّة في أوروبا قد ازدادت منذ تطوير التعريف العمليّ في سنوات الألفين. مع ذلك، تأتي أكثر المظاهر المميتة لمعاداة الساميّة في أوروبا– تلك التي يمكن تصنيفها على أنّها جرائم كراهيّة– من الحركات الفاشيّة اليمينيّة، وليس من الحملات اليساريّة التي تستهدفها الأمثلة المرفقة للتعريف العمليّ.

بَعد النظر في تاريخ تعريف التحالف الدوليّ لإحياء ذكرى المحرقة، ننتقل إلى النشر الأخير له. واجه التعريف العمليّ في كلّ السياقات التي تمّ اعتماده أو تطبيقه فيها انتقادات حادّة. لعب عالمو الدراسات اليهوديّة والمحرقة دورًا رئيسيًا في كشف عيوبه. تمّ توجيه عدد كبير من الرسائل المفتوحة التي تعارض اعتماد التعريف إلى برلمانيّي ألمانيا وفرنسا، وإلى مجالسٍ بلديّة. في حين لفتت هذه الإدانات العلنيّة والمبدئيّة انتباه العالم إلى عيوب التعريف العمليّ، لم تنجح هذه الإدانات حتّى هذه اللحظة بإيقاف التطبيق التعسّفيّ للتعريف أو معالجة آثاره الضارّة. يشير التأثير المحدود لهذه التدخّلات إلى ضرورة المجهود المنسّق، وإلى ضرورة التوضيح والاحتجاج، ما من شأنه أن يوضّح تداعيات التعريف العمليّ عن معاداة الساميّة على الفلسطينيّين، وأيضًا على اليهود، وكيفيّة ارتباط هذه الوثيقة بالسياسات الإسرائيليّة.

في رأي خبير حول تعريف IHRA بتكليف من مؤسّسة روزا لوكسمبورغ، وثّق عالم الاجتماع الألمانيّ بيتر أولريخ كيف أنّ ضعف «التعريف العمليّ» يعمل كبوابة للذرائعيّة السياسيّة، مثلاً، للتشويه الأخلاقيّ للمواقف المعارضة في الصراع العربيّ–الإسرائيليّ بتهمة معاداة الساميّة.[٨] كوثيقة غزيرة بالحشو غير المفيد («معاداة الساميّة هي تصوّر معيّن عن اليهود»)، والتي تشير إلى أنماط تفكير محتملة لمعاداة الساميّة (على سبيل المثال، «المعايير المزدوجة») التي ليس لها علاقة بالضرورة بمعاداة الساميّة، والتي تزخر بالتحذيرات («قد يخدم»، «غير مُلزِم قانونيًا»، «مع مراعاة السياق العام»)، والتي عدا عن كونها حذِرة، فهي غير دقيقة بطريقة مذهلة، فيبدو التعريف العمليّ كوثيقة تمّت ملاءمتها بشكلٍ خاص، وبعدّة مفاهيم، لتولّد تطبيقًا تعسّفيًا لها.

بعدما ناقشنا تاريخ التعريف العمليّ وسوء تطبيقه في عدّة سياقات أوروبيّة، علينا الآن أن نفكّر فيما يعنيه هذا التعريف بالنسبة للفلسطينيّين. لماذا يجب أن يكترث الفلسطينيّون بالتعريف العمليّ؟ ما هي الأمور التي على المحكّ بالنسبة لهم في هذا النقاش؟ من منظور حقوق الفلسطينيّين، أكثر قسم إشكاليّ في الوثيقة هو المثال السابع لمعاداة الساميّة: «حرمان الشعب اليهودي من حقّ تقرير المصير، مثلاً، من خلال الادّعاء أن وجود دولة إسرائيل هو مسعى عنصريّ». يتجاهل

لماذا يجب أن يكترث الفلسطينيّون بالتعريف العمليّ؟ ما هي الأمور التي على المحكّ بالنسبة لهم في هذا النقاش؟ من منظور حقوق الفلسطينيّين، أكثر قسم إشكاليّ في الوثيقة هو المثال السابع لمعاداة الساميّة: «حرمان الشعب اليهودي من حقّ تقرير المصير، مثلاً، من خلال الادّعاء أن وجود دولة إسرائيل هو مسعى عنصريّ».

المصطلح الأوّل بشكلٍ إشكاليّ الأسباب العديدة والشرعيّة لـ «حرمان» اليهود وآخرين من حق تقرير المصير، كالنفور من القوميّة مثلاً. الادّعاء الثاني بأنّ وصف دولة إسرائيل على أنّها «مسعى عنصريّ» قد يكون مثالاً لمعاداة الساميّة، يُخطئ جانبًا حاسمًا في أحكام معاداة الساميّة: في حين يمكن تصوّر أنّ معاداة الساميّة يمكنها أن تتعايش مع تصريح من هذا القبيل، لا نعرف عن وجود أيّ رابط ضروريّ بين الأمرين. لا يُسهم هذا المثال في تحديد معاداة الساميّة، بسبب أنّ الادّعاء بأنّ إسرائيل هي مسعى عنصريّ هو ليس ادّعاءً معاديًا للساميّة بحدّ ذاته. الغريب في تعريف معاداة الساميّة أنّ المرجع الوحيد للعنصريّة في التعريف العمليّ أو في الأمثلة المرافقة له هو الإشارة إلى وصف إسرائيل بأنّها «مسعى عنصريّ» كمثال لمعاداة الساميّة. في حين أن البيان الصحافيّ الذي نشره IHRA في عام ٢٠١٦ ربط معاداة الساميّة بكره الأجانب، غاب أيضًا اعتبار جدّيّ لمعاداة الساميّة في سياق العنصريّة من تلك الوثيقة. لهذا التوجّه المنعزل لمعاداة الساميّة، والذي يعالج هذه القضيّة على أنّها مشكلة منعزلة عن قضايا اجتماعيّة أوسع، تأثير إضافيّ على حماية إسرائيل من النقد، وتحريف النقاش بعيدًا عن الأصول الاجتماعيّة لمعاداة الساميّة.

في حين أنّ وثيقة IHRA تحاول، طوال الوقت، أن تفصل بين العنصريّة ومعاداة الساميّة، فإنّ التعريفات الأخرى لمعاداة الساميّة، كالتعريف الذي اقترحته مؤسّسة Independent Jewish Voices (IJV) في كندا، والتي عارضت بوضوح التعريف العمليّ، حدّدت سياق معاداة الساميّة كنوع من أنواع العنصريّة. يشير تعريف IJV كندا إلى أن: «معاداة الساميّة ليست شكلاً استثنائيًا من التعصّب. الأشخاص الذين يكرهون، ويميّزون ضدّ اليهود و/أو يهاجمونهم، سيكرهون أيضًا مجموعات محميّة أخرى وسيميّزون ضدّها وسيهاجمونها- بما في ذلك الأشخاص المصنّفون عرقيًا، والمسلمون ومجتمع الميم، والنساء، والشعوب الأصلانيّة».[٩] ناقش ديفيد فيلدمان، مدير مؤسّسة Pears لدراسات معاداة الساميّة في بيركبيك في جامعة لندن، المبادئ نفسها، بعد اعتماد البرلمان في المملكة المتّحدة لتعريف IHRA في كانون الأوّل ٢٠١٦. بحسب فيلدمان: «أكبر عيب في تعريف IHRA هو فشله بإنشاء أي ارتباط أخلاقيّ وسياسيّ بين النضال ضدّ معاداة الساميّة وأنواع أخرى من التعصّب». يتميّز نقد فيلدمان للتعريف العمليّ باهتمامه المتواصل بدمج دراسة معاداة الساميّة في مفهوم أوسع للعنصريّة.

اتّضح أن نقد فيلدمان، والذي جاء بعد أيّام معدودة من اعتماد أوّل دولة للتعريف العمليّ، أنّه تنبّؤيّ، وليس فقط في سياق المملكة المتّحدة، وإنّما في سياق كلّ الدول التي اعتمدته منذ ذلك الحين. وبصفته نائب رئيس لجنة التحقيق التابعة لحزب العمّال حول معاداة الساميّة في عام ٢٠١٦، كان موقع فيلدمان جيّدًا ومكّنه من توقّع العواقب المحتملة لهذا الاعتماد، في حين لم يكن الواعون لعواقب هذا التعريف سوى أشخاص قليلين جدًا. وقد أُثبت مرّة تلو المرّة خلال السنوات التالية أنّ تحذير فيلدمان الدقيق بأنّ اعتماد التعريف من قبل المملكة المتّحدة «سيضع عبئًا على منتقدي إسرائيل ليثبتوا أنّهم غير معادين للساميّة». إذا أردنا أن نذكر مثالاً واحدة من بين أمثلة كثيرة تمّ الإبلاغ عنها في المملكة المتّحدة، فقد تمّ إلغاء حفل خيريّ لمساعدة الأطفال الفلسطينيّين بسبب تخوّف المجلس البلديّ في لندن من انتهاك إرشادات التعريف التابعة لـ IHRA. لقد تأثّرت الجامعات بشكلٍ خاصّ: تمّ إلغاء حدث يتعلّق بحركة مقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها

يتورّط تعريف IHRA في عدّة انتهاكات لحريّة التعبير حول العالم، بين الفلسطينيّين والناشطين المناصرين للفلسطينيّين. تمّ استخدام التعريف أيضًا لإسكات والتشهير بالعديد من اليهود الذين ينتقدون الصهيونيّة. يسيطر مناخ الخوف والرقابة الذاتيّة على الكثير من الجامعات في أوروبا وشمال أميركا نتيجةً للسيطرة التي يتمّ فرضها بموجب هذا التعبير.

(BDS) في جامعة Central Lancashire، ومُنع طلّاب من تقديم عرض مسرح شارع خلال أسبوع أبرتهايد إسرائيل في عام ٢٠١٧ في جامعة Exeter، وتمّ تغيير عنوان حوار في جامعة Manchester لتجنّب انتقاد إسرائيل. أمّا في الولايات المتّحدة، فنتج عن ذلك أمر رئاسيّ أصدره دونالد ترامب في كانون الأوّل ٢٠١٩، والذي يملي على الوكالات الحكوميّة النظر في تعريف IHRA، عن تقديم ثلاث شكاوى مباشرةً بعد إصدار الأمر في وزارة التعليم ضدّ مناصرة فلسطين في حرم الكليّات.[١٠] أمّا في ألمانيا، تمّ إغلاق الحساب البنكيّ لـ Jewish Voice for Peace Germany بعد اعتماد الحكومة الألمانيّة للتعريف في أيّار ٢٠١٩، وتمّ إلغاء عرض موسيقيّ لمغنّي الراب الأميركيّ طالب كويلي كان من المخطّط أن يكون ضمن مهرجان موسيقيّ في دوسلدورف بسبب رفضه شجب حركة الـBDS.

هذا ليس سوى عدد قليل من الأمثلة التي لا تعد ولا تحصى، والتي تمّ توثيق العديد منها من قِبَل مجموعة Free Speech on Israel ومقرّها في المملكة المتّحدة، ومجموعة Palestine Legal ومقرّها في الولايات المتّحدة، وفي رسالة من قِبَل مجلس المنظّمات الفلسطينيّة لحقوق الإنسان إلى مكتب الأمم المتّحدة ومكتب المفوّض السامي لحقوق الإنسان في الأمم المتّحدة (OHCHR).[١١] جاءت جميع هذه الحوادث بعد اعتماد التعريف العمليّ في مناطق الاختصاص، وساهمت في خلق مناخ عام من الخوف وترهيب الناشطين في القضايا الفلسطينيّة، وجعلت من النقاش المفتوح حول انتهاكات إسرائيل للقانون الدوليّ وموضوع حقوق الإنسان للفلسطينيّين أكثر صعوبة.

تظاهرة في نيويورك تنادي بالحق في مقاطعة إسرائيل.

كما يظهر في الأمثلة السابقة المذكورة، يتورّط تعريف IHRA في عدّة انتهاكات لحريّة التعبير حول العالم، بين الفلسطينيّين والناشطين المناصرين للفلسطينيّين. تمّ استخدام التعريف أيضًا لإسكات والتشهير بالعديد من اليهود الذين ينتقدون الصهيونيّة. يسيطر مناخ الخوف والرقابة الذاتيّة على الكثير من الجامعات في أوروبا وشمال أميركا نتيجةً للسيطرة التي يتمّ فرضها بموجب هذا التعبير. خلال بضع سنوات قصيرة، ومن خلال إعادة صياغته وتغيير ترتيب أمثلته، تحوّل التعريف العمليّ لمعاداة الساميّة من كونه وثيقة غامضة يعرفها القلائل، إلى أداة سياساتيّة غيّرت قوانين اللعبة، وإلى أداة رقابة ناجعة تعمل في عدّة سياقات، وكتشريع له آثار كبيرة على النقاشات حول السياسة الإسرائيليّة. على الرغم من أنّها نشأت كوثيقة داخليّة مخصّصة لاستخدام الشرطة

والمنظّمات المجتمعيّة، أصبح التعريف العمليّ أداة للسياسة الخارجيّة من خلال تفويض يمكّن من مراقبة النقاش المفتوح حول الاحتلال الإسرائيليّ وقمعه من خلال إضفاء هالة شرعيّة على هذه الممارسة.

سأختتم هنا بثلاث توصيات موجّهة لمن يرغب بتخفيف الآثار الوخيمة لهذا التعريف، وبدعم النضال من أجل العدالة في السياقات الفلسطينيّة. أولاً، نحن بحاجة إلى منظور عالميّ حول أثر التعريف العمليّ. على الرغم من أنّ مقاومته قد تكون أكثر فعاليّة على المستوى المحليّ، من المهم تتبّع آثاره في السياق العالميّ. إن النظر إلى الضرر الذي أحدثته هذه الوثيقة فقط من منظور السياسات المحليّة البريطانيّة والأميركيّة والألمانيّة والفرنسيّة هو قصر نظر غير مفيد، وذلك بسبب الترابط بين هذه التطورات. على الرغم من أن الدول الأوروبيّة هي حاليًا ساحات معارك لتطبيق هذا التعريف، إلا أنّها ليست، بحدّ ذاتها، المواقع الفعليّة للصراع. من دون الانتهاك الإسرائيليّ للقانون الدوليّ وحقوق الإنسان في معاملتها للفلسطينيّين والأراضي الفلسطينيّة، سيكون هناك جدل أقلّ حول التعريف، وسيكون الدافع لفرض الرقابة على المعارضة الناقدة لإسرائيل ولقمعها أقل بكثير. لا ينفصل الجدل حول التعريف عمّا يحدث في إسرائيل وفلسطين. من الخطأ السعي إلى فصل هذه القضايا بالكامل.

توصيتي الثانية وذات الصلة هي أنّه يجب دمج أيّ نقاش حول التعريف أو حول اختبار آثاره ببرنامج تعليميّ يتعلّق بفلسطين. في السياقات التي يكون فيها توقّع إلغاء الاعتماد ببساطة أمرًا غير عملي، يجب موازنة التركيز الاستثنائيّ للتعريف على إسرائيل من خلال التركيز الموسّع حول نضال حقوق الإنسان الجاري في فلسطين، ومن خلال تطوّرات محليّة ودوليّة عديدة تقف أمام هذا النضال. يمكن أن يساعد الفلسطينيّون هذه الجهود من خلال جعل مطالبهم أكثر وضوحًا، كما فعلت سابقًا المنظّمات العشر الأعضاء في مجلس منظّمات حقوق الإنسان الفلسطينيّة في الرسالة المفتوحة الموجّهة لـ OHCHR. يمكن توجيه رسالة مفتوحة مماثلة وتوجيه مناشدة جماهيريّة للبرلمان الأوروبيّ، وللحكومات التي تفكّر في اعتماد التعريف، ولجامعات ولمنظّمات ذات صلة بالجامعات. حتّى عندما يكون موضوع طرح تعريف جديد غير عمليّ وغير مرغوب به، من المهم توثيق الضرر الذي تُحدثه التعريفات الحاليّة.

أخيرًا، وإلى جانب منظور أكثر شموليّة وانتباه أكثر للأصوات الفلسطينيّة وللحقوق الفلسطينيّة، يظهر فشل التعريف العمليّ في إيقاف أو تقليل معاداة الساميّة في النطاقات القضائيّة التي اعتمدت التعريف أنّنا بحاجة لتوجّه جديد لفهم معاداة الساميّة، والذي يتجاوز الكليشيهات المألوفة، ولكن المستمرة، المرتبطة بـ»معاداة الساميّة الجديدة». على الرغم من أنّ معاداة السامية تتميّز عن أنواع أخرى من العنصريّة، من الأفضل فهمها على أنّها نوع من أنواع العنصريّة. تصنيفات كراهيّة الأجانب والتحيّز غير مناسبة لفهم جذور اضطهاد اليهود، وخصوصًا في أوروبا. يمكن أن تتعلّم دراسات معاداة الساميّة كثيرًا من دراسة كيف وجدت شعوب مضّطهدة أخرى لغات لتوثيق تهميشها وإقصائها عن المجتمع. لا بدّ أنّ تعريفًا ما بعد استعماريّ ومعادٍ للعنصريّة ولمعاداة السامية سيبدو مختلفًا بشكلٍ جوهريّ عن التعريف الذي يهيمن على الخطاب العامّ اليوم.

في سعينا لتطوير منظور عالميّ لتعريف IHRA، قد نسأل بعقلانيّة إلى أيّ مدى قد تكون وثيقة تبدو غير ضارّة، أو حتّى تافهة، ذات صلة بمسار السياسات المستقبليّة المتعلّقة بإسرائيل/فلسطين؟ على مستوى واحد، تعريف IHRA هو مجرّد مجموعة من الكلمات تتعلّق عواقبها بالمستخدم والسياق. وفي الوقت نفسه، ونظرًا للسياق المثير للجدل للسياسات الفلسطينيّة/الإسرائيليّة، يعمل التعريف بأهميّة محدّدة مسبقًا في كلّ نطاق قضائيّ يقوم باعتماده. هذه الوثيقة بارعة في سحق المعارضة وفي تقييد أجندات الناشطين الذين يسعون إلى تحقيق العدالة للفلسطينيّين بسبب صياغتها واختيارها للأمثلة وعدم دقّتها.

يصبح التعريف العمليّ فورًا وكيلاً لمجموعة من القضايا وأعراضها، يشمل ذلك فشل القانون الدوليّ في محاسبة إسرائيل على جرائمها، وعدم فعالية و/أو عدم مبالاة المجتمع الدوليّ تجاه الاحتلال المستمرّ لفلسطين، ولوروث المحرقة الذي ما زال عالقًا. تتشابك جميع هذه القضايا مع التعريف العمليّ، وتساعد على تفسير سرعة اعتماده عبر أوروبا وأميركا الشماليّة بدون أيّ تدقيق كافٍ أو مداولات ديمقراطيّة، وأيضًا على تفسير فعّاليّته كسلاح لإسكات المعارضة.

التعريف العمليّ هو أيضًا شهادة على قوّة اللغة في إعادة تصميم واقع المراقبين، ومنع الذين يتأثّرون به من الاحتجاج ضدّ احتلال فلسطين. مع أمثلته الغامضة التي

تستخدم التراجيديا من أجل إخفاء تراجيديّات أخرى، يعمل هذا التعريف من خلال المحو: محو الفلسطينيّين ومطالبهم بتقرير المصير، حيث يهدّد الاحتلال الإسرائيليّ هذه المطالب بشكلٍ دائم، ومحو الحقّ الأساسيّ للاحتجاج ضد الخطوات التي تتّخذها الدولة. منذ عام ٢٠٠٣ وحتّى اليوم، لم يتمكّن أيّ مؤيّد للتعريف العمليّ من التوفيق ما بين المطالب الاستثنائيّة في الوثيقة وحقوق الإنسان الأساسيّة ومناهضة العنصريّة كأجندة برامجيّة تنطبق على الجميع، أو في إيجاد طريقة تمكّن من تيسير التعايش اليهوديّ–الفلسطينيّ في المناطق المحتلّة. عدا عن رفض هذا التعريف والتحرّك ضدّه، علينا استبداله بفهم آخر، وليس فقط للعنصريّة المعادية لليهوديّة، وإنّما حول دورنا في إحقاق العدالة من خلال النشاط.

(مترجم عن الإنجليزية: منى أبو بكر)

الهوامش

١. النصّ الكامل للتعريف متوفّر في موقع IHRA:
https://www.holocaustremembrance.com/working-definition-antisemitism

٢. أنظر كينيث س. ستيرن، «شهادة مكتوبة من كينيث ستيرن أمام لجنة القضاء في مجلسّ نوّاب الولايات المتّحدة: جلسة استماع حول التحقيق في معاداة الساميّة في حرم الكليّات» (٧ تشرين الثاني ٢٠١٧). متوفّر في https://docs.house.gov/meetings/JU/JU00/20171107/106610/HHRG-115-JU00-Wstate-SternK-20171107.pdf.

٣. جيمس مكالوي، «أثارت عمليّتا قتل في باريس خلال عام، جدلاً مريرًا في فرنسا حول معاداة السامية، والعرق، والدين»، The Guardian (١٧ تشرين الأوّل ٢٠١٨،
https://www.theguardian.com/world/2018/nov/27/how-the-murders-of-two-elderly-jewish-women-shook-france-antisemitism-mireille-knoll-sarah-halimi)

٤. مايكل واين، «تطبيق التعريف العمليّ لمعاداة الساميّة»، Justice ٦١ (٢٠١٨): ١٥.

٥. «البرلمان الفرنسيّ يعتمد القانون المثير للجدل الذي يربط ما بين معاداة الساميّة ومعاداة الصهيونيّة»، Radio France Internationale http://www.rfi.fr/en/france/20191204-french-parliament-adopts-controversial-law-linking-anti-semitism-and-anti-zionism (٤ كانون الأوّل ٢٠١٩).

٦. جيفري بيندمان، «لا يعتبر نقد إسرائيل معاداة للساميّة»، *European Judaism* 52.1 (2019): 116.

٧. طوملينسون، هيو، «رأي: حول موضوع اعتماد والتطبيق المحتمل للتعريف العمليّ للتحالف الدوليّ لإحياء ذكرى المحرقة لمعاداة الساميّة»، ٢٠١٧. http://freespeechonisrael.org.uk/wp-content/uploads/2017/03/TomlinsonGuidanceIHRA.pdf.

٨. بيتر أولريخ، «موقف خبير حول «التعريف العمليّ لمعاداة الساميّة» التابع للتحالف الدوليّ لإحياء ذكرى المحرقة». أوراق ٢٠١٩/٢. برلين: مؤسّسة روزا لوكسمبورغ. https://www.rosalux.de/en/publication/id/41168/expert-opinion-on-the-international-holocaust-remembrance-alliances-working-definition-of-antisemi/

٩. ما سبب محاربة اعتماد تعريف IHRA لمعاداة الساميّة؟ موقع noihra Canada. https://www.noihra.ca/about.html.

١٠. للاطلاع على الأمر الرئاسيّ، أنظروا
https://www.whitehouse.gov/presidential-actions/executive-order-combating-anti-semitism/(١١ كانون الأوّل ٢٠١٩)

١١. للاطلاع على هذا التوثيق، أنظروا .https://freespeechonisrael.org.uk/interference2017/#sthash.LJvnkT5Q.LJKU85dK.dpbs
.https://palestinelegal.org/redefinition-efforts

عاموس غولدبرغ *

الكولونيالية والمحرقة اليهودية: صدام بين روايتين

كما أشار المؤرّخ تشارلز ماير،[1] فقد نشأت وتأسّست، في النصف الثاني من القرن العشرين وتحديدًا قُبيل نهايته ، في الغرب وعداه روايتان تاريخيّتان كبيرتان جاءتا لشرح طبيعة الحداثة، وكلتاهما تحكيان قصّة كوارث تاريخية. إحداهما هي قصّة المحرقة اليهودية واللاسامية، والأخرى هي القصة اللّا/ ما بعد كولونيالية وعنصرية الغربية. ولهاتين الروايتين اللتين أصبحتا – إلى حدّ كبير – كونيّتين جذورٌ عميقة في التاريخ وفي فكر مناطق مختلفة من العالم. لكنّهما تطوّرتا بعد الحرب العالمية الثانية، على الرغم من أنّه قد تمّ إخفاؤهما من خلال تقسيم الحرب الباردة، ومن نهاية سنوات الثمانينيات، وبالأساس خلال سنوات التسعينيات من القرن الماضي، مع سقوط الكتلة الشيوعية، تمأسّستا من ناحية فكرية وحظيتا بظهور جماهيريّ، وأثّرتا تأثيرًا كبيرًا في الحوار الأكاديميّ، الثقافيّ، والسياسيّ في أوروبا، في الولايات المتّحدة، في الشرق الأوسط، وفي أجزاء أخرى من العالم.

وقد تشكّلت – على مرّ السنين – علاقات مركّبة جدًا بين هاتين الروايتين. كما كُتب عن ذلك الكثير في السنوات العشرين الأخيرة. وما يبرز بشكل خاصّ في هذا السياق هو كتاب مايكل روتبرغ Multidirectional Memory[2] الذي بيّن كيف أنّه في الكثير من السياقات في سنوات الخمسينيات، مثلًا، اندمجت هاتان الروايتان معًا وشكّلتا شبكات ذاكرات متعدّدة الاتجاهات، وليس بالضرورة ذاكرات متنافسة تنفي الواحدة منها الأخرى. وعلى الرغم من ذلك، فبين هاتين

* باحث ومحاضر في التاريخ اليهودي المعاصر– الجامعة العبرية ومعهد فان لير.

الرواية اللّا/الما بعد كولونيالية هي رواية نقدية أكثر بكثير. وبموجبها، ليست الكولونيالية شاذّة عن المسار الغربيّ لقيم التنوير والتحرّر، لا بل تعكس «الجانب المظلم والإجراميّ» المتأصّل في الثقافة الغربية الحديثة أيضًا، ولربّما، أساسًا، بصيغتها الليبيرالية. إذ إنّ أنظمة ديمقراطية – ليبيرالية، أيضًا، كانت متورّطة (ولا تزال متورّطة) في العنف، في قتل، في قهر، وأحيانًا حتّى في إبادة شعوب ومجتمعات.

الحكايتين – في نهاية المطاف – توتّر مبنويّ. إذ تركّز حكاية المحرقة اليهودية على أحداث داخل أوروبا خاصّة بمطاردة وقتل ستّة ملايين يهوديّ خلال الحرب العالمية الثانية. في حين أنّ الرواية اللّا/الما بعد كولونيالية – في المقابل – تركّز على مظالم أوروبا والغرب تجاه مجموعات سكانية غير بيضاء خارج أوروبا وداخلها (في إطار العبودية والعنصرية الفظّة تجاه السود، المهاجرين، واللّاجئين). وعلى الرغم من تاريخ مركّب من الإنكار والتهرّب حظيت قصّة المحرقة اليهودية – قُبيل نهاية الألفية – باعتراف غير مسبوق في التاريخ الكونيّ للذاكرة، كما حظي ضحاياها بتعويضات – هي مستحقّة طبعًا – لكنّها سخيّة جدًّا بمقارنة تاريخية. في حين أنّ جرائم الكولونيالية والعنصرية – في مقابل ذلك – لا تزال تواجه الإنكار التامّ تقريبًا من قِبل الغرب، حيث إنّ نضال ذراري العبيد، مثلًا، ونضال الدول الإفريقية من أجل الحصول على تعويضات أبعد من أن يجني أيّ ثمار مهمّة ما.

كما أنّ الرسائل السياسية لهاتين الروايتين مختلفة جدًّا. فقد جاءت حكاية المحرقة اليهودية – في نهاية المطاف – لتؤسّس جدول الأعمال الليبراليّ (أو النيوليبراليّ) الديمقراطيّ من نهاية الألفية وما يليها. وهنا تُعتبر المحرقة اليهودية كانقضاض لقوًى بريرية حاولت أن تعرقل مسار تطوّر الغرب في اتّجاه الحداثة؛ أي في اتّجاه كيان ليبراليّ وديمقراطيّ أكثر ينمو من داخل قيم التنوير والثورة الفرنسية. كان هؤلاء هم النازيّون الذين حرفوا الغرب عن مساره هذا، عندما ارتكبوا أفعالهم الفظيعة، ولا سيّما المحرقة اليهودية. وإنّ المغزى من هذه القصة أنّه طالما كنّا حريصين على التمسّك بقيمنا الديمقراطية وتعزيز المجتمع المدنيّ من خلال ضبط نزعات فكرية متطرّفة، ففي إمكاننا الدفاع عن أنفسنا من الانجراف نحو جرائمية من هذا النوع، وإنّنا بذلك نعزّز هُويّتنا باعتبارنا 'الصالحون' – كمن يتمسّكون بالديمقراطية ويدعمون الحرّية. وبشكل مفارق، إذًا، إنّ رواية المحرقة اليهودية رواية مطمئنة، وإنّها، فقط، تعزّز الهُويّة الغربية بأنّ ثقافة الذاكرة والندم التي انتهجتها تجاه المحرقة اليهودية تمكّنها من أن تشعر شعورًا بالرضى عن ذاتها وعن قيمها.

وبملاحظة عابرة نذكر أنّه لربّما اتّضح – في العقد الأخير – ضعف هذه الرواية. إنّ حركات العصبية القومية والمنافية للديمقراطية والأنظمة الشعبوية تنمو، أيضًا، ولربّما، أساسًا، في الأماكن التي دُرّست فيها المحرقة اليهودية – على امتداد عقود – كإشارة إنذار. إنّ هذه الأنظمة والحركات لا تتنكّر، دائمًا، لذاكرة المحرقة اليهودية، حتّى إنّها، أحيانًا، تواصل التمسّك بها كمركّب مركَزيّ في هُويّتها وفي الذاكرة الوطنية التي ترعاها. ورغم ذلك فإنّها تقترب بشكل خطير من أفكار الفاشية الأوروبية في سنوات الثلاثينيات والأربعينيات. وسنعود إلى ذلك لاحقًا.

الرواية اللّا/الما بعد كولونيالية هي رواية نقدية أكثر بكثير. وبموجبها، ليست الكولونيالية شاذّة عن المسار الغربيّ لقيم التنوير والتحرّر، لا بل تعكس 'الجانب المظلم والإجراميّ' المتأصّل في الثقافة الغربية الحديثة أيضًا، ولربّما، أساسًا، بصيغتها الليبيرالية. إذ انّ أنظمة ديمقراطية – ليبيرالية، أيضًا، كانت متورّطة (ولا تزال متورّطة) في العنف، في قتل، في قهر، وأحيانًا حتّى في إبادة شعوب ومجتمعات غير أوروبية في شتّى أرجاء العالم. ويكفي أن نذكر إبادة الأطفال في أميركا الشمالية، العبودية والتمييز ضدّ السود في الولايات المتّحدة، و[جنوساید] الإبادة الجماعية لهيريرو وناما التي اقترفتها ألمانيا في جنوب غرب إفريقيا، العنف الإجراميّ الذي مارسه البلجيكيّون في الكونغو والذي أدّى

إلى هلاك ملايين كثيرة، الإبادة الكاملة أو الجزئية لمجموعات سكّانية أصلانية في أستراليا وفي تاسمانيا، وغيرها الكثير. إنّ الرواية الما بعد كولونيالية تُحْسن وصف كلّ ذلك باعتبارها تنشأ من قلب مفهوم التنوير وفي التحوّل الديمقراطي التي مرّت بها أوروبا، وليس كردّ فعل لكلّ ذلك. حتّى إنّ هذه الرواية التاريخية تواصل انتقادها للمجتمعات الغربية والديمقراطية الليبيرالية بعد إجراءات إنهاء الاستعمار في شأن تدخّلها المستمرّ، العمليّ والمبنويّ، في الجنوب العالميّ، ولسبب السلوك العنصريّ، العنف المتطرّف، والأعمال الإجرامية، بما في ذلك الاستغلال الاقتصاديّ، حتّى يومنا هذا. في هذه الرواية التي تنشأ من داخل التجربة الكولونيالية وما بعد الكولونيالية ليس العنف السياسيّ الأصوليّ الأوروبيّ عطلًا طارئًا، لا بل هو أمر عاديّ، ليس مجرد إمكانية مهدّدة، لا بل هو ممارسة ثابتة.

تصطدم هاتان الروايتان العالميّتان اصطدامًا هو الأكثر وجاهية وفظاظة بمسألة إسرائيل – فلسطين، كما بيّن عومر كميل، لقد اصطدمتا في سنوات الخمسينيات والستينيات، قبل أن تتشكّلا لتصبحا مجموعًا سياسيًا وثقافيًا شاملًا، وحتّى قبل أن ينشر سعيد «الاستشراق» و«مسألة فلسطين». وهكذا، مثلًا، حدثت هوة عميقة بين سارتر وبين مفكّرين عرب عشية حرب العام ١٩٦٧ على هذه الخلفية بالضبط. بعد نحو عقدين على المحرقة اليهودية رفض سارتر أن يعتبر الصهيونية ودولة إسرائيل كيانين إجراميّين، مثلما اعتبرهما مفكّرون عرب.[٣]

وفعلًا، إنّ الهوّة بين هاتين الروايتين في قضية فلسطين إسرائيل عميقة جدًا. فحسَب رواية المحرقة اليهودية واللاسامية فإنّ العداء تجاه اليهود في أوروبا (وإلى حدّ ما في بلاد الإسلام، أيضًا) كأقلية على امتداد مئات وآلاف السنين، جعلت وجود اليهود في النظام السياسيّ الجديد بعد نموّ القوميّة الحديثة وتشكّل الدول القومية غير ممكن، تقريبًا. إنّ محكمة درايفوس التي اتُّهم فيها زورًا الضابط اليهوديّ بخيانة فرنسا وبنقل معلومات إلى العدوّ الألمانيّ، والتي في أعقابها صرخت الحشود في الشوارع «الموت لليهود»، دعت هرتسل إلى اليأس من فكرة اندماج اليهود في أوروبا وإلى إنشاء الحركة الصهيونية. إنّ إنشاء بيت قوميّ في أرض إسرائيل لليهود كان الحلّ الحتميّ لوضعهم في العصر الحديث. فالمحرقة التي لم يُقتل فيها نحو ستّة ملايين يهوديّ فقط، بل دُمّرت فيها تمامًا، تقريبًا، الحضارة اليهودية في أوروبا قد أوضحت – بلا أدنى شكّ، وبحسَب هذه الرواية – أنّ وضع اليهود في النظام السياسيّ الحديث مستحيل بدون دولة قومية خاصّة بهم. وفي هذه الرواية الحلّ الأمثل والقاطع للاسامية وللمحرقة اليهودية هو إقامة دولة يهودية في أرض إسرائيل، يستطيع الناجون من المحرقة فيها ترميم حياتهم وكرامتهم. حتّى إنّه في وثيقة استقلال دولة إسرائيل خُصّصت بضع فقرات للمحرقة اليهودية، كما جرى التشديد على أحداث بالغة الأثر من قبيل محكمة آيخمان عام ١٩٦١ التي حاكمت فيها دولة إسرائيل باسم الشعب اليهوديّ واحدًا من المهندسين الأوائل لـ«الحلّ النهائيّ» بينما العالم بأسره يتأمّل ذلك بذهول، لتوطيد هذه الرواية أكثر فأكثر.

تنظر الرواية اللّا/الما بعد كولونيالية إلى النضال في فلسطين بصورة مغايرة تمامًا. فإنّه بموجب هذه الرواية التاريخية، الصهيونية هي حالة أخرى من حالات الكولونيالية والإمبريالية الغربية. فاليهود الذين قدموا من أوروبا برعاية القوى العظمى لم يأتوا للاندماج في النسيج السياسيّ المحلّيّ، بل جاؤوا لاستبداله بمجتمع سياسيّ خاصّ بهم. وإنّ إعلان بلفور عام ١٩١٨ وصكّ الانتداب من عام ١٩٢٢ الذي يستند إليه، هما المستندان الإمبرياليّان الأكثر إجرامية في تاريخ المِنطقة، لأنّهما منحا الأقلية اليهودية حقوقًا قومية في مِنطقة لم تكن تابعة إلى القوى العظمى، بل كانت تابعة إلى السكّان الأصلانيّين الموجودين في هذا المحيط. وكما في حالات أخرى بالضبط من الكولونيالية الاستيطانية فإنّ توق الصهيونيّين للأراضي لم يعرف حدودًا، ودائمًا ما يأتي، بهذه الصورة أو تلك – «قانونية»، أحيانًا، وعنيفة، أحيانًا – من أجل إقصاء السكان الأصليين. وذلك كما حدث بالضبط في شمال أميركا، في أستراليا، وفي أماكن أخرى. إنّ التطهير العرقيّ عام ١٩٤٨ – النكبة – هو نتيجة حتمية لهذه الإجراءات، أو كما ادّعى پاتريك وولف بتحليله بعض حالات الكولونيالية الاستيطانية – ليست الكولونيالية الاستيطانية حدثًا بل هي بنية.[٤] إنّها بنية عنيفة تقوم بإقصاء المقيم الأصلانيّ من أجل منح مساحة من الأرض وأغلبية سكّانية صُلبة للغزاة. إنّها بنية عالميّة حيث إنّ كثرة العنف من جانب المستوطن تجاه السكّان الأصليين مبنوية فيه، حيث إنّها تصل أكثر من مرّة إلى درجة إبادة فعلية للشعب فعلًا. ومنذئذٍ لم يتوقّف المشروع الكولونياليّ اليهوديّ عن التوسّع

يبدو، فعلًا، أنّه في موضوع إسرائيل فلسطين لا يمكن ردم الهوّة بين هاتين الروايتين. فإحداهما ترى إلى الصهيونية تعبيرًا عن عدل تاريخيّ لا يُعلى عليه، وترى الأخرى إلى الصهيونية إحدى الحركات الإجرامية الأعند في تاريخ الإمبريالية والكولونيالية الغربية.

بدعم كاسح من الغرب، والنكبة التي بدأت عام ١٩٤٨ ولربّما قبل ذلك مستمرّة حتّى يومنا هذا.

يبدو، فعلًا، أنّه في موضوع إسرائيل فلسطين لا يمكن ردم الهوّة بين هاتين الروايتين. فإحداهما ترى إلى الصهيونية تعبيراً عن عدل تاريخيّ لا يُعلى عليه، وترى الأخرى إلى الصهيونية إحدى الحركات الإجرامية الأعند في تاريخ الإمبريالية والكولونيالية الغربية.

تطوّر الروايتين

لكن هيّا بنا نتوقّف لحظة أخرى عند طرق تطوّر هاتين الروايتين، بدون علاقة بمسألة فلسطين إسرائيل. لقد تأسّست هاتان الروايتان وتمأسستا وأصبحتا روايتين عالميّتين في الجامعات وفي مؤسّسات ثقافية وذكرى، وحتّى في المخيّلة الشعبية خلال سنوات الثمانينيات، وخصوصًا في سنوات التسعينيات من القرن الفائت. لكن ليس بنفس الدرجة. لربّما كنقطة انطلاق اعتباطية بعض الشيء يمكن أن نذكر المسلسلين «جذور» و«محرقة»، اللذين أخرجهما مارڤين تشومسكي Marvin Chomsky وبُثّا عبر التلفاز في الولايات المتّحدة في نهاية سنوات السبعينيات. وزعزع هذان المسلسلان اللّذان حظيا بأقصى نسب مشاهدة في الولايات المتحدة، وبعدها في دول كثيرة أخرى في أنحاء العالم – إلى حدّ بعيد – المفهوم الشموليّ لفرن الصهر الأميركيّ. فقد حكى مسلسل «جذور» قصّة أسرة أفرو–أميركية من لحظة اختطاف آبائها من إفريقيا في إطار الاتّجار بالعبيد وحتّى، عمليًّا، سنوات السبعينيات من القرن العشرين، كحكاية عنصرية بنيوية ومستمرّة، وبالمقابل كدعوى تطالب بحقوق الإنسان والمواطن

دفاعا عن الحق في انتقاد إسرائيل.

الكاملة. والمسلسل «محرقة» الذي يعتبره الكثيرون بداية أمركة ذاكرة المحرقة قد حكى قصّة أسرة يهودية في ألمانيا، يقضي غالبية أبنائها في المحرقة، حيث يبقى واحد منهم فقط، وفي نهاية المسلسل يهرّب – بعد الحرب – أطفالًا يهودًا ناجين إلى فلسطين. وكما ذُكر، لقد حظي المسلسلان بأقصى نسب مشاهدة هي غير مسبوقة، كما قد حرّكا مسارات وتيّارات ثقافية بالغة الأثر.

أخذ الاهتمام بالمحرقة اليهودية يتزايد خلال سنوات الثمانينيات وحتّى بعد ذلك، خلال سنوات التسعينيات، وأصبح أمرًا مركَزيًّا في كلّ العالم الغربيّ. وقد أدّت سلسلة من النقاشات والمواجهات الفكرية التاريخية في ألمانيا، في سائر أوروبا، وفي الولايات المتحدة الأميركية (مثلًا، حول زيارة الرئيس ريغن إلى المقبرة العسكرية في بيتبورغ، التي كان مدفونًا فيها – ضمن آخرين – جنود ڤافن إس إس، في

أيّار العام ١٩٨٥) إلى نشوء اهتمام متزايد بالمحرقة اليهودية. كما أنّ فيلم كلود لنتسمان «محرقة»، الذي كان أحد المعالم في تاريخ السينما عمومًا، خرج إلى دور العرض عام ١٩٨٥ ، وقد شوهد بتأييد وتشجيع كبيرين في جميع أنحاء العالم. تمّ افتتاح متحف المحرقة اليهودية في واشنطن عام ١٩٩٣ كمتحف فدراليّ يقع داخل مول في واشنطن مع بقيّة رموز السلطة والثقافة الأميركية، وقد أصبحت «ياد ڤـشيم» في تلك السنوات هدفًا سياحيًّا هو في المرتبة الثانية شعبية في دولة إسرائيل (بعد حائط المبكى). مئات الكاتدرائيّات، المعاهد، المتاحف، والمؤسّسات، في أوروبا، في شمال أميركا، وحتّى في جنوب إفريقيا، أستراليا، جنوب أميركا، شرق آسيا، ونيوزيلاندا (وإسرائيل، طبعًا)، قد أسّست لموضوع تدريس المحرقة اليهودية، بحثها، وذكراها. فأفلام مثل قائمة شندلر لستيـڤـن سـپـيلبرغ، الذي خرج إلى دور العرض عام ١٩٩٣، وبعده أفلام أخرى كثيرة مثل «الحياة حلوة» لروبرتو بنينو في عام ١٩٩٧ ، فازت بجوائز الأوسكار وبجوائز قيّمة أخرى. وقد جمعت مؤسّسات في جميع أنحاء العالم شواهد من ناجين من المحرقة، وما لا حصر له من الأبحاث التاريخية، الأدبية، الثقافية، والأخرى، قد كُتبت عن المحرقة وذكراها. وقسم كبير من الفلسفة الما بعد حداثية التي كُتبت في سنوات الثمانينيات والتسعينيات، وحتّى بعد ذلك، قد تطرق وتمأسس على المحرقة – دريدا، ليـــڤـيناس، شوشانا فلمان، دومينيك لاكاپـرا، وجورجيو أغـامبن، هم مجرد أمثلة. حتّى إنّ هناك من يدّعون أنّ كلّ فلسفة ما بعد الحداثة أو ما بعد البنيوية هي – بصورة ما – ردّ فعل على المحرقة والنازية. وباختصار، تمّ الاعتراف بالمحرقة اليهودية كذاكرة جمعية ملزمة يجب على كلّ إنسان متحضّر أن يحترمها، مثلما ادّعى المؤرّخ طوني جادت.[٥] أو كما ادّعى المؤرّخ ألون كونفينو قد تحوّلت المحرقة ليتم التعامل معها باعتبارها Foundational past ، حلّ – إلى حدّ بعيد، بالنسبة إلى الغرب – محلّ ذكرى الثورة الفرنسية.[٦] لقد أصبحت المحرقة اليهودية ذاكرة غربية مهيمنة.

إنّ الرواية اللّا/الما بعد كولونيالية لم تحظَ، قطّ، بالموارد نفسها، أو بالظهور والمأسسة نفسيهما في الحيّز العامّ في الغرب، الذي – كما ذُكر – يرفض، حتّى اليوم، الاعتراف بكامل حجم جرائمه على مدار نحو خمسمائة عام من الكولونيالية، الاتّجار بالعبيد، والعنصرية المبنوية. لكنّه حظي، فعلًا، بالسيطرة – إلى حدّ بعيد – على جدول الأعمال الأكاديميّ، وإلى حدّ ما، أيضًا، على جدول الأعمال الفنّيّ في الجامعات وفي مؤسّسات ثقافية في شمال أميركا وبعدها، أيضًا، في أوروبا. صحيح أنّ الفلسفة اللا–كولونيالية (بمفهومها الواسع) ترجع إلى الوراء، إلى بداية ومنتصف القرن العشرين، وحتّى قبل ذلك، لكن نُشرت في سنوات التسعينيات سلسلة كتابات فلسفية أثّرت تأثيرًا حاسمًا وبلورت المجال إلى حدّ جعله حقلًا أكاديميًّا شاملًا بالغ التأثير في كثير من التخصّصات الأكاديمية في العلوم الإنسانية – الأدب، علم الإنسان، التاريخ، دراسات الجندر [النوع الاجتماعيّ]، دراسات الثقافات، القانون، وغيرها. ومن سنة ١٩٨٨ بدأت Gayatri Chakravorty Spivak بنشر كتبها التي سرعان ما أكسبتها مكانة قانونية رسمية، وفي العقد نفسه، وكذلك من خلال بروز نجم هومي بابا الذي نُشر كتابه البالغ الأثر The Location of Culture عام ١٩٩٤ و Chakrabarty, Dipesh الذي نشر كتابه Provincializing Europe: Postcolonial Thought and Historical Difference عام ٢٠٠٠. وبموازاة ذلك، في نهاية سنوات التسعينيات، بدأت تظهر دوريّات كُرّست لقضايا ما بعد كولونيالية: بدأت دورية Postcolonial Studies تظهر عام ١٩٩٨ وفي العام نفسه، أيضًا، بدأت تنشط دورية Interventions: International Journal of Postcolonial Studies وفي عام ١٩٩٩ صدر المجلّد الأوّل من دورية Journal of Genocide Research التي تناول الكثير من مقالاتها العنف الكولونياليّ والما بعد كولونياليّ.

من الجدير بالذكر، أيضًا، في المستوى السياسيّ، أنّ النهاية التي جرت تغطيتها إعلاميًّا لنظام الفصل العنصريّ [الأپـارتهايد] في جنوب إفريقيا عام ١٩٩٤، ولجنة الحقيقة والمصالحة التي حلّت في أعقابها، قد منحتا دفعًا سياسيًّا هائلًا للرواية الما بعد كولونيالية ولمأسستها كمنظورية مهمّة لفهم الواقع السياسيّ والثقافيّ – الحاضر والتاريخيّ – في العالم كلّه.

وحاليًّا، ففي العقد نفسه انقلب العالم كلّه. انتهت الحرب الباردة وكان يبدو أنّ القيم الديمقراطية والليبرالية بصيغتها الغربية قد جاءت بالتاريخ إلى نهايته، مثلما ادّعى بتبجّح مؤرّخ الاقتصاد فرنسيس فوكوياما في عام ١٩٩٢ . وُقّعت في هذا العام معاهدة ماستريخت، وبعد ذلك بسنة أُنشئ الاتحاد الأوروبيّ الذي كانت ماهيّته تحجيم صلاحية الدولة القومية

إنّ الرواية اللّا/الما بعد كولونيالية لم تحظَ، قطّ، بالموارد نفسها، أو بالظهور والمأسسة نفسيهما في الحيّز العامّ في الغرب، الذي – كما ذُكر – يرفض، حتّى اليوم، الاعتراف بكامل حجم جرائمه، لكنّها حظيت، فعلًا، بالسيطرة – إلى حدّ بعيد – على جدول الأعمال الأكاديميّ، وإلى حدّ ما، أيضًا، على جدول الأعمال الفنّيّ في الجامعات وفي مؤسّسات ثقافية في شمال أميركا وبعدها، أيضًا، في أوروبا.

لصالح إطار دوليّ أوروبيّ فوق قوميّ. وقد جرى الكثير من الحديث عن عصر ما بعد القومية. وتحت رعاية الدولة العظمى الوحيدة – الولايات المتّحدة حُلّت – في ذلك العقد – بعض المواجهات الأكثر حدّة وقدمًا – وقد كان أبرزها إنهاء نظام الفصل العنصريّ [الأپـارتهايد] في جنوب إفريقيا عام ١٩٩٤، واتّفاق الجمُعة العظيمة الذي أنهى عام ١٩٩٨ المواجهة في إيرلندا الشمالية، بين الكاثوليك والبروتستانت. كان على الغرب بعد الحرب الباردة أن يعرّف هُويّته من جديد، فتبنّى فكرة حقوق الإنسان وحقوق المواطن كقيم عُليا ومقدّسة، حتّى إنّها صاغت الدساتير والاتفاقات الدولية التي وُقّعت في تلك الفترة. لقد ساندت قصّة المحرقة اليهودية هذه الأفكار الخاصّة بحقوق الإنسان التي صيغت، عمليًا، منذ كانون الأوّل العام ١٩٤٨، منذ أن تبّنت الجمعية العامّة للأمم المتّحدة – في أعقاب الحرب العالمية الثانية والمحرقة اليهودية – الإعلان للإنسانية جمعاء في شأن حقوق المواطن والإنسان[٧] ولكن – يجب أن نضيف – من دون أن يُوجَّه ذلك بشكل مباشر ضدّ أعمال الإخلال بحقوق المواطن والإنسان التي ارتكبتها إسرائيل. لقد اعتُبرت إسرائيل الوريثة المثالية لضحايا المحرقة، وكتلك حظيت بحصانة إلى حدّ بعيد. إنّ التوتّر بين الموروثين اللذين تعلّقا بالمحرقة – مساندة دولة إسرائيل كوريثة لضحايا المحرقة، والالتزام بحقوق المواطن والإنسان – كان قد أصبح ملحوظًا، لكنّه لم يصل بعد إلى حدّ الصدام الوجاهيّ. إنّ هذا الصدام سيأتي سريعًا.

لقد شهد الشرق الأوسط، أيضًا، تقلّبات كبيرة في ذلك العقد. ففي عام ١٩٩٣ وُقّعت اتّفاقات أوسلو وأُنشئت السلطة الفلسطينية في مناطق الضفّة الغربية وقطاع غزّة. لكن قبل أن يجفّ الحبر على الاتفاقات المبرمة اندلعت أعمال العنف. تمّ تسريع وتيرة توسيع المستوطنات، مصادرة الأراضي، وتعبيد الشوارع الـ«التفافية» في الأراضي المحتلّة، وفي شهر شباط العام ١٩٩٤ وقعت المجزرة في الحرم الإبراهيميّ في الخليل، التي قُتل فيها تسعة وعشرون مصلّيًا. وفي أيلول العام ١٩٩٦ قامت حكومة إسرائيل بفتح أنفاق حائط المبكى ما أدّى إلى نشوب آخر لأعمال العنف. وفي المقابل وقعت أعمال انتحارية داخل حدود دولة إسرائيل وفي الأراضي المحتلّة ضدّ مواطنين وضدّ جنود الجيش الإسرائيليّ، قُتل فيها خلال «سنوات أوسلو» نحو ١٦٥ شخصًا. وفي تشرين الثاني العام ١٩٩٥ قُتل رئيس حكومة إسرائيل، إسحق رابين، من قِبل يهوديّ مواطن إسرائيل. وفي تمّوز العام ٢٠٠٠ اجتمع، مرّة أخرى، رئيس حكومة إسرائيل، حينها، إيهود باراك، ورئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات، في مؤتمر قمّة في كامـپ ديـڤـيد، بوساطة رئيس الولايات المتّحدة، بيل كلينتون، في محاولة للوصول إلى تسوية وإنقاذ عملية السلام. لكنّ القمّة فشلت، وبعدها ببضعة أشهر، في أيلول العام ٢٠٠٠، صعد أريئيل شارون، رئيس المعارضة في إسرائيل، حينها، إلى الحرم القدسيّ الشريف، وهو ما أشعل الانتفاضة الثانية، انتفاضة الأقصى.

كانت السنة الأولى للانتفاضة صعبة جدًا لإسرائيل على الصعيد الدوليّ. صحيح أنّ رئيس الولايات المتّحدة، بيل كلينتون، أيّد موقف رئيس حكومة إسرائيل، إيهود باراك، أنّ المحادثات قد فشلت لسبب رفض الفلسطينيّين، لكنّ الرأي العامّ العالميّ، وطبعًا الجمهور التقدّميّ والراديكاليّ لنشطاء حقوق الإنسان، لم يقبل ذلك. بالإضافة إلى ذلك، إنّ نسب المصابين في الأشهر الأولى من الانتفاضة لم تكن تناسبية

لقد صبّ كلّ الوضع المركّب في مؤتمر الأمم المتّحدة ضدّ العنصرية الذي انعقد بعد سنة من اندلاع الانتفاضة، في نهاية آب وبداية أيلول ٢٠٠١ في ديربان بجنوب إفريقيا، والذي كان – بمعانٍ مختلفة – حدثًا مؤسّسًا ومهما لمواصلة صراع الروايات. لاقت إسرائيل في المؤتمر انتقادًا لاذعًا جدًا على أعمال الإخلال بحقوق الإنسان الخاصّة بالفلسطينيّين داخل إسرائيل وفي الأراضي المحتلّة.

إلى حدّ بعيد بين الجانبين، ولهذا اعتبر كثيرون في العالم الفلسطينيّين ضحية العنف، في حين أنّ إسرائيل اعتُبرت عاملًا عنيفًا ليس هناك ما يكبحه. كما أنّ صور محمّد الدرّة منذ بداية الانتفاضة، التي نُشرت في أنحاء العالم، والتي يُشاهد فيها الطفل ابن الثانية عشرة يُقتل على حاجز في قطاع غزّة، شكّلت مثالًا على ذلك. وفي داخل هذا السياق، اعتُبرت إسرائيل لدى أوساط كثيرة كدولة قومية رجعية وأصولية واقعة في حروبات لا نهاية لها، في احتلال وفي قهر حادّ لحقوق الفلسطينيّين. في حين أنّ الغضب الفلسطينيّ على عقود من الاحتلال وعلى سنوات أوسلو المحبطة، الذي اندلع بكامل قوّته في هذه السنوات، حظي بدعم أو بتفهّم على الأقلّ. إنّ عقد سنوات التسعينيات التي تمأسست فيها أفكار حقوق المواطن والإنسان، كما، أيضًا، الرواية الما بعد كولونيالية – ساهمت في ذلك مساهمة معتبرة.

مؤتمر ديربان ٢٠٠١

لقد صبّ كلّ الوضع المركّب في مؤتمر الأمم المتّحدة ضدّ العنصرية الذي انعقد بعد سنة من اندلاع الانتفاضة، في نهاية آب وبداية أيلول ٢٠٠١ في ديربان بجنوب إفريقيا، والذي كان – بمعانٍ مختلفة – حدثًا مؤسّسًا ومهما لمواصلة صراع الروايات. لاقت إسرائيل في المؤتمر انتقادًا لاذعًا جدًا على أعمال الإخلال بحقوق الإنسان الخاصّة بالفلسطينيّين داخل إسرائيل وفي الأراضي المحتلّة. وخلال المحادثات التمهيدية وفي المؤتمر نفسه، وكذلك في بعض مسوّدات قرارات التلخيص، اتُّهمت إسرائيل بممارسة سياسة تمييز عنصريّ وقد قورنت بنظام الفصل العنصريّ [الأپارتهايد]. كثيرون في جنوب إفرقيا ممّن قد تخلّصوا، توًّا، من نظام الفصل العنصريّ البغيض قد تماهَوا بقوّة كبيرة مع معاناة الفلسطينيّين، وقد كانت المظاهرات خارج قاعات المحادثات صاخبة. لقد شعر الفلسطينيّون بأنّ العالم يعترف بمعاناتهم وبروايتهم التاريخية. كان واضحًا أنّ جدول الأعمال الما بعد كولونياليّ قد فرض على المؤتمر جوّه وروحه! فالعبودية، مثلًا، تمّ الاعتراف بأنّها جريمة يجب تقديم الاعتذار عنها ويجب حتّى تعويض المتضرّرين منها. كما أنّ الصوت المكتوم لمتضرّري الكولونيالية والعنصرية الغربية أُسمِع بقوّة ولفت إليه الانتباه الذي يستحقّه. لكن في نهاية المطاف، وبضغط من إسرائيل، الولايات المتّحدة، أستراليا، والدول الأوروبية، تمّ اتّخاذ قرارات أكثر اعتدالًا بكثير. وبعد يوم آخر من المحادثات زيادة على ما كان مخطّطًا له، صدرت وثيقة اتّفاق اقترحتها جنوب إفريقيا، كانت في الموضوع الإسرائيليّ أكثر اعتدالًا بكثير من لغة الخطاب التي ميّزت محادثات المؤتمر. صحيح أنّ إسرائيل ذُكرت فيه، لكنّ الصهيونية لم تقارن بالعنصرية، حيث إنّ المؤتمر، فقط، قد «أعرب عن قلقه من ضائقة الشعب الفلسطينيّ الخاضع لاحتلال أجنبيّ». وقد ذُكرت مسألة اللاجئين، وقد نادى المؤتمر بتمكين اللاجئين من العودة إلى بيوتهم، لكن من دون أن يُذكر بوضوح أنّ الحديث هو عن اللاجئين الفلسطينيّين.[٨]

لكن بموازاة المنتدى الدبلوماسيّ عُقد في ديربان، أيضًا، منتدى جمعيّات (NGO) لنشطاء حقوق إنسان، شارك فيه نحو ٣٠٠٠ مشارك. وقد سيطر هناك – من دون أن تقيّد ذلك دول بالغة القوّة – الحوار اللا والما بعد كولونياليّ الخاصّ بالعالم الثالث، أو «جنوب العالم». وقد افتُتحت وثيقة تلخيص المنتدى بالتصريح بأنّ صوت ضحايا العنصرية، التمييز العرقيّ، كره

كانت بنود إعلان ديربان حادّة جدًا (لا سيّما لمسامع إسرائيلية ويهودية) بكل ما يتعلّق بإسرائيل المذكورة خمسًا وثلاثين مرّة في الوثيقة، والتي كُرّس لها ستّة عشر بندًا من أصل بنودها الـ ٤٧٣. وفي إطار هذه الوثيقة اللا كولونيالية حُكم على إسرائيل بأنّها دولة فصل عنصريّ [أپارتهايد] إجرامية، وضمن قائمة الدول المحتلة والمخلّة بحقوق الإنسان.

الأجانب، وممارسات تمييز ذات صلة، يجب أن يُسمع. وفعلًا، كانت هذه وثيقة عبّرت عن صوت كثيرين جدًا من مضطهدي الأرض. لقد تناولت بنود الوثيقة الـ ٤٧٣ الخاصّة بالمنتدى قائمة طويلة جدًا من المظالم – من العبودية ونتائجها، مرورًا باستغلال الأطفال والنساء، وحتّى شعوب كثيرة لا تزال ترزح تحت نير الاحتلال، مثل الشعب الكرديّ وشعب التبت. كما أنّ الوثيقة تطرّقت، أيضًا، إلى شعوب أخرى تعاني من الإقصاء، التمييز، والمطاردة ، من قبيل البوراكو (Buraku) في اليابان. وقد طالبت الوثيقة – ضمن أشياء أخرى – شعوبًا غربية وعربية كانت متورّطة بالاتّجار بالعبيد وقد اغتنوا منه بتعويض ذراري الضحايا؛ حتّى إنّ بعض البنود الحازمة نبذت اللاسامية وإنكار المحرقة اليهودية، بما في ذلك نزعات من التصحيحية التاريخية (التي تنكر المحرقة) ونادت إلى التربية والتثقيف وإلى أعمال أخرى لمواجهة اللاسامية (البنود ٤٥، ٧٧، ٧٨، ٢٤٧، ٢٤٨). وإنّه ليبدو أنّ هذه الوثيقة تلخّص عشرات السنوات من الفكر السياسيّ اللا والما بعد كولونياليّ التقدّميّ لا نظير له في جميع أرجاء العالم.

كانت بنود إعلان هذا المنتدى حادّة جدًا (لا سيّما لمسامع إسرائيلية ويهودية) بكل ما يتعلّق بإسرائيل المذكورة خمسًا وثلاثين مرّة في الوثيقة، والتي كُرّس لها ستّة عشر بندًا من أصل بنودها الـ ٤٧٣ ,[٩] وفي إطار هذه الوثيقة اللا كولونيالية حُكم على إسرائيل بأنّها دولة فصل عنصريّ [أپارتهايد] إجرامية، وضمن قائمة الدول المحتلة والمخلّة بحقوق الإنسان. اتُّهمت إسرائيل بالتطهير العرقيّ، بأعمال إبادة شعب [جنوسايد] (acts of genocide)، بارتكاب جرائم عنصرية ضدّ الإنسانية، بالإخلال بوثيقة جنيف وقرارات الأمم المتّحدة. وقد طولبت بإتاحة عودة اللاجئين الفلسطينيّين من العام ١٩٤٨، بإرجاع أملاكهم لهم، وبتعويضهم. وإنّ رفض إسرائيل القيام بذلك يزعزع الاستقرار في المنطقة، وقد شُحن العالم كلّه بهذا الإعلان. كما أنّ هناك بعض البنود الحادّة بشكل خاصّ المكرّسة، أيضًا، لسياسة إسرائيل في الأراضي المحتلة من عام ١٩٦٧. وفي إمكان البند ١٦٢ أن يعبّر عن روح الإعلان كلّه بالنسبة إلى إسرائيل:

We declare Israel as a racist, apartheid state in which Israel's brand of apartheid as a crime against humanity has been characterized by separation and segregation, dispossession, restricted land access, denationalization, ¨bantustanization¨ and inhumane acts.

لقد تكرّرت هذه المصطلحات مرّات عدّة في سياقات مختلفة على امتداد الوثيقة، وقد صبّت – في نهاية المطاف – في البندين ٤٢٤ و ٤٢٥ اللذين يناديان بفرض المقاطعة الشاملة والكاملة على إسرائيل، على شاكلة المقاطعة التي فُرضت على جنوب إفريقيا، وهما يدينان الدول التي لن تستجيب لهذا النداء.

لقد تبنّى هذا المنتدى الرواية الأخلاقية الفلسطينية الخاصّة بالصراع، باعتبارها ممزوجة داخل رواية وموروث لا كولونياليّين. لكن في الوقت نفسه، من الصعب تخيّل وثيقة دولية أكثر تفصيلًا تقف على طرف نقيض مع الطريقة التي يُنظر بها إلى إسرائيل من وجهة نظرها ومن وجهة نظر العالم الغربيّ، كجزء من رواية المحرقة العالمية – كدولة قد لا تكون كاملة لكنّها، أوّلًا وقبل أيّ شيء، بيت ضحايا المحرقة، وهي الردّ الأمثل على اللاسامية. في الصراع القائم بين رواية المحرقة اليهودية والرواية اللا والما بعد كولونيالية كان يبدو أنّ في مؤتمر ديربان سيخرج الأخير بالذات منتصرًا، وهو الذي أشار إلى الاتّجاه الذي يسير العالم كلّه إليه، بما فيه العالم الغربيّ – لا سيّما

في الرأي العامّ، لكن لربّما، أيضًا، في المؤسّسات السياسية والدبلوماسية. كان يبدو أنّه حتّى إذا لم يتبنّ العالم الغربيّ، إطلاقًا، هذا المفهوم لدولة إسرائيل كدولة كولونيالية، استيطانية، عنصرية، وإجرامية، فإنّه بعد تأسّس الرواية اللا والما بعد كولونيالية في سنوات التسعينيات، وتبنّي موروث حقوق المواطن، كان من الصعب عليه مقاومته بصورة ناجعة. لقد منحت هذه الرواية أساسًا نظريًّا، تاريخيًّا، وسياسيًّا، للطريقة التي تعامل بها الفلسطينيّون مع الصهيونية ودولة إسرائيل، وقد انعكس ذلك بصورة قاطعة في إعلان منتدى الجمعيات.

من الجدير بالذكر، طبعًا، أنّ الفلسطينيّين لم يحتاجوا إلى تأسّس حقل الدراسات الما بعد كولونيالية في الغرب لغرض فهم الصهيونية كحركة إمبريالية كولونيالية استيطانية. وقريبًا جدًّا من بدايتها أدرك ذلك مفكّرون، سياسيّون، صحافيّون، ووجهاء عرب. لكن حتّى كتاب إدوارد سعيد «الاستشراق» من عام ١٩٧٨ الذي ركّز على الشرق الأوسط بشكل خاصّ، وقرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة من عام ١٩٧٥ (الذي كان تعبيرًا واضحًا وصريحًا للحرب الباردة) الذي قارن الصهيونية بالعنصرية، لا يستطيع أن يؤسّس النضال الفلسطينيّ داخل حقل فكريّ وأخلاقيّ غربيّ واسع إلى هذا الحدّ وقويّ جدًّا، مثلما حدث خلال سنوات التسعينيات، حيث اعتُبر النضال اللا كولونياليّ الأخير في عالم ما بعد كولونياليّ. «الجارية» الما بعد كولونيالية ومعها الرواية الفلسطينية قد تغلغلتا – في هذه السنوات، عمليًّا – في قلب قصر «الملكة» الغربية.

كان يبدو – في هذه المرحلة – أنّ في مسألة إسرائيل – فلسطين تتعاظم الرواية الما بعد كولونيالية، ولربّما، أيضًا، سوف تنتصر على رواية المحرقة اليهودية واللاسامية. لقد شعر الفلسطينيّون أنّه داخل هذا الإطار المصطلحيّ قد أصبح العالم – أخيرًا – منصتًا إلى قصّتهم ومقدّرًا لكامل الغُبن التاريخيّ الذي مورس في حقّهم، لكنّ كثيرًا من الإسرائيليّين واليهود الذين كانوا حاضرين في ديربان قد اختبروا المؤتمر بصورة مغايرة تمامًا. لقد اختبروا المؤتمر كصدمة، وقد اعتبروه عرضًا متّقدًا من الكراهية اللا سامية. توم لنتوس، عضو الكونـــچغرس الديمقراطيّ اليهوديّ، الناجي من المحرقة في المجر، الذي كان محسوبًا في الولايات المتّحدة على النضال ضدّ اللاسامية ومن أجل حقوق المواطن والإنسان بشكل عامّ، صرّح، مثلًا، أنّ ذلك كان عرض الكراهية الأكثر إثارة للغثيان والأكثر لا خجلًا الذي رآه منذ المحرقة.[١٠] لقد انتاب هؤلاء اليهود هذا الشعور، ليس لسبب المضامين فقط، لا بل ليس أقلّ من ذلك لسبب النغمة، القوّة، والغضب، الذي انعكس في محادثات منتدى الجمعيات وفي الإعلان التلخيصيّ، وكذلك لسبب المظاهرات الصاخبة اللا إسرائيلية التي جرت خارج غرف المؤتمر. لقد فسّروا ذلك ككراهية يهود قديمة تنجح بصعوبة، فقط، في إخفاء ذاتها خلف غطاء شفّاف من العداء السياسيّ. وسيتّضح، لاحقًا، أنّ تلك كانت نقطة تحوّل في العلاقات بين الروايتين.

أنهى المؤتمر أعماله في ٨ أيلول ٢٠٠١. وبعد ذلك بثلاثة أيام وقعت أعمال التخريب الكبيرة في الولايات المتّحدة – في برجي التجارة العالمية، في وزارة الدفاع الأميركية [الـپـنتاغـون] وفي پـنسلـڤـينيا – وقد تغيّر العالم مرّة أخرى تغيّرًا تامًّا حتّى إنّه لم يعد من الممكن التعرّف إليه. وقد فاقمت سلسلة من الأحداث الدراماتيكية التي وقعت في العقدين التاليين التغيير: الحرب ضدّ الإرهاب التي أعلنها الرئيس بوش، واجتياح أفغانستان والعراق؛ الأعمال التخريبية الإرهابية في أوروبا (خصوصًا مدريد ٢٠٠٤ ولندن ٢٠٠٥)؛ الربيع العربيّ الذي تطوّر إلى حروب أهلية دامية في بعض الدول العربية، في حين أنّه انتهى في دول أخرى باعتلاء أنظمة سدّة الحكم هي أكثر دكتاتورية من تلك التي تمّ إسقاطها؛ نشوء داعش على مراسيم قطع الرؤوس التي بُثّت في جميع أنحاء العالم وأعمال التخريب الإرهابية الهائلة في أوروبا؛ موجات اللاجئين الكبيرة التي وصلت إلى أوروبا؛ عودة العصبية القومية واعتلاء أنظمة شعبوية في جميع أنحاء العالم؛ تحرّك الخارطة السياسية في العالم كلّه نحو اليمين؛ تحطّم اليسار الأيديولوجيّ في أوروبا كلّها، وزعزعة الاتّحاد الأوروبيّ. لقد أضعفت كلّ هذه الأحداث – بشكل دراماتيكيّ – المكانة الأخلاقية للرواية الما بعد كولونيالية ودرجة الالتزام بفكر حقوق الإنسان. في حين أنّ رواية المحرقة واللاسامية – في المقابل – لم تحظ بشرعية دولية استثنائية فقط، لا بل تمّ، تدريجيًّا، إهمال صيغة هذه الرواية التي تؤكّد على قيم شمولية خاصّة بحقوق الإنسان ومنع الجنوسايد، وذلك لصالح صيغة تؤكّد، أوّلًا وقبل أيّ شيء، على مشكلة اللاسامية، وترى إلى معارضة إسرائيل والصهيونية كتعبيرات خطيرة جدًّا للاسامية نفسها تجب مقاومتها. وفي أعقاب ذلك، نجد أنّ الشرعية الدولية للحكاية الفلسطينية – في المقابل – في أوروبا والولايات المتّحدة وفي دول كثيرة أخرى حول العالم (بما فيها الهند – الدولة الما بعد

لقد أضعفت مجموع من الأحداث – بشكل دراماتيكيّ – المكانة الأخلاقية للرواية الما بعد كولونيالية ودرجة الالتزام بفكر حقوق الإنسان. في حين أنّ رواية المحرقة واللاسامية – في المقابل – لم تحظ بشرعية دولية استثنائية فقط، لا بل تمّ، تدريجيًا، إهمال صيغة هذه الرواية التي تؤكّد على قيم شمولية خاصّة بحقوق الإنسان ومنع الجنوسايد، وذلك لصالح صيغة تؤكّد، أوّلًا وقبل أيّ شيء، على مشكلة اللاسامية، وترى إلى معارضة إسرائيل والصهيونية كتعبيرات خطيرة جدًا للاسامية نفسها تجب مقاومتها.

كولونيالية الأكبر) قد تزعزعت جدًّا.

لكن كانت هذه عملية طويلة لم تحدث بين عشية وضحاها.

وسنعود، إذًا، إلى مؤتمر ديربان الذي أصاب بالذهول كثيرًا من اليهود والإسرائيليين الذين حضروه، والذي أشار إلى الجوّ اللاإسرائيليّ في أوروبا وحتّى في أجزاء من الولايات المتّحدة، وخصوصًا في الجامعات في سنوات الانتفاضة التي جاءت بعده. فالكثير من بين هؤلاء الإسرائيليين واليهود كانوا مصرّين على الردّ على هذه الحرب بحرب حتّى أكثر ضراوة. وفي هذا السياق، مثلًا، أُنشئت منظمة NGO MONITOR التي سرعان ما أصبحت ذات تأثير كبير في مطاردة وكبت مقولات نقدية تجاه إسرائيل في العالم كلّه، والتي حدّدت أهدافها كما يلي:

NGO Monitor is an independent and nonpartisan research institute dedicated to promoting transparency and accountability of NGOs claiming human rights agendas, primarily in the context of the Arab-Israeli conflict. NGO Monitor is the leading source of information on political NGOs active in delegitimization campaign against Israel and the role of both government and private funders-enablers. It was founded following the 2001 UN World Conference Against Racism held in Durban, South Africa, where NGOs adopted a strategy of using the instruments and language of "human rights" and "international law" to isolate Israel and undermine its right to sovereign equality" (emphasis mine) [11].

هذا وإنّ الكثير من المنظمات والنشطاء اليهود وغير اليهود الذين سيتجنّدون، لاحقًا، لحرب شعواء ضدّ الـ BDS ولتصنيف النقد ضدّ إسرائيل وضدّ الصهيونية كـ لاساميّ، سيعتبرون مؤتمر ديربان نقطة تحوّل.

عام ٢٠٠٥ - مبادرات من الجانبين

السنة المصيرية التالية في المسار الذي أريد أن أرسمه هي سنة ٢٠٠٥. كانت هذه هي السنة التي انتهت فيها الانتفاضة الثانية، وقد أخرج رئيس حكومة إسرائيل، حينها، أريئيل شارون، إلى حيّز التنفيذ ما أسماه «خطّة الانفصال» عن قطاع غزّة، التي سرعان ما ستجعله السجن المفتوح الأكبر في العالم. ولكن هذه السنة – وليس بمجرد الصدفة – كانت، أيضًا، سنة مهمّة في تطوّر الصراع بين الروايتين. كانت هذه سنة أُطلقت فيها بعض المبادرات من الجانبين التي حاولت تأسيس الروايات نفسها لعمل سياسيّ فعّال.

فمن جهة تمّ إطلاق حملة الـ BDS التي هي استمرار مباشر لمؤتمر ديربان، والمبنية كلّها على أساس الرواية ولغة الخطاب اللا كولونيالية. وبشكل معلن حملة الـ BDS مبنية على أساس التجربة الجنوب إفريقية، حيث كانت حركة المقاطعة من العوامل التي اعتُبرت وكأنّها أدّت إلى إنهاء نظام الفصل العنصريّ [الأپارتهايد] فيها. وهذه الحملة التي بدأت بجني النجاحات خلال سنواتها الأولى قد أصبحت أحد أعداء دولة إسرائيل الأوائل في العقد الثاني من الألفية، وكما سنرى، لاحقًا، إنّها ستقف في مقدّمة النضال من أجل شرعية الرواية الفلسطينية في أوروبا والولايات المتّحدة. وكما هو معروف، امتنعت حملة الـ BDS عن ذكر الحلّ السياسيّ المرغوب فيه للنزاع – دولة واحدة، دولتان، أو حلّ ثنائيّ القومية. إنّها وضعت، فقط، ثلاثة أهداف تحظى بموافقة كاسحة لدى الغالبية المطلقة

من الفلسطينيّين – إنهاء الاحتلال في مناطق ١٩٦٧، منح فلسطينيّي العام ١٩٤٨ مساواة كاملة في الحقوق، وممارسة حقّ العودة. وإلى حين تحقّق هذه الأهداف الثلاثة نادت الحملة إلى مقاطعة دولة إسرائيل وإلى سحب الاستثمارات منها وإلى فرض عقوبات عليها.[١٢]

إنّ حملة الـ «بي دي إس» هي التعبير السياسيّ الواضح والصريح للرواية الفلسطينية الـ (ما بعد) كولونيالية، وقد بدأت تراكم تشجيعًا آخذًا في الازدياد لدى نشطاء تقدّميين – كثير منهم ينتمون إلى حركات سود ومختلطين – خصوصًا في حرم الجامعات في الولايات المتّحدة وفي إنكلترا، لكن، أيضًا، إلى حدّ ما، في بعض الدول الأوروبية الأخرى. لقد نُظر إليها كتعبير محقّ جدًا لنضال غير عنيف في إطار مواجهة غير متكافئة، تتفاوت فيها عناصر القوّة تفاوتًا كبيرًا. إنّ قرار-British University and College Union من عام ٢٠٠٧ بمقاطعة إسرائيل شكّل معلمًا لنجاح الحملة والرواية التي دفعت بها إلى الأمام، كما لتطوّر التفاعل ضدّهما.

لكن من جهة أخرى، وقعت في تلك السنة بعض الأحداث التي أسّست لرواية المحرقة واللاسامية بصلتها بالصهيونية وبدعم دولة إسرائيل. يبدو أنّ هذه كانت ذات قوّة وتأثير أكبر، لا سيّما في القواعد السياسية للدول الغربية وفي المؤسّسات الدولية.

عام ١٩٥٣ أقرّ الكنيست الإسرائيليّ قانون «ياد فشيم» ونصّ في كتاب القوانين مؤسّسة التخليد الوطنية للمحرقة اليهودية، التي أُسّست، عمليًا، في بداية سنوات الأربعينيات. وقد تطوّرت المؤسّسة تدريجيًا، لتصبح في سنوات السبعينيات مُتحفًا حقيقيًا. لكن في أعقاب تقادم المعرض وتزامنًا مع افتتاح متحف المحرقة اليهودية في واشنطن عام ١٩٩٣ الذي هدّد بتحويل مركز ثقل العمل في المحرقة اليهودية من إسرائيل إلى الولايات المتحدة، تقرّر هدم المتحف القديم وبناء آخر جديد مكانه. وفي آذار العام ٢٠٠٥ دُشّن المتحف الجديد. لكن بخلاف ما كان من الممكن توقّعه في حفل الافتتاح، لم يحضر مربّون، باحثون، ومثقّفون. كما لم يحضر ممثّلون لشعوب عانوا من أعمال إبادة شعب أخرى في أرجاء العالم. لكن حضر، أساسًا، سياسيّون رفيعو المستوى من العالم الغربيّ. وأحداث الافتتاح التي استمرّت يومين كانت من المناسبات الدبلوماسية والدولية الكبيرة التي أُقيمت مرّة في إسرئيل حتّى ذلك الحين. وقد شارك في حفل الافتتاح أكثر من ٣٥ وفدًا، أغلبهم من أوروبا ومن شمال أميركا، برئاسة رؤساء دول أو شخصيّات سياسية كبيرة، بمن فيهم كوفي عنان، الذي كان السكرتير العامّ للأمم المتحدة في تلك الفترة. يبدو أنّ العالم كلّه، أو 'العالم الغربيّ'، على الأقلّ، توصّل في «ياد فشيم» في لحظة استثنائية من الإجماع، إلى توافق حول وازع أخلاقيّ جديد يأمر: 'لا تنس ذكرى المحرقة'. ما من شكّ في أنّ وقوف المجتمع الدوليّ في «ياد فشيم» كان نتاجًا لعمليّات تجذّر رواية المحرقة اليهودية في الغرب كما بالرغبة في الوقوف إلى جانب حكومة إسرائيل في نهاية الانتفاضة وقُبيل الانفصال عن قطاع غزّة، الذي اعتبره المجتمع الدوليّ – في تلك الفترة – خطوة نحو السلام مع الفلسطينيّين.

وهناك حدث آخر وقع في ١ تشرين الثاني ٢٠٠٥، حيث اتُّخذ في الجمعية العامّة للأمم المتّحدة بالإجماع قرار بتأسيس ذاكرة المحرقة اليهودية على المستوى الدوليّ.[١٣] وقد أقرّ القرار – ضمن أشياء أخرى – يوم الـ ٢٧ من كانون الثاني، يوم تحرير أوشفيتس – معسكر الإبادة الأكبر الذي أقامه النازيّون – بيد السوفييت، كيوم المحرقة الدوليّ. وقد كان القرار مبادرة لوزارة الخارجية الإسرائيلية، والذي سرعان ما حظي بدعم نحو مائة وأربعين دولة. ومن خلال محاضرة «زووم» علنية أجراها روم آدم، من وزارة الخارجية، في صفحة الـ«فيسبوك» الخاصّة بوزارة الخارجية في ٢٧ كانون الثاني، يوم المحرقة الدوليّ ٢٠٢٠، أوضح، وهو نفسه ابن لناجين من المحرقة وعضو الوفد الإسرائيليّ إلى الأمم المتّحدة في تلك الفترة، الذي بادر إلى هذا القرار، من أجل وضع بديل للرواية الفلسطينية التي كانت – حسب ادّعائه – مهيمنة جدًا في مؤسّسات الأمم المتّحدة.[١٤] فكّر – في البداية – في إنشاء معرض ثابت عن المحرقة اليهودية، إلى جانب المعرض الفلسطينيّ الثابت الذي أُقيم في مبنى الأمم المتّحدة في نيويورك، لكن سرعان ما تطوّرت المبادرة إلى أن أصبحت قرارًا احتفاليًا للجمعية العامّة تمّ اتّخاذه بالإجماع. وبموجب ادّعاء آدم حظي الاقتراح بدعم كاسح لدى الغالبية الساحقة من دول الأمم المتّحدة. لكنّ الإجماع الكامل الخالي من المعارضات والاستثنائيّ تمّ تحصيله من خلال استغلال فرصة سياسية لرئيس الجمعية المناوب، الدبلوماسيّ السويديّ يان ألياسون. فهو كداعم واضح وصريح لإسرائيل طرح الاقتراح بحركة خاطفة للتصويت، وسأل بنصف فم عمّا إذا يوجد معارضون، وأغلق الجلسة بسرعة قبل أن يلحق المعارضون (الذين كانوا قلّة في جميع الأحوال) أن يصحوا من هول المفاجأة.

إنّ القرار نفسه لهو ذو طابع شموليّ جدًا. إنّه يذكر اليهود مرّة

واحدة فقط، ولا يذكر دولة إسرائيل إطلاقًا. وفي مقابل ذلك، تظهر كلمة «حقوق» (إنسان) فيه عشر مرّات، وهو يتطرّق بتوسّع إلى بنود مختلفة في إعلان حقوق الإنسان التابع إلى الأمم المتّحدة من عام ١٩٤٨ وإلى وثيقة الأمم المتّحدة ضدّ جريمة الجنوساید التي قُبلت هي، أيضًا، في العام نفسه. كما أنّ تعريف المحرقة واسع وشموليّ جدًّا، أيضًا: [T]he Holocaust, which resulted in the murder of one third of the Jewish people, along with countless members of other minorities, will forever be a warning to all people of the dangers of hatred, bigotry, racism and prejudice. حيث إنّ القرار – على ما يبدو – لا يخدم «الرواية الصهيونية» الخاصّة بالمحرقة اليهودية، التي أرادت دولة إسرائيل دفعها إلى الأمام. لا بل كنت لأقول عكس ذلك، تقريبًا – إنّه يخدم فكرة حقوق الإنسان والحرّيّات الكونيّة التي باسمها تلاقي إسرائيل انتقادًا لاذعًا. وفعلًا، أبدى الوفد الإسرائيليّ مرونة في شأن هذه الصيغ من أجل أن يكسب دعمًا كاسحًا لأعضاء الجمعية. لكنّه كان يعلم جيّدًا – هكذا يجب أن نخمّن – أنّ هذه التفاصيل الصغيرة – في نهاية المطاف – أقلّ أهمّية. وما سيرسخ في الوعي العالميّ هو يوم ذكرى المحرقة الدولية التي ترتبط بكارثة اليهود وبدولة إسرائيل، حتّى إذا لم يُقل ذلك بوضوح. كانت هذه – بدون أدنى شكّ – إستراتيجية إعلامية ناجحة جدًّا. ففعلًا يُحتفى بيوم المحرقة الدوليّ كلّ عام في جميع أنحاء العالم، وهو يُحسب بشكل مطلق، تقريبًا، على معاناة اليهود فقط، وفي حالات كثيرة جدًّا على دولة إسرائيل، أيضًا. وإنّ أفكار حقوق الإنسان التي يؤكّدها هذا القرار إلى حدّ بعيد تُقصى جانبًا عادة، وهي بالتأكيد غير مذكورة في أيّ سياق نقديّ ما لإسرائيل.[١٥]

تعريف اللاسامية وإخفاقاتها

لكن في سنة ٢٠٠٥ وقع، أيضًا، حادث ثالث، أقلّ احتفالية بكثير، هو، عمليًّا، مبتذل ومستهلك تمامًا، لكنّه تطوّر ليصبح، لاحقًا، ذا تأثير كبير على الحوار في موضوع إسرائيل – فلسطين، وعلى تمكين رواية المحرقة وإقصاء الرواية الفلسطينية اللا كولونيالية. وخلال السنتين ٢٠٠٣–٢٠٠٤ عمل بضعة أطقم من إسرائيل، الولايات المتحدة، ودول أخرى، ومن بينهم، أيضًا، باحثون مثل البروفسور يهودا باور والبروفسور دينا پورات، على صياغة تعريف للاسامية، يكون من الممكن من خلاله متابعة الظاهرة ومراقبتها. وقد قاد هذه العملية إلى حدّ كبير كنث سترن من اللجنة اليهودية الأميركية American Jewish Committee ومعه Andrew Baker اللذان نجحا في إقناع جسم مهمّ للاتّحاد الأوروبيّ بتبنّيها في نضالها ضدّ اللاسامية. في بداية سنة ٢٠٠٥ قبلت European Monitoring Centre on Racism and Xenophobia - EMCR (now subsumed in the European Union's Fundamental Rights Agency - EUFRA) التعريف كتعريف عمل لغرض جمع معطيات عن حجم الظاهرة، التي – حسب رأيهم – أخذت بالتوسّع في أوروبا وفي الولايات المتحدة، أيضًا. قبلت الـ EMCR التعريف، لكنّها لم تتبنّه بشكل رسميّ.[١٦] بل عكس ذلك هو الصحيح. كانت هناك جهات كثيرة انتقدت التعريف لأسباب عديدة، باعتباره غير دقيق ويشوبه النقص، وقد أُسقِط – في نهاية المطاف – من موقع الإنترنت الرسميّ لـ EMCR والجسم الذي حلّ محلّه، الـ EUFRA . ومع ذلك، فمن هنا فصاعدًا حظي التعريف بالحياة من تلقاء نفسه، وقد بدأت أجسام يهودية وكذلك جهات أكاديمية مصرّة بدفعه إلى الأمام، بينما هو يراكم مؤيّدين بالغي التأثير من داخل ومن خارج الأجهزة السياسية في أوروبا والولايات المتحدة. ففي عام ٢٠٠٩، مثلًا، تبنّت وزارة الخارجية الأميركية صيغة معيّنة للتعريف. ولكن – على حدّ قول كنث سترن، وهو من واضعي صيغة التعريف المركزيّين، والذي كان، أيضًا، واحدًا من الشخصيّات المهيمنة في نشره، التعريف الذي سُمّي (وهو يُسمّى كذلك حتّى اليوم) «تعريف عمل»Working definition لم يأتِ لأغراض التشريع أو التسوية الدولانيّة أو المؤسّسية (في الجامعات، مثلًا). لقد جاء، فقط لا غير، لأغراض جمع المعلومات (ولهذا السبب، عندما يتّضح أنّه يُستخدم كأداة شبه قانونية سيصبح – بعد مضيّ عقد، تقريبًا – أحد معارضيه المركزيّين). لكن لم يعتقد الجميع كذلك، وقد بدأ يُستخدام التعريف أكثر فأكثر في الحالات القانونية أو شبه القانونية ضدّ متحدّثين نقديّين عن إسرائيل وسياستها.

ورغم أنّ التعريف قد تغيّر على مرّ السنين إلّا أنّه ظلّ شبيهًا في جوهره.[١٧] لقد اشتمل في بدايته على تعريف ضبابيّ وعامّ للاسامية، وبعده قُدمت أمثلة لما يمكن اعتباره نشاطًا معاديًا للاسامية، حيث إنّ قسمًا كبيرًا منها – إن لم يكن أغلبها – يتطرّق إلى إسرائيل– أو إلى أي تطرّق نقديّ أو سلبيّ تجاه إسرائيل بدا وكأنه معاد للسامية. لقد وصل التعريف إلى نوع من القوننة عام ٢٠١٦، حيث إنّ جسمًا دوليًّا يُسمّىInternational Holocaust Remembrance Alliance (IHRA) قد تبنّاه،

إنّ تسلسل الأحداث الدراماتيكية للعقدين الأوّلين من الألفية الثالثة أدّى إلى حالة من العداء الآخذ في التفاقم تجاه العالم العربيّ والإسلاميّ، وجعلت العالم بأسره يجنح نحو اليمين. لقد تمّ تفضيل القيم القومية على القيم الكونيّة، وقد أصبح الحديث عن المحرقة اليهودية أداة مهمّة في تأسيس هذه النزعة.

وقام، عمليًا، بدعوة الدول الأعضاء في المنظمة إلى قبوله كأداة ناجعة في النضال ضدّ اللاسامية. هذا الجسم الذي أنشأه عام ١٩٩٨ رئيس الوزراء السويديّ حينها، وتمأسس عام ٢٠٠٠، هو أحد النتاجات الواضحة والصريحة لعولمة رواية المحرقة وتمأسسها السياسيّ على المستوى الدوليّ الأعلى. يضمّ هذا الجسم، اليوم، نحو أربع وثلاثين دولة غربية أعضاء (ومن ضمنها دول من شرق أوروبا، الأرجنتين، وإسرائيل) كما أنّ له تأثيرًا كبيرًا على أجسام السلطة في الدول نفسها. يمثّل هذه الدول موظّفو دولة كبار، وكذلك أكاديميّون كبار.[١٨]

وقد كان للتعريف تأثيره البالغ على الخطاب العالميّ في شأن إسرائيل – فلسطين، حيث إنّه يجعل – مثلما سنمثّل لذلك لاحقًا في الحال – من كلّ نقد جوهريّ موجّه ضدّ إسرائيل والصهيونية لاساميًا، وإنّه، عمليًا، يبرز – من خلال سبعة من بين الأمثلة الأحد عشر المصاحبة لتعريف الأساس – بعضًا من المركّبات الأساس للراوية الفلسطينية كلاسامية، وهو بذلك ينزع عنها شرعيّتها. يمكن أن نلاحظ فيه كيف أنّه يواجه بصورة مباشرة ومكشوفة، تقريبًا، الاتّهامات ضدّ إسرائيل والصهيونية التي صيغت في مؤتمر ديربان، والتي عكست جوّ نشطاء كثيرين في السنوات الأولى من سنوات الألفين. وكما سبق وذكرنا، إنّ تسلسل الأحداث الدراماتيكية للعقدين الأوّلين من الألفية الثالثة أدّى إلى حالة من العداء الآخذ في التفاقم تجاه العالم العربيّ والإسلاميّ، وجعلت العالم بأسره يجنح نحو اليمين. لقد تمّ تفضيل القيم القومية على القيم الكونيّة، وقد أصبح الحديث عن المحرقة اليهودية أداة مهمّة في تأسيس هذه النزعة. لقد تحوّلت المحرقة، تدريجيًا، من حدث يُستخدم للحديث عن حقوق الإنسان والنظام العالميّ الـ(نيو) ليبيراليّ لبداية سنوات الألفين (رغم أنّه لم يوجّه أمر كهذا ضدّ إسرائيل)، إلى حدث يخدم ذكره – إلى حدّ بعيد – أجندة قومجية، حتّى إنّها حادّة أحيانًا، استعراقية جدًا، تركّز على اليهود فقط، وليس على قيم كونيّة.

هيّا نتوجّه، إذًا، إلى تفاصيل التعريف، أو بوجه أصحّ إلى بعض من بين الأمثلة الأحد عشر الملحقة به، من أجل الوقوف على أضرارها. الأمثلة الأولى للتعريف شاملة جدًا، ومفهومة ضمنًا تقريبًا. هكذا، مثلًا، الدعوة إلى قتل اليهود أو التمييز ضدّهم، إلقاء المسؤولية على اليهود كلّهم، من جرّاء أعمال يرتكبها أفراد أو مجموعات، أو إنكار المحرقة – تُعتبر لاسامية. لكن، لاحقًا، تأتي الأمثلة الإشكالية. وفيما يلي واحد منها يحدّد أنّ الموقف التالي، أيضًا، هو لاساميّ:

Denying the Jewish people their right to self-determination, e.g., by claiming that the existence of a State of Israel is a racist endeavor.

لا يميّز المثال بين الاعتراف المبدأيّ بحقّ تقرير المصير لليهود وبين تحقيقه في فلسطين – أرض إسرائيل، التي سبق أنّها مأهولة بمجتمع أصلانيّ؛ أي بالفلسطينيّين. وبذلك، إنّه يجعل من النضال السياسيّ ضدّ مشروع كولونياليّ استيطانيّ نضالًا عنصريًا ولاساميًا. زيادة على ذلك، إنّ مجرّد الإعلان عن المشروع الكولونياليّ الاستيطانيّ ككذلك، جاء ليخدم مجموعة عرقية واحدة فقط، مفضّلة على تلك المجموعة الأصلانية، من الممكن أن يُعتبر كلاساميّ. وإنّ هذاالبند ليس نفيًا مطلقًا للإجماع الفلسطينيّ والعربيّ فقط، لا بل، أيضًا، نفي لمجرّد منطق وصلاحية الرواية اللا/الما بعد كولونيالية كلّها بالنسبة إلى إسرائيل – فلسطين. إنّه يبرزها، عمليًا، كلاسامية، حيث إنّها تواصل، ضمنيًا، فظائع المحرقة التي بنفاذها أخذ هذا الجسم – الـ IHRA – على عاتقه صلاحية أن يعرّف اللاسامية

هكذا. تصبح الضحية هي الجلّاد، واستمرارًا لقاتلي اليهود. وما يُعتبر شرعيًا وحتّى تحرّريًا بالنسبة إلى السود في جنوب إفريقيا مثلًا، يُعتبر كلاساميّ وعنصريّ بالنسبة إلى إسرائيل.

لكن أزيَد من ذلك، الادّعاء بأنّ هذه الدول وغيرها مبنيّة على أساس قاعدة من العنف العنصريّ وُجّه ولا يزال يُوجّه – بشكل شرعيّ تمامًا – تجاه دول هي نتاج كولونيالية استيطانية، مثل الولايات المتحدة، كندا، وأستراليا، وكذلك دول ليست كهذه، مثل فرنسا. إنّنا نشهد اليوم الطريقة التي تجعل بها حركة الـBlack Lives Matter مثلًا هذا الادّعاء مقبولًا على التيّار المركزيّ بالنسبة إلى الولايات المتحدة. فلماذا، إذًا، يُعتبر هذا الادّعاء بالنسبة إلى إسرائيل والصهيونية لاساميًا؟

هذا البند من التعريف، الذي يتناول – على ما يبدو – اللاسامية، يتدخّل، إذًا، بصورة فظّة في النضال الطويل الأمد في إسرائيل – فلسطين، ويفضّل رواية واحدة (الإسرائيلية) على رواية تاريخية أخرى (العربية). لكنّه، أيضًا، يحمل في طيّاته تناقضًا داخليًا. وإنّ الطريق الوحيدة لتبرير إنكار حقّ الشعب اليهوديّ في تقرير المصير كلاساميّ هو بافتراض أنّ هذا حقّا كونيًا منْعه عن اليهود هو بمثابة تمييز عنصريّ. ولكن إذا كان هذا، فعلًا، حقًا شموليًا فكيف يجب التعامل مع إنكار حقّ الفلسطينيّين في تقرير المصير؟ إنّ هذا الإنكار – على ما يبدو – كان يجب أن يكون معرّفًا كعنصرية أو كرُهاب إسلام [إسلاموفوبيا] بالقدر نفسه، لكنّ التعريف يصمت في هذا الشأن، حيث إنّ هذا الموقف يُعتبر كشرعيّ في إسرائيل، وكذلك في العالم كلّه. لكن بذلك يبتر التعريف الفرضية الأساس النظرية التي هو نفسه يستند إليها. وعمليًا، إنّ السياسة العملية لحكومات إسرائيل هي زعزعة هذا الحقّ الخاصّ بالفلسطينيّين من أساسه، حتّى إنّ جهات سياسية مهمّة في إسرائيل وخارجها تصرّح بذلك بوضوح.

إنّ العبث البادي للعيان هو أنّه على الرغم من هذه الحالة من عدم التوازن التي يعبّر عنها التعريف (في أمثلة أخرى أيضًا، ليس هذا هو المكان للوقوف عندها)، يهتمّ التعريف، أيضًا، بتقديم إسرائيل كضحية لخطاب كراهية مبالغ فيها. وهكذا يحدّد التعريف أنّ اللاسامية هي، أيضًا:

Applying double standards by requiring of it a behavior not expected or demanded of any other democratic nation.

يهود منحازون للضحية الفلسطينية.

هذا الادّعاء هو، طبعًا، عبثيّ من أيّ زاوية ننظر منها إليه. إنّه يقدّم إسرائيل كدولة ديمقراطية، كأنّه ليس هناك احتلال وليس هناك ضمّ، وكأنّه ليس هناك تحت سيطرة إسرائيل ملايين السكان المجرّدين من الحقوق. كما أنّ هذا المثال ينتج وصفًا كاذبًا كأنّ هناك سقفًا ثابتًا من النقد على الصعيد الشعبيّ والدوليّ، حيث إنّ اللاساميّين، فقط، يتجاوزونه. هل النقد الشعبيّ ضدّ جنوب إفريقيا في زمن نظام الفصل العنصريّ [الأپارتهايد] (التي كانت فيها، أيضًا، مؤسّسات ديمقراطية للبيض)، الولايات المتحدة في زمن حرب ڤيتنام وفي فترة ترامب، أو فرنسا في زمن حرب الاستقلال الجزائرية، وهلمّ جرًا، كان أقلّ حدّة من النقد الموجّه تجاه إسرائيل؟

الأمر الواضح هو أنّ التعريف يطبّع ويكرّس حالة الاحتلال والتمييز المتواصلة لإسرائيل ويجعلها مشكلة معقولة، حيث إنّ النقد الموجّه إليها يجب ألّا يكون «متطرّفًا» أكثر من اللازم؛ وبدلًا من الحكم على الانتقاد الحادّ ضدّ إسرائيل داخل سياق حركة تحرّر وطنيّ لاكولونيالية، يُحكم عليه من خلال رواية المحرقة واللاسامية كاستمرار لكراهية اليهود الطويلة الأمد. وبذلك يُنتج التعريف، طبعًا، تأثيرًا مخفّفًا غائبًا عن أيّ حوار سياسيّ نقديّ آخر، وهو يُكسب إسرائيل بذلك حقوقًا إضافية في جميع ما يتعلّق بكبت حقوق المواطن والإنسان التي لا تُعطى لدول أخرى على الصعيد الدوليّ. فإنّ كلّ من يريد انتقاد إسرائيل أو مهاجمة سياستها مطالب – قبل أيّ شيء – بإثبات أنّ انتقاده لا يتعدّى أيّ معيار دوليّ متخيّل. وهذا – بلا شكّ – فعّال! وإنّ لذلك ما لا حصر له من الأمثلة: محاضِرة في إنـچكلترا كتبت قائمة نقدية ضدّ إسرائيل في أعقاب زيارة إلى بيت لحم، طوردت

ستّ سنوات بعد ذلك، من قبل عضو برلمان محافظ، إلى أن اضطُرّت إلى الانتقال إلى جامعة أخرى. المنظمات التي تدعم الـ بي دي إس تجد صعوبة في العثور على أماكن لتقيم فيها مناسبات، وحساب البنك الخاصّ بمنظمة يهودية في ألمانيا تدعم الـ بي دي إس أُغلق بادّعاء أنّها لاسامية. يتراكم كلّ ذلك ليشكّل تأثيرًا مخفّفًا يؤدّي، أيضًا، إلى رقابة ذاتية حادّة. فمن ذا الذي سيرغب حتّى بالاقتراب من مناطق يمكن أن يُتّهم فيها باللاسامية – وهو اتهام يمكن أن يقضي على المستقبل المهنيّ لأيّ إنسان؟

لكن فيما هو أزيَد من ذلك، إنّنا نواجه هنا، مرّة أخرى، مشكلة جوهرية. اللاسامية في العصر الحديث هي، أوّلًا وقبل كلّ شيء، أشكال من العنف والعداء وجّهتها الدولة ومؤسّساتها أو وجّهها مجتمع الأغلبية تجاه اليهود كأقلّية. إنّ مقاومة اللاسامية جاءت لحماية اليهود من قوّة الأغلبية ومن قوّة الدولة. ولهذا السبب هناك فرق كبير يتجاهله التعريف كما تتجاهله بالمطلق علاقة رواية المحرقة واللاسامية الحكرية بدولة إسرائيل، بين معنى العداء تجاه اليهود كأبناء جالية أقلية فاقدة للقوّة السياسية أو العسكرية الذاتية، وبين العداء تجاه دولة – دولة إسرائيل – هي مؤسّسة بالغة القوّة ومحتكرة للعنف الموجّه بموجب إرادة الأغلبية اليهودية فيها. إنّ الحدّ من قوّة أيّ دولة – بما فيها إسرائيل – وانتقاد الطريقة التي تفعّل بها القوّة الكبيرة التي تمتلكها، لا يشبه العداء تجاه أفراد أو مجتمعات أقلية كهذه – وبضمنها اليهود خارج إسرائيل – الخاضعين بشكل اختياريّ لتعامل الدولة الاعتباطيّ أو للعنف من جانب مجتمع الأغلبية. وعليه، إنّ فكرة مقاومة اللاسامية تلزم حماية الأقلية ومعدومي الحقوق في إسرائيل من الدولة اليهودية، أكثر بكثير من حماية الدولة اليهودية من انتقادات وأقوال عدائية تجاه سياستها في تعاملها مع مجموعات الأقلية تلك ومسلوبي الحقوق.

لا أبغي الادّعاء أنّه ليس هناك عداء تجاه دولة إسرائيل هو نابع من دوافع لاسامية. كما أنّني أعترف بأنّ العداء السياسيّ تجاه إسرائيل يصبح، أحيانًا، كراهية متّقدة تجاه جميع اليهود، وأنّه، أحيانًا، يستخدم النضال ضدّ دولة إسرائيل والصهيونية بأوصاف أو بنصوص لاسامية، وهو بذلك يصبح بنفسه لاساميًا. إلّا أنّ تعريف الـIHRA لا يناقش هذه الحالات، لا بل يجري نزع شرعية عن مركّبات الرواية الفلسطينية اللاكولونيالية بتعريفه إيّاها كلاسامية وعنصرية، وهو بذلك يُحدث إرباكًا بين الضحية والجلّاد.

وصلت هذه البلبلة إلى وضع چـروتسكيّ فعلًا في النضال الذي لا يعرف المساومة الذي تديره دولة إسرائيل وشركاؤها ضدّ حركة الـ بي دي إس. ولهذا السبب، أُقيم في إسرائيل، كما سبق وذكرنا، مكتب استخباراتيّ كامل، حسب ما كشفت تحقيقات قناة الجزيرة باللغة الإنـكـليزية (بالنسبة إلى بريطانيا وبالنسبة إلى الولايات المتحدة)، يعمل على حدّ الخيط الرفيع، وحتّى فيما بعده، بين القانونيّ وغير القانونيّ في التدخّل في القضايا الداخلية لدول أجنبية وفي تعقّب مواطنيها الذين يُشتبه في أنّهم نشطاء بي دي إس. هذه المعركة معركة سياسية، شعبية، ودبلوماسية، وهي، حتّى الساعة، تحقّق النجاح. وهكذا في ألمانيا اتُّخذ في أيّار العام ٢٠١٩ قرار مبنيّ على أساس تعريف الـ IHRA الذي يعتبر حركة الـ بي دي إس لاسامية. حتّى إنّه قد تمّ في ألمانيا من سنة ٢٠١٧ تعيين مندوب اتّحاديّ [فدراليّ] خاصّ لمقاومة اللاسامية (فليكس كلاين) الذي قاد هذه العملية والذي يكرّس جهده بالأساس لمقاومة الـ بي دي إس وكلّ ما يُعتبر وفق روح تعريف الـ IHRA لاساميًا.

لقد ظهرت هذه البلبلة خلال النقاش الجماهيريّ الذي دار حول قرار البرلمان الألمانيّ. عندها جاء الادّعاء أنّه يجب ألّا يسمح الألمان بمقاطعة منتجات يهودية من إسرائيل على أرض ألمانيا، التي قاطع فيها النازيّون مصالح تجارية يهودية في سنوات الثلاثينيات. ولهذا، ادّعت تلك الجهات المنصفة أنّه يجب عليهم استنكار مثل هذه المقاطعة باعتبارها لاسامية ولا تمكن مسامحتها. إنّ البلبلة الحاصلة بين المقاطعة العنصرية والعنيفة لأقلية لا حول لها ولا قوّة وبين مقاطعة دولة عظمى إقليميًا تخلّ بالقانون الدوليّ بفظاظة، وعلى أساس عرقيّ، أيضًا، بحقوق قسم كبير من سكّانها، تصبح ممكنة حتّى إنّها تبدو طبيعية داخل رواية المحرقة اليهودية واللاسامية التي تبنّاها الغرب. وفي نهاية المطاف تمّ اتّخاذ القرار بدعم كاسح تقريبًا لكلّ أجزاء البوندستاج [المجلس التشريعيّ الاتّحاديّ] الألمانيّ. إنّ هذا القرار يعبّر عن جوّ غالبية القوى السياسية في ألمانيا والتي عبّرت عنها أنـغيلا مركل، التي ادّعت أنّه لسبب وِزر التاريخ الجاثم على ألمانيا فإنّ الحفاظ على أمن إسرائيل هو جزء من جوهر السياسة الخارجية الألمانية.[١٩]

وتم اتخاذ قرار ذي طابع شبيه بعد ذلك ببضعة أشهر في الجمهورية التشيكية التي ليس فيها حركة بي دي إس إطلاقًا. وفي كانون الأوّل من العام نفسه اتّخذت الجمعية الوطنية

الأمر الواضح هو أنّ التعريف يطبّع ويكرّس حالة الاحتلال والتمييز المتواصلة لإسرائيل ويجعلها مشكلة معقولة. حيث إنّ النقد الموجّه إليها يجب ألّا يكون «متطرّفًا» أكثر من اللازم؛ وبدلًا من الحكم على الانتقاد الحادّ ضدّ إسرائيل داخل سياق حركة تحرّر وطنيّ لاكولونيالية، يُحكم عليه من خلال رواية المحرقة واللاسامية كاستمرار لكراهية اليهود الطويلة الأمد.

الفرنسية قرارًا يتبنّى تعريف الـ IHRA (لكن بعد نضال شعبيّ – بدون الأمثلة)، وقد عرّفت بوضوح اللا صهيونية كشكل من أشكال اللاسامية. ومن أدرك معنى هذا الأمر كان يئير نتنياهو، نجل بنيامين نتنياهو وبوقه الفظ، وهكذا كتب في صبيحة اليوم التالي لاتّخاذ القرار: «هل تستوعبون أنّ البرلمان الفرنسيّ، عمليًا، قد أقرّ بأنّ أحمد طيبي، أيمن عودة، وكلّ القائمة المشتركة هم لا ساميّون؟»[٢٠] لقد أدرك نتنياهو الابن أنّ نتيجة رواية المحرقة ولاسامية الغرب، عمليًا، هي نزع كامل للهُوية الوطنية الفلسطينية.

على أيّ حال، إنّ نضالات بهذه الروح تحدث، أيضًا، في أماكن أخرى في أوروبا والولايات المتحدة. لقد اتُّهم حزب العمّال البريطانيّ باللاسامية خصوصًا على خلفية انتقاد لاذع وجّهه زعيمه جرمي كوربين لإسرائيل، وعلى خلفية تعابير مشجّعة أعرب عنها تجاه حماس وحزب الله. كان هذا أحد العوامل لسقوطه في انتخابات العام ٢٠١٩. وفي الولايات المتحدة تمّ استخدام تعريف الـ IHRA بالتدخّل المباشر لإدارة ترامب في جهاز التعليم العاليّ العامّ. يجدر التأكيد على أنّ جميع هذه التطوّرات تدفع بها دولة إسرائيل بعنف، لكنّها ليست وحدها في ذلك. يقف إلى جانبها، دائمًا، منظمات يهودية ومنظمات صهيونية غير يهودية، لكن، أيضًا، قوًى سياسية متنوّعة جدًا تتماهى مع هذه المواقف لأسباب فكرية. أوّلًا وقبل أيّ شيء المحافظون الذين يميلون إلى ذلك في كلّ مكان، لكن في أغلب الحالات اليسار المعتدل، أيضًا، وأحيانًا، أيضًا، فروع من اليسار الراديكاليّ. ومؤخّرًا، يميل اليمين الأصوليّ والشعبويّ أكثر فأكثر في أوروبا، الذي توجد له، في أحيان متقاربة، جذور نازيين جدد أو فاشيين جدد، والذي في محاولته إنكار هذه الصبغة وتبييض مواقفه العنصرية أصبح الداعم الأبرز لدولة إسرائيل. هكذا هي، مثلًا، حركة البديل لألمانيا AfD التي يستنكرها كلّ الطيف السياسيّ في ألمانيا، لكن تغازلها بحرارة أُطر يمينية إسرائيلية، وقد حظيت بمنصّة للتعبير عن مواقفها الموالية لإسرائيل والموالية للمستوطنين في قناة الإعلام الرئيسة لليمين الاستيطانيّ في إسرائيل – «القناة ٧». ويبدو أنّ معاداة العرب والإسلاموفوبيا الحادّة توحّد هذين المعسكرين.

كنت في السنة الأخيرة مشاركًا مع نشطاء إسرائيليين ويهود آخرين في عدّة نضالات منهكة ضدّ هذه النزعات، على جميع الصُّعُد الأوروبية. وكذلك في الولايات المتحدة وكندا توجد مجموعات تناضل ضدّ هذه النزعات. وإنّ إحدى هذه المجموعات ذات النجاحات اللافتة هي مجموعة نشطاء يهود كنديين Independent Jewish Voices نجحت في منع تبنّي تعريف الـ IHRA في عدّة مدن في كندا.[٢١] لكن بالمجمل، إنّ انتصار رواية المحرقة اليهودية واللاسامية بصيغتها الأوروبية المحافظة والإسرائيلية الوطنية يحظى بنجاحات مدوّية، وقد سيطر على السياسة الدولية والجدل الشعبيّ.

رواية المحرقة المحافظة والـ exceptional - شبه تلخيص

يشير انتصار رواية المحرقة اليهودية بصيغتها المحافظة والاحتكارية إلى الطريق الطويلة التي قطعتها رواية المحرقة اليهودية واللاسامية منذ سنوات الستينيات وحتّى أيّامنا. كانت هذه الرواية في بدايتها رواية يسار تمكّنيّ وتحرّريّ تبنّاها جيل سنوات الستينيات – أبناء مُحْدثي المحرقة والحرب العالمية الثانية في ألمانيا وفي بلاد أخرى – الذين

طالبوا أهاليهم بتقرير نقديّ عن الكوارث التي جاءوا بها إلى أوروبا وإلى العالم أجمع. انطلاقًا من هذا الوعي طالبوا بإصلاحات ديمقراطية تقدّمية جذرية. كان هذا جيلًا متمرّدًا حطّم الأساطير الوطنية وتبنّى المحرقة اليهودية كرواية مضادّة (counter narrative) نقدية ضدّ قيم البرجوازية الوطنية الأوروبية. لقد مال المركَز واليمين المحافظ بأغلبيتهما إلى معارضة ذلك بقوّة، لأنّهما اعتبرا هذا الوعي إهانة للأمّة وخيانة للوطن. كانت رواية المحرقة اليهودية واللاسامية في سنوات التسعينيات قد أصبحت ما يشبه الاتجاه السائد [المينستريم] للتيارات الما بعد قومية والنيو ليبرالية للاتحاد الأوروبيّ، الذي أقسم باسم هذه الرواية على أن يقدّس حقوق المواطن والإنسان. لكن من حينها أبدت الدول الأوروبية تسامحًا كبيرًا تجاه دولة إسرائيل وسياسة الاحتلال والاستيطان، لأنّها اعتُبرت وريثة ضحايا المحرقة.

وشيئًا فشيئًا، وبزخم أكبر، من سنوات الألفين، في أعقاب التطوّرات التي تطرّقنا إليها أعلاه، أصبحت هذه الرواية، أيضًا، جزءًا من الهُوية المحافظة، وأحيانًا حتّى جزءًا من الهُوية الشعبوية واللا ديمقراطية. بالنسبة إلى مجموعات اليمين السياسيّ حكاية المحرقة اليهودية هي حكاية أوروبية داخلية، ولهذا السبب، استثنائيًّا ليس من الضروريّ ربطها بحقوق مواطن وإنسان موسّعة. ضدّ ذلك هو الصحيح، ففي أحيان متقاربة تندمج مع قصّة وطنية لرُهاب الأجانب وشوفينية إسلاموفوبية تعارض الهجرة. وهكذا، مثلًا، بولندا والمجر، الدولتان ذواتا نظامي الحكم الأكثر شعبوية ولا ديمقراطية في الاتحاد الأوروبيّ، تخلّدان ذكرى المحرقة اليهودية لكنّهما تدّعيان – بخلاف أيّ معرفة تاريخية – أنّهما لم تكن لهما مساهمة في تنفيذها. إنّ ذلك يكفي إسرائيل الرسمية، لأنّ الجانبين يعتبر كلٌّ منهما الآخر حليفًا مخلصًا في نضالهما الإسلاموفوبيّ ضدّ المهاجرين من جهة، وضدّ الفلسطينيّين من جهة أخرى. وبهذا استُكمل بالنسبة إلى قطاعات واسعة في أوروبا تبييض اليهوديّ، الذي كان على مرّ أجيال الـ «لآخر» المثاليّ لأوروبا المسيحية. وهكذا، أيضًا، تحوّلت قصّة المحرقة اليهودية واللاسامية من حكاية نقدية تحرّرية – بالنسبة إلى قطاعات كبيرة في أوروبا وفي الغرب، على الأقلّ – إلى قصّة محافظة تندمج، أحيانًا، مع موروث قومجيّ إسلاموفوبيّ وكسنوفوبيّ [خاصّ برُهاب الأجانب].

ومع ذلك، يجب أن نذكر أنّه من المحتمل أنّنا موجودون الآن على شفير تغيير – وإن لم يكن دراماتيكيًّا – في موازين القوى.

إنّ هذا الصدام بين الروايتين وصل إلى نوع من الذروة، ولربّما، أيضًا، أدّى إلى تحوّل معيّن في ألمانيا في الجدل الشعبيّ الذي جرى هناك حول دعوة المفكّر الكاميرونيّ (الذي يعيش في جنوب إفريقيا) أشيل مبمبي Achille Mbembe إلى افتتاح مهرجان مهمّ في ألمانيا (روهر تريانله). في أيّار العام ٢٠٢٠ كشف فليكس دويتش، عضو حزب ثانويّ في الحزب الليبراليّ الألمانيّ FDP عن بضع جمل حادّة كتبها مبمبه عن إسرائيل في الكتاب المكرّس للنظرية السياسية النقدية. لقد عرّف مبمبه الاحتلال كإحدى الفضائح الكبرى في عصرنا. كما أنّه كتب أنّه على الرغم من الفروق الكبيرة بين الحدثين فإنّ نظام الفصل العنصريّ في جنوب إفريقيا والنازية موجودان – بمفاهيم معيّنة – على خط اصطلاحيّ واحد. وبنوع من العفوية الاستجابية [البافلوفية] اعتبر هذه التصريحات لاسامية وإهانة للمحرقة اليهودية، ودعا إلى إلغاء دعوة مبمبه. انضمّ إليه المندوب الفدراليّ لمحاربة اللاسامية، فليكس كلاين. وعلى الرغم من معارضته لمصطلح «ما بعد الاستعمارية» فإنّ مبمبه يُعتبر أحد الفلاسفة الأشهر والأكثر تقديرًا في العالم بهذا الموروث الفكريّ والسياسيّ. إنّ الدعوة إلى مقاطعته وتصنيفه كلاساميّ كانت بالنسبة إلى كثيرين نقطة تحوّل. وفي أعقاب ذلك، نشأ جدل علنيّ عندما – ولأوّل مرّة – وجدنا شخصيّات مينستريمية (تنتمي للتيار الرئيسي) من الأكاديميا، من الصحافة، ومن الثقافة (لكن – وبشكل بارز – ليس من السياسة) عبّروا عن رأيهم علنًا ضدّ خطاب اللاسامية الذي تحوّل من حوار تحرّريّ يدافع عن حقوق اليهود إلى حوار قهريّ واستبداديّ يقيّد حريّة التعبير، ويكتم أصواتًا مهمّة من العالم غير الأوروبيّ.[٢٢]

من الجدير بالذكر – في هذا السياق – أنّ هذه الأصوات النقدية، أيضًا، والتقدّمية في ألمانيا خصوصًا وفي أوروبا عمومًا لا تنفي قصّة المحرقة اليهودية واللاسامية. ضدّ ذلك هو الصحيح. إنّهم يعتبرونها حجر أساس لفكرهم التقدّميّ، كما يعتبرون إنكارها خطيئة عنصرية لا تُغتفر. ومن خلال ذلك أيضًا، نجد أنّ شرعية دولة إسرائيل والالتزام تجاه بقائها مطلقان. إنّه إجماع يشمل كلّ الطيف السياسيّ عدا هوامش متطرّفة جدًا في اليمين واليسار. إلّا أنّ هذا القوى التقدّمية تبحث، الآن، عن طريق لتدمج – من جديد – بين هاتين الروايتين

بشكل عامّ، وأيضًا في سياق إسرائيل – فلسطين، ومن خلال ذلك، أيضًا، تطالب بفتح الحوار على حلول سياسية لدولة واحدة أو حلول ثنائية القومية.

تصل، أيضًا، أصوات مشجّعة من المحاكم في أوروبا. فثلاث محاكم في ألمانيا قد قضت بأنّه يُحظر على البلديّات التمييز ضدّ مجموعات على خلفية دعم الـ بي دي إس (مثلًا، بتخصيص قاعة عامّة للاجتماع). كما أنّ المحكمة لحقوق الإنسان التابعة إلى الاتحاد الأوروبيّ قضت قبل بضعة أيّام، في ١١ حَزيران ٢٠٢٠ بأنّه يُمنع تقييد حرّية تعبير داعمي الـ بي دي إس، ويُحظر منع الدعوة إلى مقاطعة إسرائيل، طالما أنّها موجّهة كانتقاد لدولة إسرائيل ولسياستها – وذلك بخلاف ما قضت به محكمة فرنسية.

إجراءات مشابهة ولربّما حتّى أقوى تحدث في الولايات المتحدة، أيضًا. لقد أعادت حركة Black Lives Matter في الولايات المتحدة وفي العالم كلّه الرواية اللاكولونيالية واللاعنصرية إلى مقدّمة المسرح. من الممكن أن يغيّر صعود السياسة الأصولية في الولايات المتحدة وتأسّس احتجاج السود موازين القوى بين الروايتين، وأن يمنح شرعية متجدّدة على الصعيد السياسيّ، أيضًا (وليس على الصعيد الأكاديميّ والنشاطيّ، فقط) للرواية الما بعد كولونيالية، والتي تحظى في إطارها الرواية الفلسطينية والقضايا التي تحملها معها برنين وتصديق.

أنا عن نفسي، فإنّني أعتقد أنّ رواية المحرقة اليهودية كما الرواية اللا / الما بعد كولونيالية هما روايتان تاريخيّتان، حيث إنّ هناك واجبًا أخلاقيًّا للاعتراف بهما وتبنّيهما. إنّهما تشيران إلى الأسس الكارثية للثقافة الغربية الحديثة، ولكونهما كذلك ففي كلّ منهما توجد، أيضًا، قدرة تحرّرية أصولية كامنة. هكذا، أيضًا، في السياق الإسرائيليّ – الفلسطينيّ. إنّ تبنّي هاتين الروايتين معًا في سياق إسرائيل – فلسطين صعب جدًا حقًّا، لكنّه ضروريّ، سواء أكان ذلك من ناحية أخلاقية أم من ناحية سياسية. إنّه يعطي أملًا لمصالحة تاريخية، حيث إنّه يقود – حسب فهمي – إلى التفكير بطريقة ثنائية القومية وتكافؤية تمامًا في النزاع، وكذلك في حلّه. لقد أعربت عن موقفي بالاشتراك مع المفكّر الفلسطينيّ بشير بشير، في عدّة نشرات، ومن ضمنها الكتاب الذي حرّرناه معًا وعُنوانه: The Holocaust and the Nakba: A New Grammar of Trauma and History[23] رغم مخاوفنا قوبل الكتاب في أوساط واسعة في الولايات المتحدة وفي أوروبا باهتمام كبير. وإنّ ذلك، أيضًا، يعبّر – في رأيي – عن تغيّر معيّن.

صحيح أنّ هذه التغييرات تعطينا أملًا، لكنّ النضال بعيد جدًا عن نهايته. الضدّ هو الصحيح. لا تزال رواية المحرقة اليهودية واللاسامية في سياق إسرائيل – فلسطين، بصيغتها المحافظة هي المهيمنة في المؤسسات السياسية والشعبية في أوروبا. إنّ أجهزة بأكملها في الدول الأوروبية، في الاتحاد الأوروبيّ، وكذلك في الولايات المتحدة، وكذلك في دول أخرى، تريد الحفاظ على هيمنتها. إنّ النضال ضدّها مركّب ومعقّد جدًا، وتجب إدارته بحكمة وذكاء. لكن، أيضًا، يجب فهم معناها ومضمونها الواحد والوحيد من وجهة نظر حكومات إسرائيل في العقد الأخير، بقيادة بنيامين نتنياهو، التي تدفع بها إلى الأمام بلا كلل ولا ملل (لكن ليس بالضرورة من وجهة نظر كلّ مؤيّديها في أوروبا والولايات المتحدة): إنّه – في نظري – جزء من جهد منسّق، معلوم، ومتعدّد الاتجاهات، أصرّ عليه، مثلًا، إيلان پاپه في سياق آخر،[24] من أجل إخضاع الحركة الوطنية الفلسطينية بشكل نهائيّ، نزع شرعية روايتها التاريخية، وفي أعقاب ذلك، أيضًا، شرعيّتها الدولية. إنّها محاولة لإنهاء الصراع ليس باتّفاق ومصالحة تاريخيّين يؤدّيان إلى نزع كولونيالية المحتلّ [الفاعل] والمحتلّ [المفعول] على حدّ السواء، لا بل بإخضاع الجانب الفلسطينيّ بالكامل، وبتعميق كارثيّ لعمليّات كولونيالية فلسطين – أرض إسرائيل.

ترجمه من العبرية: أسعد عودة

الهوامش

1. Charles S. Maier, "Consigning the Twentieth Century to History: Alternative Narratives for the Modern Era," *American Historical Review* 165, no. 3 (June 2000), 807-831
2. Michael Rothberg, *Multidirectional Memory* Stanford: Stanford University Press 2009.
3. Omar Kamil, *Der Holocaust im Arabischen Gedächtnis: Eine Diskursgeschichte 1945-1967* (Göttingen: Vandenhoeck and Ruprecht, 2012) عن سارتر ص. ٨٧-١٢٦
4. Patrick Wolfe, "Settler Colonialism and the Elimination of the Native," *Journal of Genocide Research* 8, no. 4 (2006): 387-409
5. Tony Judt, *Postwar: a history of Europe since 1945* (New York: Penguin Press, 2005)
6. Alon Confino, *Foundational Pasts: The Holocaust as Historical Understanding*, (New York: Cambridge University Press, 2012)
7. Daniel Levy and Natan Sznaider, *The Holocaust and memory in the global age* (Philadelphia: Temple University Press, 2006)
8. https://www.haaretz.co.il/misc/1.1558794
9. http://humanrightsvoices.org/assets/attachments/documents/durban_ngo_declaration_2001.pdf
10. Tom Lantos, "The Durban Debacle: An Insider's View of the World Racism Conference at Durban", *The Fletcher Forum of World Affairs*, Winter Spring 2002, p. 16
11. https://www.ngo-monitor.org/about/faqs/
12. https://bdsmovement.net/
13. https://www.un.org/en/holocaustremembrance/docs/res607.shtml

١٤. التسجيل موجود لديّ.

١٥. قد يكون الشاذّ الوحيد هو أقوال الجنرال يائير چغولان في يوم المحرقة الإسرائيليّ (ليس الدوليّ) https://www.haaretz.com/israel-news/idf-general-likens-trends-in-israeli-society-to-pre-holocaust-germany-1.5379620

١٦. لوصف عملية تطوّر التعريف انظروا: https://electronicintifada.net/content/israel-lobby-uses-discredited-anti-semitism-definition-muzzle-debate/11716 وكذلك انظروا شهادة كنث سترن أمام اللجنة القضائية لمجلس النوّاب الأميركيّ، يوم ٧ تشرين الثاني 2017https://docs.house.gov/meetings/JU/JU00/20171107/106610/HHRG-115-JU00-Wstate-SternK-20171107.pdf

١٧. صيغة أوّلية للتعريف من عام ٢٠٠٥ انظروا هنا: https://www.antisem.eu/projects/eumc-working-definition-of-antisemitism/ صيغة مختلفة بعض الشيء استخدمتها وزارة الخارجية الأميركية، انظروا https://2009-2017.state.gov/documents/organization/156684.pdf

18. https://www.holocaustremembrance.c.om/

١٩. انظروا خطابها في الكنيست في ١٨ آذار ٢٠٠٨. https://www.knesset.gov.il/description/eng/doc/speech_merkel_2008_eng.pdf

٢٠. مقتبس في مقال كارولينا لندسمان في «هآرتس» - «فلسطينيّ = لاساميّ». https://www.haaretz.co.il/opinions/premium-1.8227012

21. https://www.noihra.ca/

٢٢ أنا محسوب على مجموعة نشطاء بادرت إلى رسالة علنية وقّعها ٣٧ يهوديًّا معروفًا، كثير منهم إسرائيليّون، نادت - في أعقاب ذلك - إلى إقالة فليكس كلاين. وقد أشعلت هذه الرسالة إلى حدّ كبير النقاش في ألمانيا. https://www.scribd.com/document/459345514/Call-on-German-Minister-Seehofer

23. Bashir Bashir and Amos Goldberg (eds.), *The Holocaust and the Nakba: A New Grammar of Trauma and History*, (New Haven: Columbia University Press, 2019).
24. https://www.youtube.com/watch?v=aa75QeS1xaQ&feature=youtu.be

أبراهام بورغ *

هو، أنا والآخر

(ملاحظة من هيئة التحرير: يعبر هذا المقال، مثل غيره من المقالات، عن وجهة نظر صاحبه، ولا يعكس موقف دورية «قضايا إسرائيلية». وعلى الرغم من عدم اتفاقنا مع العديد من الآراء والمصطلحات والتوصيفات الواردة فيه، ارتأينا نشره لأهميته وفرادته النقدية في سياق التناول الإسرائيلي (اليهودي) لموضوع معاداة الساميّة.)

عندما أوقف فيروس كورونا سير العالم وحاز على قوّته الهائلة، وكُبحت سرعة الحياة أكثر مما يكون نتيجة الحروب أو الكوارث الطبيعيّة، انكشفنا على تناقضات تشكّل حياتنا. فجأة، سنحت لنا إمكانية التأمّل في الحقائق، والتشكيك بالأمور المتفق عليها ومتابعة أنماط تحمّل المسؤوليّة بأشكال لم يشهدها الماضي، خصوصًا في فترات الأوبئة والحروب الكبرى. هناك قيادات– وعلى أثرهم هناك مجتمعات– تتحمّل المسؤولية وتتصرّف بشكل مناسب. وهناك آخرون يبحثون عن مذنبين، وأمثالهم كثر، فالجميع مذنب ما عداهم. وهنالك المشتبه بهم الدائمون. بدأ ذلك مع الصينيّين، الذي يبدو أنّ أحدهم فعلًا هو من سبّب كلّ هذا الوباء. ثم استمر الأمر بتهم مختلفة وجّهها رجال دين نسبوا الوباء لغضب الله على مسيرات الفخر، واللباس غير المحتشم للنساء، والكفر، والعلمنة، والغرور التكنولوجيّ، وما إلى ذلك. كالعادة، وجِّهت أيضًا اتهامات لليهود. هذا ما يحدث في زمن الأوبئة العالميّة. في ذروة تفشّي وباء «الطاعون الأسود» في أوروبا في القرن الرابع عشر اتُّهِم اليهود بتسميم آبار المياه في المدن الموبوءة.

* كاتب وسياسي إسرائيلي، شغل في السابق منصب رئيس الكنيست الـ ٥١، ورئيس الوكالة اليهودية.

ويبدو أنّ أجدادنا أعلنوا عن حرب بيولوجيّة، غارقة في القدم، ضدّ كلّ من يحيط بهم بسبب كراهيتهم العمياء للمسيحيّين. عند الضيق، يبحث الناس عن كبش فداء.[1] ثمّة شيء مخيف في الآخر المختلف، شيء مظلم، غامض وغير مفهوم. ويمكن، على أي حال، نسب صفات سحر وشعوذة له، وشرح ما لا يمكن شرحه بشكل عقلانيّ من خلالها. عالمنا مجنون للغاية، وهل هناك شيء «منطقيّ» أكثر من اتهام المختلف الأبديّ: اليهوديّ؟

اللاساميّة

هناك لاسامية في العالم! يبدو لي أحيانًا أنّه طالما هناك يهود في العالم ستكون هناك كراهية لليهود أيضًا. بل ربما لا حاجة لأن يكون هناك يهود كي يكرهونا. هناك أماكن لا يوجد فيها يهود بالمرّة لكن فيها كراهية فعليّة لليهود، بمثابة «كراهية غير مبرّرة».[2] إنّها أيديولوجيّة فيها كلّ شيء تقريبًا: إنّها قديمة وجديدة، من اليمين ومن اليسار، دينيّة وسياسيّة، شخصيّة وتنظيميّة، باردة في كراهيتها، مشتعلة وغرائزيّة في أفعالها. تجاهلها إنكار واقع مَرَضيّ، هروب غير صحيّ مثله مثل الإدمان عليها. ومن جهة أخرى، تبدو محاربتها بالوسائل اليهوديّة المعاصرة أمرًا غير ناجع بالمرّة.[3] اللاسامية اليوم هي دمج لأربعة مصادر: اللاساميّة الكنسيّة القديمة، النقد الحاد على إسرائيل من جهة اليسار، والذي يتوسّع ليطال شكوكًا بكل اليهود لكونهم يهودا، وشيطنةٌ جذورها في العالم المسلم الذي تطرّف ووكلاؤها موجودون في المراكز الأوروبيّة الكبيرة وذات الأهمية. وهناك اللاساميّة الجديدة من ناحية اليمين وأساسها الرغبة في تطهير المجتمع من كل ما هو ليس «هم» (وطنيّون ألمان وهم ليسوا سوى نازيين جدد، هنغاريا للهنغاريين، التفوّق الأبيض في الولايات المتحدة وغيرها).

الحديث عن اللاساميّة

يتكوّن الحديث عن اللاساميّة من ثلاثة أزمنة في الوقت ذاته. أحداث من الماضي لم تتغيّر بعد: دينيّة وعنصريّة، مهاجمة اليهود بسبب شكلهم الخارجيّ وطرق حياتهم المختلفة والانعزاليّة. إلى جانبها تُزهر ظواهر جديدة لم نشهدها في السابق، من بينها الصهر بين انتقاد دولة إسرائيل وأعمالها وشيطنة اليهود لكونهم يهودا. بالإضافة إلى ذلك، نشهد أجزاءً من عصر ما بعد اللاساميّة. ما بعد لاساميّة تمكّن شخصًا مثل بيرني ساندرز أن يكون مرشّحًا شرعيًّا لرئاسة الولايات المتحدة بحيث لا تكون يهوديته موضوعًا أصلًا، مثل ابنة وصهر الرئيس الحالي.

نحن واللاساميّة

من الصعب علينا، نحن الإسرائيليّين اليهود، فهم اللاساميّة. ليست هناك دائرة لاساميّة كلاسيكيّة في أيّ من دوائر حياتنا الشخصيّة والفوريّة. حياتنا عادية إلى حد بعيد: نعمل، نقضي وقتًا ممتعًا، نتبرع ونشارك. لا نرى في أنفسنا الشيطان الرجيم الذي ينسبنا اللاساميّ إليه. وعمومًا، نقرأ عن جرائم الكراهية، ونعرّف عن مظاهر العنف وملاحقة اليهود، لكنّ قليلين من بيننا من تعرّضوا لها على المستوى الشخصيّ. لدينا أسس من الصداقة حتّى في أصعب أنواع الخصومة السياسيّة. النتيجة هي أنّه لا يوجد أحد من حولنا يعرّفنا من الخارج. ومثلنا أغلب أصدقائنا ومقرّبينا. ومع ذلك، جزء كبير من الهويّة اليهوديّة للكثيرين منّا مبني على العلاقات المَرَضيّة، غير الصحيّة، بين اليهوديّ وال«جوي»؛ أي غير اليهوديّ. وللدقة، اللاساميّ واللاساميّة هما جزء جوهريّ من التعريفات اليهوديّة، هذا شعور راسخ وموغل في القدم، يسبق بكثير أجيال الرفاه، التي حظيت بها غالبية اليهود المعاصرين.

بعض أنواع الكارهين

لدينا كارهون حقيقيّون، مثلنا مثل الآخرين. إنهم موجودون، مزعجون بل مدمّرون أحيانًا، لكنّهم هامشيّون وغير مهمين. الكارهون المُخترَعون هم أولئك الذين يستخدمهم قادة إسرائيل صباح مساء لصيانة منظومة المخاوف اليهوديّة الطبيعيّة والاستمرار في السيطرة بواسطتها. أما المُتخيَّلون فهم أولئك الذين يخزنهم الناس في وعيهم ولاوعيهم مثلما صُمّموا وشُكّلوا على مدى سنوات يهوديّة طويلة. تقول الأغنية الإسرائيليّة المتفائلة: «لكنّنا اجترنا فرعون وسنجتاز هذا أيضًا».[4] هناك دائمًا في الخلفية فرعون ما أو ظالم ما، ظِلّ حاضر لا يمكن الانفصال عنه. لديهم صورة قاتمة عن العالم الذي ليس هم: «كلّ الأغيار»، «كلّ العرب» والذي يتلخّص في أغنية شعبيّة أخرى « العالم كله ضدنا».[5] عندنا تزيل للحظة– من خيالك– كلّ هذا العداء، تشعر بالضغط. لأنّه في عالم مثاليّ كهذا، حيث يعيش اليهود جميعهم حياة هانئة نسبيًا مثل أغلب مواطني العالم

«لدينا كارهون حقيقيّون، مثلنا مثل الآخرين. إنهم موجودون، مزعجون بل مدمّرون أحيانًا، لكنّهم هامشيّون وغير مهمين. الكارهون المُخترَعون هم أولئك الذين يستخدمهم قادة إسرائيل صباح مساء لصيانة منظومة المخاوف اليهوديّة الطبيعيّة والاستمرار في السيطرة بواسطتها. أما المُتخيَّلون فهم أولئك الذين يخزنهم الناس في وعيهم ولاوعيهم مثلما صُمّموا وشُكّلوا على مدى سنوات يهوديّة طويلة.»

الحرّ، لن يكون عندك جواب إن كان بإمكان الشعب اليهوديّ أن يعيش من دون عدو خارجيّ؟

إرث المخاوف

في الحقيقة، يجب الاعتراف أنّ لحظات قليلة فقط في التاريخ اليهوديّ–الإسرائيليّ كانت لحظات أمل ونور. كانت إقامة الدولة في عام ١٩٤٨ مصدر سعادة كبيرة لليهود ومأساة رهيبة للفلسطينيّين. حوّل الانتصار الكاسح في عام ١٩٦٧ اليهوديّ الإسرائيليّ إلى مغرور وحوّل الجار العربيّ إلى مصدوم (على الأقل)، واقترحت مبادرة السلام المفاجئة للرئيس السادات واتفاقيات أوسلو، التي فاجأت بولادتها، توازنًا جديدًا بين الأطراف، وخلقت جوًّا من البهجة شبه الخلاصيّة...هذا كلّ ما في الأمر تقريبًا. لم نتعلّم كيف نقدّر هذا الروتين بل ونحتفل به، ولم نطوِّر لغة رجاحة العقل، وبدا أنّ السويّة غريبة عنا. لم نقم بعد بالانتقال النفسيّ الكامل من الشتات إلى المركزيّة، من المنفى إلى السيادة ومن تاريخ المخاوف والملاحقة إلى سياسة منح الثقة والثقة بالنفس. يستغل قادتنا، الكلبيون (المُرتابون بسخرية من الآخرين Cynical) مثل الكثير من القيادات السياسيّة على مرّ الزمن، نقطة الضعف الجماعيّة هذه من أجل ذاتهم ومن أجل تخليدهم.

الكثير من قادة إسرائيل– منذ إقامتها حتّى اليوم– هم تلاميذ مخلصّون وتطبيقيّون لنيكولو مكيافيلي ونظريته بالنسبة لهم: «أَضْمن أن تكون مرعبًا من أن تكون محبوبًا».[٦] قلائل منهم، لأسفهم الشديد، يُذكرون كمحبوبين. لم يسعَ أحد منهم بشعبويّة خلف حبّ الجمهور وإعجابه. ولم ينالوا الحب.[٧] لكنّ إرث المخاوف والتخويف المتراكم الذي خلفوه أبقى ندبات عميقة في نفسيّة الأمّة الإسرائيليّة. الذنب في أننا لم ننل بعد حياة «السلام والطمأنينة والهدوء والأمن»[٨] ليس فقط بسبب الحيّ الذي نسكن فيه. يتم تصميم جزء كبير من الحياة اليوميّة الإسرائيليّة بحسب مبنى الشخصيّة ورؤية الكثير من قادة الدولة السابقين والحاليّين. حوّل إرثهم المتراكم الصدمة إلى إستراتيجيّة قوميّة متواصلة، وأصبحت الثقة بالجيران أو بكل أمم العالم بمثابة كماليات لا نقبل بها لأنفسنا بالمرّة. بهذا المعنى، ليست الإسرائيليّة الجديدة سوى استمرار مضخّم ومبالغ فيه لليهوديّة القديمة التي سعينا، كإسرائيليّين، لاستبدالها إلى أبد الآبدين. ما زال العدو هو الذي يعرّف اليهوديّ الإسرائيليّ ويهوديّة إسرائيل. ونحن بعيدون عن أن نكون «شعبًا حرًّا في بلاده».[٩]

هم أيضًا...

من جهة أخرى، في العالم الخارجيّ ما زال هناك (مجدّدًا) قادة وحركات ما زالت الوصفة القديمة «اضرب اليهود وانقذ حكمك» تُسدي لهم خدمة بشكل رائع. لهذا السبب يحرّض نتنياهو ضد العرب، وأوربان في هنغاريا ضد جورج سوروس، ويغازل الرئيس ترامب المتطرفين والعنصريّين الموجودين في مختلف خزانات أميركا السيئة. أحزاب عنصريّة وشعوبيّة ترفع رأسها وتحصل على دعم وتأثير هائلين في كلّ أنحاء العالم، حيث يوجد في نواة وجودهم نواة مشعّة بديهيّة لرفض اليهود، «مثل زمان». لا نرى ذلك دائمًا تحت طبقات نفاق السياسة في زمننا. لكنّها هناك.

لطالما يلبس كارهو اليهود قناع الصداقة. ليس لأنّهم وقعوا في حبّنا فجأة. بل لأنهم يريدون تخويلًا منّا لكي يكرهوا شخصًا آخر. إنّهم يحبّون اليهود لكي يكرهوا المسلمين. «فيلوساميّون» جدد في خدمة الإسلاموفوبيا. وللأسف، يقع الكثير من الإسرائيليّين واليهود في هذا الفخ الموقوت.

لطالما يلبس كارهو اليهود قناع الصداقة. ليس لأنّهم وقعوا في حبّنا فجأة. بل لأنهم يريدون تخويلًا منّا لكي يكرهوا شخصًا آخر. إنّهم يحبّون اليهود لكي يكرهوا المسلمين. «فيلوساميّون» جدد في خدمة الإسلاموفوبيا. وللأسف، يقع الكثير من الإسرائيليّين واليهود في هذا الفخ الموقوت، من دون فهم أنّ كراهية الآخر، كلّ آخر، هي مَرَضيّة، وأنّها ستعود إلينا مجدّدًا.

يتذكّر القليلون قصيدة مارتين نيملر:

جاؤُوا أوّلاً إلى الشّيُوعيّين،
وَلَمْ أرفَعْ صَوْتِي،
لأنّي لَمْ أكُنْ شُيوعيًّا.
ثُمّ جاؤُوا إلى الاشتراكيّين،
وَلَمْ أرفَعْ صَوْتِي،
لأنّي لَمْ أكُنْ اشتراكيًّا.
ثمّ جاؤُوا إلى أعْضاء النّقابات،
وَلَمْ أرفَعْ صَوْتِي،
لأنّي لَمْ أكُنْ نقابيًّا.
ثمّ جاؤُوا إلى اليَهُود،
فَلَمْ أرْفَعْ صَوْتِي،
لأنّي لَمْ أكُنْ يهوديًّا.
بَعْدَئذٍ جاؤُوا إليَّ،
فَلَمْ يَتَبَقَّ أحَدٌ
لِيَرْفَعَ صَوْتَهُ لأجْلِي».

نحبّ قليلًا أن نكون خائفين جدًا

قدرة القائد على التخويف متعلّقة برغبة شعبه في أن يكون خائفًا. والشعب اليهوديّ الإسرائيليّ يعشق الخوف، مدمن عليه. على الرغم من القوة التي لم نكن نملك مثلها أبدًا، نحن غير مستعدين للتنازل عن مكانة إسرائيل كجماعة ضحايا. كثيرون منّا بحاجة إلى الخوف من شيء كارتباط طبيعيّ وأصيل بالتاريخ اليهوديّ كما جرى ترسيخه في وعي الكثيرين. شعب الأبديّة يخلّد: «متلازمة الضحيّة المحرّرة حوّلت الخطاب الضحويّ من خطاب مصحّح إلى خطاب مخلِّد».[10] إذا كان هناك شيء نجح جهاز التعليم الإسرائيليّ بترسيخه في أعماق كينونتنا فهو ذلك الإيمان بأن سلسلة الأجيال وتتابع التاريخ اليهوديّ ليس سوى حدث كراهية كبير ومتواصل. قديم كقدم العداء بين إسحق وإسماعيل، وبين يعقوب وعيسو. تقريبًا، كل عدو هو ظالم، وكلّ خصم صعب هو هتلر وكلّ منتقد شرعيّ هو على الأقل معادٍ للسامية. على الرغم من أنّ غالبية التاريخ اليهوديّ كان تاريخًا مريحًا، فإنّ ترك أرض إسرائيل قبل خراب الهيكل الثاني وبعده كانت هجرة أكثر منها إجلاء،[11] والوجود اليهوديّ المتواصل في أماكن شتاته لم يكن أصعب من وجود الجيران الذين سكنّا معهم وبينهم. في مرّات قليلة فقط عبر هذا التاريخ الطويل قتلونا لشخصنا، وفي باقي الأوقات، كلّهم قتلوا كلّهم بسخاء القتلة، ونحن لم نكن استثنائيّين.

لدى ليهود واللاساميّين ما يتحدّثون عنه

لطالما كانت هناك كراهية كنسيّة بنيويّة، لكنّ الكراهية الدينيّة أو الاجتماعيّة لم تؤدّ في أي حالة إلى ملاحقة بهدف

الإبادة، أو بلورة الوعي اليهوديّ ليكون بعثًا قوميًا شاملًا. سعى العداء الكنسيّ، بأغلب مراحله، لأنّ يدفع اليهود لتغيير دينهم وليتنّصروا ويذوبوا، لأن يتنكروا لعقيدتهم وليأكّدوا بتنصّرهم تفوّق «العهد الجديد». في المقابل، كانت للّاسامية الجديدة أهداف معاكسة تمامًا: عنيفة وعنصريّة. في الحالة المعتدلة– طرد اليهود من بين «الشعوب المضيفة»، وفي الحالة المتطرّفة– الإبادة والقتل. يشارك الفكر الصهيونيّ، بشكل كثيف، اللاسامية الجديدة تحديدًا. يقبل اللاساميّون والصهيونيّون الفرضية بأنّ اليهود في كلّ مكان هم عنصر غريب عن مجتمع الأغلبية الذي يعيشون به. الصهيونيّون يريدوننا مركّزين في إسرائيل كدولة الحلّ اليهوديّ، واللاساميّون في أفضل حالاتهم يريدوننا خارج مدار رؤيتهم، وفي أسوأ حالاتهم خارج مدار الحياة كلّها في إطار الحلّ النهائيّ. قد تذهب التفاهمات بين هذين النقيضين– اليهودي والمعادي لليهود– حتى إلى أبعد من ذلك. يدّعي الصهيونيّ الإسرائيليّ أنّه المصل الوحيد ضد الذوبان المهدّد للشعب اليهوديّ في الشتات. ويدّعي اللاساميّ أحيانًا أنّ اليهوديّ الخفيّ، الذائب، هو الخطر الأكبر على مناعة وصحّة المجتمع كلّه. تتصل إحدى القصص المؤسّسة لعائلتنا تتصل بهذه المادة ذاتها. كان أبي، رحمه الله، يذهب كلّ يوم إلى مقر الجستابو لكي يتفاوض مع الضابط المسؤول عن تصاريح الخروج ليهود ألمانيا. «هِر د. بورغ» سأله النازيّ يومًا ما، «لماذا لا أرسلك إلى معسكر تركيز أو إلى معسكر عمل على الأقل؟». «هذه بسيطة» أجابه أبي بحنكته التلموديّة «لأنّ كلينا نريد الشيء ذاته. كلانا نريد اليهود خارج ألمانيا، وبالتالي نحن شريكان».

كنّا على مدى سنين، نستمتع بتذكّر «بطولة المحاججة» الخاصة بأبي الراحل. أمّا اليوم وعلى بعد مسافة زمنية، فأرى بالأمر أكثر من ذلك بكثير. إنّه تعاون موجود في أساس اللاساميّ واليهوديّ. في عام ١٩٤٠ في قمّة الحرب العالميّة الثانيّة أجري في بيروت لقاء غريب، فهو مليء بالتناقض الداخليّ الذي يشبه التناقض عند أبي رحمه الله. شارك في ذلك اللقاء مندوب منظّمة «ليحي»[١٢] والمندوب الدبلوماسيّ الألمانيّ فارنر أوتو فون هنتيج. في مذكرّاته، يصف فون هنتيج هذا اللقاء و«اقتراح الحلف» للتعاون النازيّ–الصهيونيّ، كما تمّ اقتراحه من قبل المقاتلين اليهود–الإسرائيليّين. حلف بين القومجيّين الاجتماعيّين الألمان والقومجيّين اليهود، أساسه دعم مجموعة شطيرن للنازيين وجهودهم ضد البريطانيّين مقابل استقلال فلسطين اليهوديّة.

اقترح مبعوث الليحي على الألمانيّ «الخطوط الأساسيّة التي تتبناها المنظّمة العسكريّة القوميّة في إسرائيل بشأن حلّ المسألة اليهوديّة في أوروبا والمشاركة الفاعلة للمنظّمة العسكريّة القوميّة في إسرائيل في الحرب إلى جانب ألمانيا. وكانت أسس الاقتراح:

تساعد المنظّمة النازيّين على حلّ المسألة اليهوديّة عبر إخلائهم «لأرض إسرائيل».

تقام في «أرض إسرائيل» دولة اليهود في حدودها التاريخيّة.

تساعد المنظّمة ألمانيا في المجال السياسيّ والعسكريّ، وفي جمع الاستخبارات في «أرض إسرائيل».

تقوم المنظّمة بتأهيل قوى بشريّة يهوديّة في أوروبا في إطار وحدات عسكريّة ستقوم بعمليات حربيّة من أجل احتلال «أرض إسرائيل».

تلتزم المنظّمة لألمانيا بأنّ حلفًا كهذا سيقوّى الأسس الأخلاقيّة للنظام الألمانيّ الجديد في عيون البشريّة.

يبدو هذا في وقتنا الحالي واهيًا غير واقعيّ، إذ إننا نعرف الأهوال النازيّة التي لم تكن غالبيتها قد حدثت حين إجراء ذلك اللقاء. لكن شيئًا واحدًا مؤكدًا– لم تنتهِ صلاحية فكرة الأساس المشترك لليهوديّ واللاساميّ بعد. وصف جان إمري[١٣] نفسه في إحدى كتاباته على أنّه «اليهوديّ الذي اخترعه هتلر». بالمقابل قال جان بول سارتر «لو لم يكن اليهوديّ موجودًا لاخترعه اللاساميّ». شيء واحد يستنتج من كلام الاثنين، اليهودي وكارهه بحاجة إلى بعضهما البعض لأنّهما يعرّفان بعضهما البعض.

اللاساميّة التي في أساس الصهيونيّة والإسرائيليّة

تعبيرات اللاساميّة قائمة في جذور الصهيونيّة. هذا هو أساس نقد إحاد هعام على هرتسل مع إطلاق الحركة الصهيونيّة، ولم يتغيّر الكثير منذ ذلك الوقت. «اللاسامي أنجب هرتسل، وهرتسل أنجب «دولة اليهود»، دولة اليهود أنجبت «الصهيونيّ»، والصهيونيّ أنجب الكونغرس. اللاساميّ هو، إذًا، السبب الأساسيّ لكلّ هذه الحركة»، وبالتالي «نفهم من خلال الكتاب [دولة اليهود لهرتسل] أنّ روح كلّ الحركة

تعبيرات اللاساميّة قائمة في جذور الصهيونيّة. هذا هو أساس نقد إحاد هعام على هرتسل مع إطلاق الحركة الصهيونيّة، ولم يتغيّر الكثير منذ ذلك الوقت. «اللاسامي أنجب هرتسل، وهرتسل أنجب «دولة اليهود»، دولة اليهود أنجبت «الصهيونيّ»، والصهيونيّ أنجب الكونغرس. اللاساميّ هو، إذًا، السبب الأساسيّ لكلّ هذه الحركة».

(الصهيونيّة) ما زالت إلى الآن هي ذاتها روح اللاساميّ فقط، لأنها ما زالت بحاجة إلى «التأثير» الدائم من قِبَل من أنجبها، كطفل بحاجة إلى أمه...».[14]

بطاقة هوية المحرقة

عندما أزور متاحف الكارثة، تستيقظ في داخلي الأفكار حول معنى بطاقة الهويّة اليهوديّة. في متحف «ياد فاشيم» الرسالة واضحة– معصرة قوميّة للدموع ومشاعر الذنب السياسيّة. كل ضيف رفيع المستوى ملزم عند زيارته بأن يمرّ من هناك، ويطأطئ رأسه عند بوابة الدخول إلى إسرائيل، ويذوّت الهندسة الصهيونيّة التي بحسبها هناك خط واحد فقط يصل بين النقطتين المهمتين للوعي الصهيونيّ: أوشفيتس والقدس.

مفهوم مختلف تمامًا لوعي تلك الفترة موجود في أسس المتحف اليهوديّ في برلين. يُدعى من يتجول في الأروقة والمعارض إلى فتح مصاريع وعيه. تمتدّ العلاقات بين اليهود وألمانيا أكثر من ألف سنة، يدّعي القائمون على المعرض. بعضها رائعة، وبعضها جيّدة والأخرى سيئة، سيئة جيدًا. يجب على الزائر ألّا يحكم على ألف سنة بناءً على الأحداث الفظيعة خلال سنوات النظام النازيّ في أواسط القرن العشرين. وعندما أزور متحف المحرقة في واشنطن يتغيّر المنظور من جديد. فذلك المتحف مخصّص لحدث تاريخيّ كثير المعاني في حياتنا، لكن التشديد العميق ليس على سيرة اليهود بل على الحقيقة أنّ الكارثة كانت حدثًا إنسانيًا قام به بشر ضد بشر آخرين. ويمكنه، على أيّ حال أن يتكرّر ويحصل مع أي شخص، ومع كلّ شعب وفي كلّ مكان. ومن هنا، ينبع التزامنا كمواطني أمّة الإنسانيّة. في نهاية ردهة المعروضات البرّاقة هناك معرض قائم منذ عدّة سنوات يعرض الفظائع التي ارتكبها الرئيس السوريّ بشار الأسد ضد مواطنيه، في أيامنا هذه. والرسالة واضحة.

دولة يد فاشيم

إسرائيل هي دولة يد فاشيم مع إضافات. قال لي أحدهم ذات مرّة «إسرائيل هي يد فاشيم مع سلاح جو». هذا ليس بعيدًا عن الواقع النفسيّ لأغلب الإسرائيليّين، الذين يحتاجون، طيلة الوقت، أن يمسكوا بأيديهم قوة لانهائيّة وغير مسبوقة يمكنهم تشغيلها ضد أي تهديد خارجيّ، صغيرا كان أم كبيرا، ولأن يكون هناك من الخارج شخص ما يعرّفهم بكراهيته لهم لكي يشعروا بهويتهم وانتمائهم اليهوديّ من الداخل.[15] لذلك، فكل شيء عندنا مخلوط بجِرار المحرقة.[16] لأنّه من دون اللاساميّ، مهما كان، ومن دون المحرقة، التي يجب منع انطفائها، لا يوجد للإسرائيليّ العاديّ تعريف ذاتيّ. أو في صياغة أكثر دقّة، لا يوجد تعريف إيجابيّ واحد يعرّف كلّ الإسرائيليّين الذين يعرّفون أنفسهم كإسرائيليّين. لو أننا اعتمدنا على القواسم الداخليّة المشتركة لكنّا غير موجودين، لأنها ليست موجودة فعلًا.

إنهم مثلنا تمامًا

من منظور إسرائيليّ، ما زالت اللاساميّة العلنيّة والخفيّة هي المحرّك المركزيّ لدواليب السياسة العالميّة. في حين أنّ نظرة موضوعيّة أكثر تكشف أنّه على الرغم من تعبيرات الكراهية واللاساميّة التي ما زالت حيّة حتّى يومنا هذا في أماكن كثيرة، إلّا أنّ اللاسامية هي قوّة هامشيّة جدًا على الساحة الدوليّة. تقف حكومات، قوانين، قوى شرطة، محاكم، منظّمات

من منظور إسرائيليّ، ما زالت اللاساميّة العلنيّة والخفيّة هي المحرّك المركزيّ لدواليب السياسة العالميّة. في حين أنّ نظرة موضوعيّة أكثر تكشف أنّه على الرغم من تعبيرات الكراهية واللاساميّة التي ما زالت حيّة حتّى يومنا هذا في أماكن كثيرة، إلّا أنّ اللاسامية هي قوّة هامشيّة جدًا على الساحة الدوليّة.

اجتماعيّة، شخصيّات عامّة، وسائل إعلام قويّة، مؤسّسات دينيّة ومفكّرون مؤثّرون، كالسدّ المنيع ضد الكراهية وجرائمها، وضد مظاهر العنصريّة وتعبيرات اللاساميّة. اللاساميّة إيّاها، التي كانت منظّمة في كنائس وأحزاب، والتي كانت أيديولوجيّة وبليغة وناجعة، لم تعد قائمة. ومهما كانت التعبيرات الحالية عنها شريرة، وحتّى لو كانت نظاميّة أو سياسيّة، فهي ليست أكثر من شأن متعلّق بمجموعات هامشيّة غير محترمة وغير مؤثّرة أو بأفراد غير متوازنين تمامًا.

يمكّننا مفهومنا لذاتنا من أن نفهم شعوبًا ودولًا أخرى فقط بالطريقة التي نفهم فيها ذاتنا. نحن نفترض مسبقًا أنّنا لا نختلف عن الآخرين، وأنّ الجميع يشبهنا بالتصرّفات والجوهر. في حين أنّنا عمليًا لا ندرك كليًا أنّ مجتمعات وثقافات أخرى تفهم ذاتها بشكل معاكس تمامًا. ضمن سيرورة التشكّل الطويلة للدولة الحديثة ولد نموذجان مركزيّان للدولة القوميّة المعروفة لنا. مجموعة دولة بنيت وهي قائمة على أساس عقد اجتماعيّ بين المواطنين، وبينهم وبين السلطة المركزيّة. كانت لكلّ واحدة من هذه الدول خلفية خاصة بها أوصلتها إلى هناك لكنّ النتيجة متشابهة. في أساس مجتمعات تلك الدول مثل إنجلترا، فرنسا، هولندا، والولايات المتحدة فرضيّة مفادها أنّ الفرد سابق للجماعة. الفرد صاحب رأي، حرّ، يملك قدرة على تمييز الخير من الشر وقدرة الاختيار بينهما. الإنسان–الفرد– هو السيّد الوحيد بغضّ النظر عن أصله، وجنسه وعقيدته أو انتمائه الاجتماعيّ. في المقابل ولدت في تلك الأيام نماذج أخرى. ألمانيا في الأيام الفظيعة، روسيا وهنغاريا اليوم هما دولتان ومجتمعان فيهما الجماعة تسبق الفرد. ليس الإنسان الفرد فيهما سوى جزيء صغير من مجموع كامل مكوّن من كل الأجزاء البشريّة التي حوله. في أحيان كثيرة لا يكون للإنسان معنى في منظومات وعي كهذه إلّا بانتمائه إلى هذه الجماعة الكبيرة. هذه «القوميّة التكامليّة»، القوميّة التي يُشمل فيها الجميع، رغمًا عنهم. قوميّة فوق كلّ سائر القيم الأخرى وتتوقع منك، كفرد، أن تطيع رغبات الجماعة.[١٧]

لكنّنا مختلفون عمّا نحن

عندما تقرأ هذه الأمور عن الاتحاد السوفييتي الذي كان وروسيا اليوم، ألمانيا النازية وتركيا أردوغان الحالية، ستُصاب بالصدمة. تقول لنفسك «نحن لسنا كذلك». فالفوضى السارية هنا، وحرية الكلام التي تقارب الهمجيّة والقدرة على أن تقوم بكلّ ما يخطر لك على بال، كلها تشكّل هنا، ظاهريًا، ديمقراطيّة حرّة ومنتعشة بأفضل صورة. لكن، بصدق، من نشبه أكثر، المملكة البريطانيّة المتحدة، أم الديمقراطيّة غير الليبراليّة في هنغاريا؟ تعدّد الآراء، تنوّع الأصول، التقسيم القبائليّ والاستقطاب المتزايد بين طائفة المحافظين (الآخذة بالازدياد) ومجتمع الليبراليّين (الآخذ بالتقلّص) هي أمور يمكنها أن تخدع المتأمّل السطحيّ، وأن تجعله يصدّق أن المجتمع هنا تعدّديّ ومتسامح. يتغيّر الإدراك عندما ننتقل من الرؤية إلى مسامع الآذان حين نصغي للصوت الإسرائيليّ. المظهر الخارجيّ خادع. الصوت الداخليّ صادق أكثر. تتردّد فيها الرغبة العميقة بواقع متخيّل وميتافيزيقيّ. حنين إلى قرين لم يكن أبدًا لكنّ الشوق إليه دائم. القوّة المحرّكة العميقة والبدائيّة هي الخوف. ومنطقه هو تقريبًا: عدم الاتفاق بيننا هو خلاف، والخلاف هو نزاع، والنزاع هو انقسام، والانقسام هو حرب أهليّة تولد من رحم الكراهية والعنف، وقد أدّت سابقًا

من تظاهرة لـمنظمة "صوت يهودي للسلام".

إلى خرابين كبيرين ولذلك علينا أن نفعل كل ما بوسعنا لألّا يطال الخراب «البيت الثالث» من خلال آليات التدمير الذاتيّ المصنوعة من «الكراهية المجانية» (كراهية غير مبرّرة) من الداخل والكارهين القساة من الخارج. هكذا نحن: نحتقر بعضنا بعضًا، نزدري ونتعالى على بعضنا البعض لكنّنا مقتنعون أنّ الوحدة ضد العدو خلف الجدار هي الدواء لكلّ داء. كلّما ابتعدنا عن الأسس العقلانيّة في أساس الفكرة السياسيّة الإسرائيليّة؛ أيّ العودة للحياة السياسيّة الدنيويّة «مثل باقي الشعوب»، كلما احتجنا عكّازات غير عقلانيّة. وبما أنّ القوى التي تحرّك إسرائيل في السنوات الأخيرة هي قوى أسطوريّة وغيبيّة فإنّ الدور الرمزيّ للاساميّ – الآخر الأبديّ الكليّ– يصبح مهمًا أكثر. مثلما كان دائمًا.

لكنّنا غير مذنبين

طبعًا غير مذنبين. عندما تتعرّض امرأة لاعتداء هناك من يحملونها دومًا ذنب الاعتداء عليها. بسبب لبسها وشكلها الخارجيّ وسمعتها. هذه مسخرة طبعًا. لأنّه يمكن لكلّ آدم وحوّاء أن يكونوا كما يشاؤون من دون أن يرى أيّ أحد بذلك شرعية للاعتداء عليهم.

لذلك، فاليهود غير مذنبين لأنّ هناك من يعمّم عليهم ويصمهم ويكرههم ويعتدي عليهم. ومع كلّ ذلك، لا يعفي هذا الأمر من فهم مساهمة اليهود بالخطاب المعادي لليهود. وبمساهمة اللاساميّين في تكوين الهويّة اليهوديّة المعارضة. السياسة الحالية للشعب اليهوديّ، بقيادة حكومة إسرائيل ومنظّمات يهوديّة حول العالم هي سياسة تبدو كأنّها تحارب اللاساميّة وكراهية إسرائيل لكنّها فعليًا تجري مع الكارهين والملاحقين حوارًا فيه اتفاق واحد مفاجئ.

القاسم المشترك الأكثر انعزاليّة

كتب الكثير عن التاريخ الغارق في القدم لعلاقات اليهود والأغيار. عن اليهود وكارهيهم. سئلت أسئلة ليس لها إجابات. يلقي الجانب اليهوديّ بكامل الذنب حول هذه التشويهات الإنسانيّة على الجانب اللاساميّ. قلائل كانوا من تجرّأوا على الاقتراب من المساهمة اليهوديّة في هذا الحديث. ادّعى الكثيرون على مدى سنين طويلة، أنّ اللاساميّ يكره اليهوديّ لأنّه يغار منه. وأنّ اليهوديّ ينغلق على نفسه لأنّهم يكرهونه. أو العكس، يكرهونه بسبب الانعزال والجدران الفاصلة. لهذا السبب أو لذاك، الكراهية دائمًا هناك. لا يهمّ لماذا ولا على ماذا، على النجاح، على الوعد، أو على الانتقاء الإلهيّ. إن كان ذلك لأنّه رأسماليّ جشع أو لأنّه شيوعيّ دوغمائيّ، ثريّ كروتشيلد أو راعي أبقار كتوقيا اللبّان. لا يثق غير اليهوديّ باليهوديّ على الرغم من أنّ وجوده في ذلك المكان قد يكون أقدم من وجود

في أحيان كثيرة يكون المختلف هو المرآة التي تنعكس من خلالها كلّ مواطن ضعفي. عندما أكره المرآة أعبّر عن غضبي على نفسي. إذًا، فاليهوديّ هو مرآة اللاساميّ واللاساميّ هو مرآة اليهوديّ. حتّى وقوع المحرقة، كانت أوصاف نقد الصهيونيّين واللاساميّين لليهوديّة القديمة متشابهة بشكل مدهش.

شعب تلك البلاد، وأنّه قد يكون مُطَّلِعًا ومتمكّنًا من الثقافة أكثر من الذين يدّعون الوطنيّة والولاء. ربما لأنّ لديه أخوة وراء الحدود وأخوات في كلّ أرجاء العالم. إنّه ليس وطنيًّا محليًّا بل هو مواطن العالم بتعريفه. فهو غريب. بعد هذا كلّه، يبدو أنّ هناك حديثا فعليّا بين اللاساميّ واليهوديّ، يجري طيلة الوقت وبمشاركة فاعلة من الطرفين.

الحديث، ككلّ الأحاديث في العالم، يحتاج إلى شيء مشترك، وإلّا فلن يكون هناك ما يجري الحديث عنه، ولا مع من يتمّ الحديث ولا كيفية الحديث ذاته. فعليًا، اليهوديّ وكارهه يتحدّثان منذ أجيال عديدة. يفهمان أكثر من كلّ الآخرين لغة بعضهما البعض. ما هي تلك اللغة المشتركة؟ اليهوديّ وكارهه، يؤمن الساميّ واللاساميّ أنّ اليهوديّ هو كائن استثنائيّ، أنّ تاريخه فريد من نوعه وأنّه لا يستجيب لأي معيار من المعايير التي يمتاز فيها المجتمع الذي يعيش فيه.

اليهوديّ مقتنع أنّه من سلالة الشعب المختار، أنّ الله فضّله عن باقي الشعوب، منحه التوراة خصيصًا وأنّه حصل من خلال قيمها وتعاليمها على معاملة خاصّة من خالق الكون. اللاساميّ يعتقد أيضًا أنّ اليهوديّ استثنائيّ لكنه استثنائيّ بالمعنى السيء. ولذلك فهو لا يناسب البنى والأطر المعروفة له.

من السهل تعليق المخاوف ومواطن الضعف على الاستثنائيّ. في أحيان كثيرة يكون المختلف هو المرآة التي تنعكس من خلالها كلّ مواطن ضعفي. عندما أكره المرآة أعبّر عن غضبي على نفسي. إذًا، فاليهوديّ هو مرآة اللاساميّ واللاساميّ هو مرآة اليهوديّ. حتّى وقوع المحرقة، كانت أوصاف نقد الصهيونيّين واللاساميّين لليهوديّة القديمة متشابهة بشكل مدهش. بعد المحرقة أُسكِتَ النقد الذاتيّ، وانتهى معها فحص ما هي الأفعال التي نُسهم من خلالها بردّهم العنيف.

الأمميّ الانعزاليّ

لا تقبل القوى السياسيّة الإسرائيليّة، التي استبدلت الفكرة الليبراليّة الأساسيّة لهرتسل،[١٨] إسرائيل كديمقراطيّة ليبراليّة يجب على حكم الأغلبية فيها أن يبقي مكانًا من أجل الدفاع عن حقوق الفرد وحريّاته. خصوصًا الفرد غير اليهوديّ. الأمّة (اليهوديّة، وليس الإسرائيليّة) بالنسبة لهذه القوى– قادة وجماهير– هي الفكرة الناظمة الكبرى والعليا التي تفوق بمكانتها كلّ القيم الأدنى منها. تكشف نظرة كهذه على إسرائيل اليوم، عمليًا، عن القاسم المشترك الإضافيّ بين اليهود وكارهيهم.

يرفض الكثير من اللاساميّين في العالم، بازدراء، فكرة الديمقراطيّة الليبراليّة المنتمية لكلّ مواطنيها، ويعتبرون العقد الاجتماعيّ بين كلّ المواطنين، بما فيهم اليهود والمهاجرون والأغراب، والمساواة المبنية الملزمة تجاه الجميع أمورًا غريبة عنهم تمامًا. المجموعات الإثنيّة الألمانيّة التي تعارض اليوم استيعاب مهاجرين ذوي بشرة داكنة، وتنشر فكرة «ألمانيا للألمان»، هي مثلها مثل أولئك الذين يؤمنون بتفوّق العرق الأبيض في الولايات المتحدة، وكلّهم كانوا وما زالوا مصابين بلاساميّة أساسيّة وواضحة. يريدون وحدة أمّتهم من دون يهود، ولا آخرين ولا ملوّنين ومن دون أي اقتراب منهم. المعسكرات الحقيقيّة هي: من جهة، هناك المؤمنون بوحدتهم مع من يشبههم فقط، وبالأفضليات والامتيازات والتفوّق على كل من هو خارج الدائرة. ومن الجهة الأخرى، هناك الملتزمون

إن كنا مختارين كمفضّلين عند الله (بنظرنا)، أو كأدنى مراتب الملّاحقين (بنظر كارهينا)، نحن، بكل حال، استثنائيّون. وهنا، في هذه النقطة تمامًا، تتشكّل اللغة المشتركة بين اليهود واللاساميّين. نحن نعشق أنفسنا لأنّنا فريدون ولأنّ الله اختارنا، وهم يزدروننا لأنّنا مختلفون واستثنائيّون.

بالمساواة الكاملة بين كلّ بني البشر. لا! العالم، كما يبدو، ليس مقسومًا إلى يهود وغير يهود، بل بين تحالف اليهود واللاساميّين الذين يؤمنون بأنّ هناك شيئا ما خاصا باليهود، استثنائيّا عن باقي بني البشر. وفي المقابل، كلّ الذين يؤمنون بأنّ كلّ البشر ولدوا متساوين ويستحقون فرصًا متساوية. وبكلمات أخرى: قسم منّا وقسم منهم ضد قسم منّا وقسم منهم وهاوية سحيقة تفصل بيننا.

الشعب الفريد

هنا يكمن جذر المرض، أصل العلاقات المَرَضيّة بين اليهود والأغيار، بين إسرائيل كدولة لليهود وباقي العالم غير اليهوديّ. يصيب د. عفري إيلاني: «تقريبًا كلّ سرديّة تاريخيّة تسعى لتحليل مسار التاريخ اليهوديّ تتطلّب في نهاية الأمر تصوّرًا... يشدّد على الخصوصيّة التاريخيّة، أو على «الطريق الفريدة» لشعب إسرائيل...قد لا يصف هذا التصوّر التاريخ اليهوديّ بمفاهيم ثيولوجيّة، لكنه يتبنّى عمليًا الفرضيّة بأنّ تاريخ الشعب اليهودي يسير وفق قواعد فريدة خاصة بها، تشذّ عن القوانين التاريخيّة العادية. تُستبدل هنا الاستثنائيّة الثيولوجيّة للشعب الذي يحبّه الله، والذي حصل على التوراة في سيناء، باستثنائيّة تاريخيّة للضحية المطلقة».[١٩] يظهر أننا نحن ومن ضدنا نقبل هذه الفرادة كفرضية أساسيّة للوجود اليهوديّ. إن كنا مختارين كمفضّلين عند الله (بنظرنا)، أو كأدنى مراتب المَلاحقين (بنظر كارهينا)، نحن، بكل حال، استثنائيّون. وهنا، في هذه النقطة تمامًا، تتشكّل اللغة المشتركة بين اليهود واللاساميّين. نحن نعشق أنفسنا لأنّنا فريدون ولأنّ الله اختارنا، وهم يزدروننا لأنّنا مختلفون واستثنائيّون. في حال فهمنا هذه اللغة وقواعدها لربما كان بإمكاننا أن نقترح بدائل أكثر صحيّة لها.

مُجزٍ لنا

لم تنجح دولة إسرائيل، ولربما لم تحاول بجديّة، أن تكسر هذه العلاقة. لأنّه من الصعب فصل كل كوابل الوعي الممتدّة منذ آلاف السنين ولأنّ الأمر تحوّل إلى أداة ناجعة ونافعة بيد القيادة السياسيّة لإسرائيل.

كسبنا أرباحًا مضاعفة بسبب تبنّي الجزء الذي يهمّنا من العالم– الغرب والدول المتطوّرة تحديدًا– لقواعد سلوك جديدة تمامًا. ومن بينها: منع مطلق للكراهية وجرائم الكراهية، والعنصريّة والتمييز، واللاساميّة وملاحقة اليهود والجرائم ضد الإنسانيّة. الربح الفوريّ واضح وطبيعيّ– وأخيرًا هناك شبكة أمان سياسيّة لليهود تحميهم من الملاحقة والتحريض. استفادت أجهزة القضاء الغربيّة من دروس القرون الماضية ومن شرّ الأشخاص والأيديولوجيّات. هكذا، تشكّل لجميع البشر حيّز نظاميّ من المفروض أن يكون محميًا من القوى والديناميكيّات التي ارتكبت الجرائم الفظيعة ضد البشريّة وإبادة الشعوب في القرن العشرين.[٢٠]

الربح الثاني متطوّر أكثر، سياسيّ في جوهره. تمّت ملاحقتنا بسبب تصوّر فرادتنا. واليوم نطالب بمكانة خاصة نابعة من محرقتنا ومأساتنا «الفريدتين». لا يوجد تقريبًا خطاب سياسيّ، ولا محاضرة أكاديميّة، ولا كتاب أو فيلم إسرائيليّ لا يتعامل مع المحرقة كحدث فريد من نوعه واستثنائيّ في تاريخ البشريّة كلّها. على رفوف دكاكين الكتب الإسرائيليّة هناك فصل واضح بين أدب الحرب العالميّة الثانية وأدب المحرقة. كأنّهما

حدثان منفصلان تمامًا دارت رحى كلّ منهما على مجرّتين متباعدتين. وكلّ علاقة بينهما هي محض صدفة. عندما يحاول مؤرخّون وباحثون وضع المحرقة ضمن سلسلة أعمال إبادة ومجازر جماعيّة ارتكبت ضد شعوب أخرى يتَّهمون بالازدراء وبإنكار الكارثة تقريبًا إذ إنّه «كيف يمكنهم المقارنة أصلًا». بالنسبة للكثيرين، يهود وغير يهود، الاختباء وراء ادعاء فرادة المحرقة مريح جدًا لكي يزيلوا عن أنفسهم مسؤولية ثقيلة ومباشرة.[٢١] حدث فريد هو حدث وحيد أيضًا. المسؤولون عنه معروفون وقد عوقبوا بشكل رمزيّ. ولا داعي بعد ذلك للاهتمام بمرفقات هذا الحدث أو قرائنه الذين يطلّون برؤوسهم من أماكن أخرى. من يدّعي فرادة المحرقة يستدعي، عمليًا، إنكارها أيضًا.[٢٢] لذلك، هذه منطقة راحة سياسيّة لقادة دول تاريخها موصوم أو أيديولوجيتها الحالية تنبع بشكل مباشر، أو غير مباشر، من أيديولوجيا النازيين وشركائهم.

هذه الفرادة مريحة جدًا لنا أيضًا. لأنّنا باسمها نطالب باحتكار المعاناة التي كانت، وكذلك بامتيازات آنية تمنح عادة للضحايا المطالبين بتمييز تصحيحيّ. نتوقّع من العالم، لأننا عانينا كثيرًا، أن يكون متسامحًا ومتساهلًا تجاه كلّ الأعمال التي نقوم بها. بما في ذلك أعمال لم يكن أحد مستعدًا لأن يقبلها أو يتحمّلها لو حصلت في مكان آخر، أو لو نفّذت في هذه الأيام ضد يهود. خلقنا في نظر العالم دائرة إدراك مُدرّة: نحن يهود، يعني أننا فريدون، لذلك لاحقونا وأبادونا، المحرقة كانت حدث ذروة فريدا لشعب فريد ولا يمكن مقارنتنا ومقارنة مصيرنا مع أي مصير آخر، دولة إسرائيل هي الوريث الشرعيّ لضحايا المحرقة ومكملة دربهم، ومن ينتقد إسرائيل وسياساتها هو معاد لليهود، ولذلك فهو لاسامي، وهذا يعني أنّ نقده باطل. لا يوجد في العالم اليوم طريقة ما لنقد إسرائيل وأعمالها. يمكن الإعجاب بإسرائيل أو المخاطرة بالحصول على وصم اللاساميّة وكراهية اليهود. لا يوجد وسط.

مساهمة الدولة

لا يمكنني أن أعدّ المرات التي قمت فيها أنا أيضًا بوصف إسرائيل كـ «دولة الشعب اليهوديّ»، فهذا تعبير دارج لدرجة أنّ معانيه الأخرى الكامنة فيه غابت عني. كان واضحًا بالنسبة لي على مدار السنين أنّ هناك تطابقا كاملا بين إسرائيليّ ويهوديّ، وتطابقا أكيدا بين دولة إسرائيل والشعب اليهوديّ. هكذا تمّ تصميم وعينا القوميّ. كل ما هو ليس إسرائيل يُلغى. إلغاء المنفى ويهوده من الخارج، وإلغاء العرب والحريديم من الداخل من أجل الوصول إلى النتيجة الإدراكيّة المنشودة: اليهوديّ، الإسرائيليّ والصهيونيّ– شيء واحد، أليس صحيحًا؟ من ناحية نظام الحكم، فإنّ الدولة، أيّ دولة، هي مجموع صلات مواطنيها وسكّانها. الصلات بينهم وبين أنفسهم، وصلاتهم مع ذكريات المكان والمصير وذلك بواسطة لغتهم في أماكن سكناهم.

تدّعي إسرائيل بلسان المتحدّثين باسمها أنّها شيء آخر. أنّها لا تنتمي لمواطنيها (وبالتأكيد ليس لكل مواطنيها، وخصوصًا العرب) بل للشعب اليهوديّ.[٢٣] هذا معناه دولة أغلب أصحاب الأسهم وأصحاب الشأن فيها لا يسكنون فيها ولا يتحدّثون لغتها. لا يدفعون لها الضرائب، ولا يخدمون في جيشها، ولا يدفعون ثمن قراراتهم، لا يَنتخِبون ولا يُنتخَبون. بحسب هذا الخطاب، إسرائيل تنتمي للشعب اليهوديّ وليس بالضرورة لمواطنيها الرسميّين.

هناك الكثير من المشاكل في نموذج نظام الحكم هذا. تتعلق إحداها بتعزيز كراهية إسرائيل في العالم. في اللحظة التي تحوّل فيها الدول كلّ يهوديّ مهما كان إلى جزء من آليات السيطرة والملكيّة لدولة إسرائيل، تعيّنه أيضًا، رغمًا عنه، مسؤولًا عن أعمال وأخطاء «دولته». تتحوّل إسرائيل من دولة مع حدود معرّفة وعلاقات مع أصدقاء وأعداء إلى كيان غير واضح المعالم موجود في كل مكان فيه يهوديّ ما. كلّ العالم جبهة وكل يهوديّ محارب. كلّ كنيس، ومركز جماهيريّ ودكان «كاشير» هو ساحة المعركة الإسرائيليّة الموسّعة. تمنح إسرائيل العالميّة الجنسيّة لكلّ يهوديّ رغمًا عنه، وتحوّله إلى إسرائيليّ كأمر واقع، وبحيث يصبح ملايين غير الإسرائيليّين أهدافًا ممكنه لكارهي إسرائيل. بدلًا من تفكيك رزم الشيطنة التي أمامنا نزيدها أكثر. نزوّد فعليًا بمجرد الربط المفروض بين السلوك السياسيّ غير اللائق لإسرائيل ويهود العالم أسبابًا وأهدافًا سياسيّة أخرى للكراهية البنيويّة للاساميّين.

وبالإضافة إلى ذلك

لا ينتهي الأمر عند تشكيل خطر على يهود العالم بسبب سياسات إسرائيل. نحن نفتقد القدرة على تقبّل النقد، أيّ

نقد، على سلوكنا السياسيّ. خصوصًا بالأجزاء التي تتعلّق بالتمييز ضد غير اليهوديّ وبحرمان ملايين الفلسطينيّين في المناطق المحتلة من الحق الديمقراطيّ الأساسيّ. نتيجة نقص الثقة الأساسيّ نردّ بفظاظة أكبر. باستهتار مطلق، بانغلاق تجاه كل مقولة لا يوجد فيها مديح مطلق لنا ولمجرّد وجودنا. بهذا، ندفع كلّ من لديه نقد على إسرائيل إلى أذرع تحالف اللاساميّة، ونوسّع بأيدينا تحالف معارضة إسرائيل بدلًا من تقليصها. لو كانت إسرائيل شخصًا، لأشارت كلّ أعراضه إلى أنّه شخصيّة شبه فصاميّة. الشخص شبه الفصاميّ[٢٤] هو إنسان يعاني من انفصام بين عالمه الخارجيّ وعالمه الداخليّ، الذي يفضّل أن يكون فيه. بين الاضطرابات الموصوفة في الأدبيّات المهنيّة يمكننا أن نجد: عدم اهتمام بالعلاقات الاجتماعيّة وميل لتفضيل نمط حياة منعزل، التشدّد في السريّة، برود عاطفيّ، انقطاع ولامبالاة. لا يستطيع الأشخاص شبه الفصاميّين، في الكثير من الأحيان، بناء علاقات قريبة وحميميّة مع الآخرين والحفاظ عليها، على الرغم من عالمهم الداخليّ الغنيّ. وتكون لديهم صعوبة كبيرة في تقبّل النقد. هذا أيضًا وصف دقيق جدًا لإسرائيل السياسيّة التي تؤمن وتتصرّف على أساس «شعب يسكن وحده» و«لا يهتّم بالأغيار»، فـ«ما لنا ولهم»، و«لا يهم ماذا يقول الأغيار بل المهم هو ما يفعله اليهود»، «أفضل من في الأغيار مقتول»، «عربيّ جيد هو عربيّ ميت» و«لا أحد يقول لنا ماذا نفعل». لو أصغت إسرائيل إلى النقد الموجّه إليها، وذوّتت ما عليها وأصلحت طريقها، وحاورت منتقديها وشرحت مواقفها لكانت حسّنت من مكانتها في العالم ومن صورتها الذاتيّة. هذا لن يحدث لأنّنا لا نريد إجراء محادثة كهذه مع العالم. نحن غير قادرين على سماع النقد. ربما لأنّ لا أحد جيد بما فيه الكفاية بنظرنا لكي يتحمّل مسؤولية صاحب النقد. تمامًا مثل أقوال حكيم قديم «قال الحاخام إليعازر بن عزريا: يحيّرني إن كان في هذا الجيل من يعرف كيف يثبت».[٢٥] على كل حال، نحن عمليًا نكره النقد، نكره كل من يُسمع النقد ونتهمه بالكراهية. ولو لأنّ الطريق الأسهل لرفض النقد هو تحويل المنتقد إلى كاره. وتجاهل نقده.

ثمّة إمكانية أخرى أيضًا

إسرائيل هي حيّز ثقافيّ مشبع بجرائم الكراهية. من كلّ الجهات الممكنة، نحن أهداف لعمليات وإرهاب وشيطنة فظيعة من قبل أولئك الذين ما زالوا يؤمنون بالعنف والإرهاب. نحن كمجتمع الضحايا الأبديّ الذي يرى بمجرد التوجّه للأمم المتحدة ليس أقل من «إرهاب سياسيّ». وبكلّ خجل، على الاعتراف بوجود فعّال وقتّال للإرهاب اليهوديّ. ذلك الجزء منّا، الذي لم يكتفِ بقتل رئيس الحكومة ولا بالاعتداء الدائم على مناصرين يهود للسلام، بل يقوم صباح مساء بتنفيذ جرائم ضد فلسطينيّين أبرياء في المناطق المحتلة وإسرائيل، مدعوما من حاخامات ومرجعيات توراتيّة، ولا يستنكّر أعمال هذا الجزء الوزراء والمسؤولون. ينّفذ شباب يهود يمينيّون راديكاليّون عمليات «تدفيع الثمن»، والتي تشمل كلّ الأعمال التي كنّا نبغضها: عنف وتخريب ممتلكات، تنكيل وقتل، رمي حجارة وحرق مساجد، اقتلاع أشجار مثمرة وإحراق حقول حبوب. وتمتدّ أيدي هؤلاء الزعران في الكثير من الأحيان ضد معارضيهم الذين على يسار المجتمع اليهوديّ الإسرائيليّ. لا أملك طرقًا أخرى لوصف هؤلاء سوى «عنصريّون قومجيّون من أبناء دين موسى»، الشبيبة الهتلريّة اليهوديّة. إنّهم ليسوا، بأي وضع أو ظرف، جزءًا من ولائي القبليّ، إنّهم أعداء أشدّاء سفكوا دماء أبرياء وبالتالي دمائهم متاحة كدمّ كلّ «مُلاحِق». حتّى لو كان مطهّرًا، يتحدّث العبريّة، متديّنا جدًا ويصلّي ثلاث مرّات في اليوم صوب القدس. للعدو القيميّ والمبدئيّ لا توجد هويّة إيجابيّة أبدًا.

في المقابل، عندي حلفاء صالحون ليسوا من السبط اليهوديّ الانعزاليّ. وحكاية حماي– أستاذي–حبيبي–صديقي تشهد على ذلك:

ولد في مطلع سنوات العشرين في منطقة الألزاس في فرنسا، كان ناشطًا في المقاومة السلميّة كما كان ناشطًا في المقاومة المسلّحة ضد الاحتلال النازيّ. هو مؤرّخ ومربٍّ وهو الشخص البالغ الأهم في حياتي عدا والديّ الراحلين. زرع في داخلي الفهم بأنّ المعجزة الكبرى للحرب العالميّة الثانية لم تكن إنقاذ الشعب اليهوديّ. بل هي حكاية الصالحين بين الأمم. أولئك الذين بشجاعتهم النادرة أنقذوا الكثير من الضحايا والملاحقين وأنقذوا بذلك الإنسانيّة والبشريّة. منذ ذلك الحين، يخصّص عشرات السنين من حياته لإيجاد الصالحين بين الأمم وتقديم النياشين لهم. مفهوم ضمنًا أنّه يؤمن على نحو كبير وجوهريّ بالسلام والحب لكل بني البشر من دون أن تعزل بينهم الحدود والهويّات، وهو ملتزم

من دون شروط بالمجتمع التعدّدي المتضامِن. إنّه قدوة ساحرة وراقية. وهاكم قصّة صغيرة–عملاقة تطوي داخلها حياته هو والبديل لنا نحن.

«خلال كلّ أيام المقاومة والنضال حملت في حقيبتي كتاب التوراة بالعبريّة. وعندما عدنا [المقاتلون ضد الاحتلال] إلى معسكرنا المهدوم في لاكادو وجدنا كتاب التوراة هذا تحت كومة من براز البشر. لم يسلم أي شيء من معداتي الشخصيّة من أيدي جنود الوورماخت الناهبين؛ وجد أحدهم، كما يبدو هذه التوراة، وكان يعرف طبعًا أنّ هذا غرض يهوديّ، فعبّر عن كراهيته (وربما خوفه) عبر تدنيسه. هل فهم معنى الصورة التي مثّلها هذا الفعل، فعل يجسّد كل ما كان موضوعًا على كفّة ميزان تلك الحرب؟ أخبرت القس دوكومان ماذا كانت نهاية كتاب التوراة خاصتي، الذي قبرته في المكان الذي وجدته فيه، كما توصي الشريعة اليهوديّة. بعد ثلاث سنوات، عندما كنت طالبًا جامعيًا في ليون، وصلتني رزمة صغيرة في البريد. كان ذلك كتاب توراة بالعبريّة، بنسخة يستلطفها كلّ محبو الكتب– نسخة طبعت في لايبزج سنة ١٨٣٢– وقد أرفقت به رسالة قصيرة بخط اليد: «تربيتي الدينيّة تشبه تربية الناس الذين دنّسوا كتاب التوراة الخاص بك، وأنا أشعر أنّ عليّ أن أكون شريكًا بمسؤولية تنفيذ هذا التصحيح. مارسيل دوكومان».

اعترف بتواضع– كان هذا القس البروتستانتيّ أحد معلميّ الروحانيّين، من دون علاقة للهويّة الدينيّة لكلينا. في ١١ كانون الأول ٢٠٠٩ أشعلت النار في مسجد قرية ياسوف قرب نابلس شمالي الضفّة. مجموعة شباب يهود، سكّان مستوطنة قريبة، حاولت إحراق المسجد وتدنيس كتب القرآن التي فيه. لقد أغضبني هذا العمل الفظيع. أعطيت للمسلمين في القرية كتاب قرآن جديدا وأنيقا أرفقت به بطاقة مكتوب عليها بالعربيّة: «تربيتي الدينيّة تشبه تربية الناس الذين دنّسوا كتاب القرآن الخاص بكم، وأنا أشعر أنّ عليّ أن أكون شريكًا بمسؤولية تنفيذ هذا التصحيح». ترجمة محدّثة للواقع الإسرائيليّ الآنيّ».

بهذه الروح الكبيرة يمكن، بل يجب، تصميم سياسة أخرى للشعب اليهوديّ. ليس المزيد من الكراهية مقابل الكراهية، ليس ضحوية دائمة لا تمكّن من التعافي، بل إقامة جبهة عالميّة ضد الكراهية، والكارهين وجرائمهم. لا يوجد لأحد في الحلف الإنسانيّ الشامل هذا احتكار للمعاناة. يهود ومسلمون، نساء مهمّشات وأصحاب ميول جنسيّة مميَّز ضدهم، مهاجرون وأصحاب آراء متحدية– معًا. ستقف هذه الجبهة معًا– مع القس البروتستانتيّ والمؤرّخ والمربي اليهوديّ– في كلّ مكان فيه كراهية. وستقدّم بديلًا مصنوعًا من إنسانيّة حاضنة للجميع، ضد كلّ تعبير عن كراهية وعنف. ستبادر إسرائيل لإقامة جبهة كهذه، وستعمل من أجل نجاحها، بنفس الأدوات السياسيّة والعاطفيّة التي تبنيناها منذ نهاية الحرب العالميّة الثانيّة ورعبها.

ستكون إسرائيل هذه ملتزمة بتغيير سياساتها الخارجيّة، لكن أولًا وقبل شيء ستغيّر من سياساتها الداخليّة. من «الإنسان للإنسان ذئب» إلى «محب للإنسان، كلّ إنسان، لأنّه خلق على صورته». وبهذا لا تضيف الكثير من الخير لإصلاح العالم فقط بل تنجح أخيرًا بالوصول إلى سفوح الجبل العالي الذي تطمح لتسلّقه وتفشل مرّة تلو الأخرى. ذلك الجبل الذي على قمته منارة من المفروض أن تشعّ «نورًا للأغيار».

حكاية كتاب القرآن هذه ستثبت شيئًا ما. في أحد الأيام توجّه أحد حاخامات السلام – الحاخام الراحل مناحين فرومان– إلى حماي وطلب منه موافقة على عرض كتاب القرآن العينيّ هذا على أحد القيادات الدينيّة المهمة في تركيا. حماي الذي لا يرفض أيّ فكرة إنسانيّة وصانعة للسلام، وافق كما وافقت كذلك جماعة المسجد في ياسوف. انتقل كتاب القرآن ذاك إلى أنقرة كجزء من الجهد الكبير لإصلاح الحوار المقطوع مع رئيس تركيا– رجب طيب أردوغان وإسرائيل. وهذا ما كان، ومن يعلم ماذا ستكون محطته القادمة في روح كبار الروح؟

(ترجمه عن العبرية: إياد برغوثي)

هوامش

١. تمّ توجيه تهمة تسميم آبار لكوريّين سكنوا في اليابان بعد الهزّة الأرضيّة الكبيرة في كانتو سنة ١٩٢٣. في الحالتين لم يتمّ إثبات التهم، لكنها أدّت إلى مذابح.

٢. في علم النفس الإنسانيّ هناك كراهية ميتافيزيقيّة: ينفر اليهود والمسلمون من الخنزير رغم كونه حيوانا لطيفا، يكره الناس الثعابين رغم أنّهم لم يواجهوا حيوانًا زاحفًا، عمليق هو شيطان متخيّل، وهناك أوروبيّون لم يلتقوا بمسلمين أبدًا لكنّهم مصابون بإسلاموفوبيا صعبة.

٣. ولو بسبب الأخبار المتواصلة حول الازدياد الواضح بالمظاهر اللاساميّة في العالم.

٤. كلمات أغنية «وتجاوزنا فرعون» هي من تأليف المغني الإسرائيلي مئير أريئيل

٥. وضع كلمات الأغنية «العالم كله ضدنا» الشاعر يورام طهارليب، في سنة ١٩٦٩.

علّمنا هذه النشيد

أجدادنا العجز

سننشده ومن بعدنا

سينشده أبناؤنا.

وأحفاد أحفادنا سينشدونه

هنا في أرض إسرائيل

ومن هو ضدنا

فليذهب للجحيم!

٦. نيكولو مكيافيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧)، سياسيّ وفيلسوف إيطاليّ. منظّر مؤثّر بالواقعية السياسيّة.

٧. لم ينهِ أحد حياته بشكل جيّد. نفي بن غوريون للصحراء ولم تتم إعادته، وشاريت لم يترك أثرًا، إشكول تم الاستخفاف به ونُسي، بيغين انطفأ دونما قوّة، رابين اغتيل، شارون انتهى ضمن جدل عام صعب، أولمرت قضى عقوبته بالسجن وشامير لم يترك أيّ أثر.

٨. من صلاة السبت.

٩. من «هتكفا»- النشيد القوميّ الإسرائيليّ.

١٠. ألون جال، ضحويتهم مهنتهم. (القدس: المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة. ٢٠١٤)، ص ٢٨

١١. « لم يؤد خراب البيت الثاني إلى تفريغ البلاد من سكانها اليهود، وفي أي حال لا يوجد أي أساس تاريخي فعليّ لحكاية الإجلاء من البلاد من قِبَل روما المنتصرة، انظروا: يسرائيل يوفال، «أسطورة الإجلاء من البلاد». ألبايم. عدد ٢٩ (٢٠٠٥)، ص ٢.

١٢. ليحي- لوحمي حيروت ليسرائيل. منظّمة بقيادة أبراهام شتيرن والتي سميت آنذاك «المنظمة العسكريّة القوميّة في إسرائيل».

١٣. جان إمري ١٩١٢-١٩٧٨ ولد في النمسا لعائلة يهوديّة باسم هانس مايير...شارك بمقاومة النظام النازيّ، اعتقل وتم تعذيبه. صمد إمري في معسكرات التركير أوشفيتس وبوخنوولد. مقالاته التي نشرت بعد عقود من الحرب العالميّة الثانية تتناول مواجهته الفلسفيّة كمثقّف مع معاني المحرقة.

١٤. إحاد هعام، «الكونغرس وصانعه». على موقع «مشروع بن يهودا: https://benyehuda.org/read/7352

١٥. الألع من بينها كان تشخيص/تعريف رئيس الحكومة ليفي إشكول (١٩٦٣-١٩٦٩) حين وجّه قائد سلاح الجو في حينه عيزر وايزمان قائلًا: «مثّل إسرائيل مثل شمشون البطل المسكين».

١٦. في إحياء ذكرى المحرقة سنة ٢٠٢٠، في ذروة وباء الكورونا، قال رئيس الحكومة في طقس أقيم في «يد فاشيم»: «ليس كما في المحرقة- في الكورونا عرفنا الخطر في موضوع الوقت». لاحقًا في حديثه، عمّق رئيس الحكومة هذه المقارنة المنزوعة السياق حيث قال «سمعت ك. تستنيك وناجين آخرين يقولون- «لن تتمكنوا أبدًا من فهم ما مرّرنا به»، معهم حق- لن نستطيع فهم ذلك أبدًا لأنّ لا شيء يشبه المحرقة. هذا صحيح أيضًا بالنسبة لأزمة الكورونا العالميّة، التي يراها البعض التحدي الأكبر للإنسانيّة منذ الحرب العالميّة الثانية».

https://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-5717957,00.html

١٧. «من ناحية سياسيّة، تشدّد القبليّة القوميّة بشكل دائم على أنّ شعبها محاط على الدوام بـ»عالم من الأعداء»، «واحد ضد الجميع»، وأنّ هناك فرقا جوهريا بين هذا الشعب وكلّ الآخرين. وهي تدعي فرادة هذا الشعب، وعدم التطابق بينه وبين الشعوب الأخرى، وترفض نظريًّا كلّ إمكانية لإنسانيّة مشتركة، وهذا قبل وقت طويل من استخدام هذا الادعاء لتخريب إنسانيّة الإنسان». هذا ما كتبته حانا أرندت في كتابها أصول الشموليّة. ١٩٥١

١٨. «هل يمكن لكهنة ديننا أن يحكمونا؟ لا! الإيمان هو ربما العلاقة التي توحّدنا، لكننا أحرار بقوة الحكم والعلوم ولذلك لن ندع الغرائز الثيوقراطيّة لرجال الدين ترفع رأسها. سنعرف كيف نبقيها في كنسها، مثلنا سنبقي جيشنا العامل في الثكنات. سيحترم الجيش وسيحترم الكهنوت، كما هو مطلوب ولائق بهذه الأدوار الجميلة. في شؤون الدولة، ومع كل التقدير لهم، ممنوع أن يتدخلوا، لألا يجلبوا عليها الصعاب من الداخل والخارج». هرتسل، دولة اليهود ١٨٩٦

١٩. عفري ايلاني، «شعب مختار»، موقع الدورية المعجمية **مفتيح**، ٩ (٢٠١٥) https://mafteakh.org/wp-content/uploads/2019/09/9-2015-07.pdf

٢٠. «هناك من يدعي أنّه في القرن العشرين كانت هناك أعمال إبادة جماعيّة أكثر من كلّ قرن سابق في التاريخ الإنسانيّ، ويعرّفون هذا القرن بـ»قرن الإبادة الجماعيّة» أو «قرن العنف»، أنظروا: يائير أورون. **ألم المعرفة**. (الجامعة المفتوحة، ٢٠٠٣)، ص ٢٠٨.

وفي محادثات خاصة قال أورون على مسمعي أنّه في القرن العشرين قتل في مثل هذه الجرائم أكثر من ١٦٠ مليون إنسان.

٢١. «الثقافة العالميّة لذاكرة المحرقة تروّج تصوّرًا يرى بالمحرقة ظاهرة فريدة من ناحية تاريخيّة، منفصلة كليًا عن أنماط العنف الجماعيّة للدول القوميّة في القرن العشرين، وخصوصا في الحرب العالميّة الثانية. العنف الجماهيريّ الذي وجّه نحو يهود هنغاريا، مثلًا، تم فحصه فقط نسبة للعنف تجاه اليهود في أنحاء أوروبا، وبالنسبة لتجاهل السياق المباشر: عنف الدولة تجاه اليهود والأقليات الأخرى الذين عرضتهم الرؤية الهنغاريّة الإثنيّة-القوميّة كأغراب ومساكين. على الرغم من أنّ أغلب الأبحاث عن المحرقة ترفض براديغم الفرادة، ما زالت دول قوميّة كثيرة تروّجها. هذا الاستخدام لذاكرة المحرقة يمكّنها من عدم الاعتراف بمسؤوليتها عن فظائع المحرقة ومنع أيّ مقارنة مع عنف دولة قوميّة في الوقت الحاضر». انظروا: راز سيجال، «سياسة ذاكرة الكارثة في الدولة القومية»، موقع دورية **هزمان هزيه**. كانون الثاني ٢٠٢٠ /https://hazmanhazeh.org.il/segal

٢٢. «هل المحرقة فريدة من نوعها؟ سأدّعي أنّها ليست كذلك. على الرغم من أنّي أقول إنّها كانت فريدة؛ أيّ حدثًا لمر ة واحدة لن يتكرّر، يمكن نسيانه، لأنّه لا خطر في أن يكون حدث شبيه مثله في المستقبل». يهودا باور. «المحرقة والإبادة الجماعيّة»، أيلول ٢٠١٢. https://www.academy.ac.il/SystemFiles/21527.pdf

٢٣. في عام ٢٠١٨، وبعد سنين طويلة من مثل هذا الخطاب، تحوّل الأمر إلى قانون أساس: «دولة إسرائيل هي دولة الشعب اليهوديّ»

٢٤. يونانيّة.

٢٥. تلمود بابل، مسيخت عرخين. ص ١٥، ب

ترجمة وإعداد مالك سمارة *

ناتان ألترمان- نصّان

نشوز واضطراب الأسس التي يقوم عليها ادعاء الصهيونيّة الأخلاقي

نشر ناتان ألترمان (١٩١٠–١٩٧٠) قصيدته «عن ذلك» في التاسع عشر من تشرين الثاني عام ١٩٤٨، تحت زاويته الأسبوعية «العمود السابع» في جريدة «دافار»، الواجهةِ الإعلاميّة لحزب «مباي» في حينها، الذي كان يرئسه دافيد بن غوريون. كان هذا عندما بدأ غبار حرب النكبة ينقشع كاشفًا عن مجازر واسعة، آخرها ما اقترفته الكتيبة ٨٩ «كوماندوز»، التابعة للجيش الإسرائيلي، في الدوايمة قبل ثلاثة أسابيع من نشر القصيدة.

بعد حرب أخرى، هي حرب عام ١٩٦٧، نشر ألترمان مقالته «أمام واقع لا نظير له»، لكن في جريدة «معاريف» هذه المرّة، التي تتخذ خطًّا أكثر يمينيّة. بين هذه وتلك رسالتان تبدوان ناشزتين من صلب الأدبيات الصهيونية: «طهارة السلاح»، و«إسرائيل الكبرى».

على الرغم من أن قرب المسافة الزمنيّة دفع بعض النقّاد في إسرائيل إلى ترجيح أن ألترمان كان يستحضر في قصيدته مجزرة الدوايمة؛ فمن غير الواضح ما إذا كانت مشهديّة قتل العجوزين، التي افتتحت بها القصيدة، تشير إلى واقعة بعينها. بالأحرى، صورة ذلك الجنديّ الفتيّ، الذي لم يسقط بعد «أسنانه اللبنية»، وهو يمسك رشاشة ويرخي زناده على عجوزين مذعورين، تبدو وكأنها أُلبست طابعًا كاريكاتوريًّا مفرطًا في التجريد، وإن كنّا قد شهدنا على امتداد سنوات الصراع ما يحاكيها في الواقع. هذا ليس قولًا بأن مشهدًا كذاك الموصوف لم يكن ليحدث في حينها، وإنّما مساءلة للمعنى الضمني الذي تحمله النمطيّة والمبالغة في التسطيح هنا، ضمن مشهديّة النكبة الأوسع التي رسّختها الصهيونية؛ وتمخّضت في كلّيتها، من

فعل جنديّ أرعن، إلى سقفها «العقلاني» و «المؤسسي»، عن جريمة كبرى في بالعرف الدولي الذي كان ألترمان يستدعيه في قصيدته.

عطفًا على ذلك، يمكن القول إن مرافعة ألترمان الأدبيّة هنا حُمّلت الادعاء الأخلاقيّ الذي أقامته المؤسسة الصهيونية التقليدية الأشكنازية الغربيّة الجذور والعقيدة، إلا أنّها، في عزّ فورتها الشاعريّة، لم تتجاوز في كثير من معانيها الحدود البراغماتيّة لذلك الادعاء: القويّ دائمًا يقيم عدالته، ولا تهزّه الأسرار؛ النصر لا يتحقّق في الميدان فقط، وإنما في السجال المعنوي، وفي إطار «القانون الدولي». أمّا كلّ ذلك الانفلات العنيف، ففرديّ أو شعبويّ في نطاقه (الجنديّ الطائش، الجماهير المنتشية بالنصر، الشعب اليهودي البليد)، ولا عقلانيّ في طابعه، ونافر عن القيم العليا للمؤسسة التي يجب أن «تتطهّر» منه. من هنا، يمكن أن نفهم المفارقة في كون هذه القصيدة واحدة من أدبيّات مفهوم «طهارة السلاح» في إسرائيل: إنها طهارة مقتضاة سلفًا، ولا يمكن أن تلطّخها الوقائع أيًّا تكن.

لنا أن نقرأ ذلك كلّه في تلك الانتقالة بين قصيدة ألترمان ومقالته: من مجازر حرب ١٩٤٨ إلى «مفاخر» حرب ١٩٦٧؛ من الدعوة إلى محاسبة «مجرمي الحرب» إلى الدعوة للهجرة واستيطان الأراضي المحتلة (وهي مصنّفة كجريمة ضدّ الإنسانية في القانون الدولي)؛ من هجاء الحرب، ببردِها ونارها، إلى التغنّي بلحظاتها الدّامية؛ من «أنسنة» الضحيّة إلى مَسرَحة اللحظات الدامية لـ«انعقاف الأظافر في اللحم» و«المشقّة» التي تتكبّدها دبابة في تمشيط الطريق. كلّ هذا النشوز والنفور في المعاني،

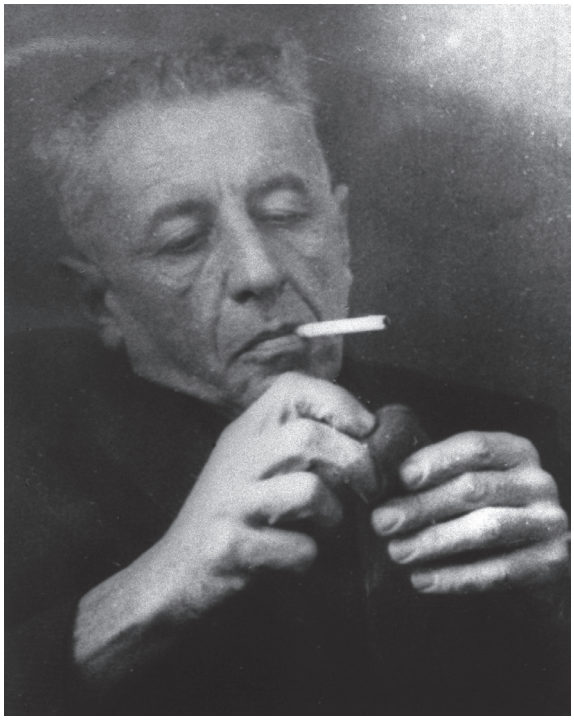

ناتان ألترمان

والإلهام العاطفي، والمبادئ، ألا يحيل في جوهره، بشكلٍ ما، إلى نشوز واضطراب المبادئ التي يقوم عليها ادعاء الصهيونيّة الأخلاقي؟

في اليوم الذي نشرت فيه القصيدة، أمر بن غوريون بتشكيل لجنة للتحقيق في أحداث مجزرة الدوايمة. وعلى الرغم من أنه أبدى إعجابه فعلًا بالقصيدة، وبعث لألترمان رسالة شكر متبوعة باستئذانه في نسخ ١٠٠ ألف طبعة منها وتوزيعها على جنود الجيش؛ إلّا أنّه من غير المعروف ما إذا كان لذلك علاقة بقرار تشكيل لجنة التحقيق. يذهب الشاعر الإسرائيلي إسحق ليئور، مثلًا، بعيدًا في استنتاجه، إذ يتكهّن بأن القصيدة كتبت بـ «تكليف مسبق»، وأنها أعدّت لـ «غاية وعظيّة». لكن بمعزل عن ذلك، لا تكهّن في القول إن القصيدة – المنشورة بالأساس في جريدة حزبيّة خاضعة للرقابة العسكرية– انحصرت في خانة البروباغاندا في اللحظة التي قرر فيها بن غوريون، بالذات، توزيعها، ومن ثمّ تخليدها في الأدبيات المؤسسة. أمّا لجنة التحقيق في مجزرة الدوايمة، فلم تخرج نتائجها إلى العلن حتى اليوم، لأنّها أسرار دولة ربّما، أو ربّما باستعارة ألترمان: «حتى لا يشاع الخبر في جت».

عن ذلك

في «جيب» عسكري طاف القرية المحتلة
ذلك الفتى الأشوس... الشبل اليافع
عجوز وزوجته اندفعا من أمامه
نحو جدار كان لمّا يزل واقفاً
على أطلال أحد الشوارع

تحسس الفتى رشاشه ونظر
قال سأجرب... وعن أسنانه اللبنية افترّ فمُه
غطّى العجوز وجهه بكفيه وانتظر
وغطّى الجدارَ دمُه
* * *
تلك لقطة من معارك الحريّة يا أعزاء
ثمّة أشاوس آخرون أيضا.. هذا ليس سرّاً!
معركتنا تقتضي الإنشاء والغناء
إذا فليُغنَّ عن ذلك أيضاً

ولتبتكر لها لغة أحلى
لتسمّى «حوادث دقيقة»
وتغنّى
مذ كان اسمها –إذا ما أزحنا البلاغةَ– قتلاً!
ولتُستعر لغة أحلى
من محادثات السمع والطاعة الهادرة
وابتسامات الاستخفاف والاعتذار الفاترة
ولتغنّى!

* * *
مهلاً
لا يقالَن: «تلك حواشٍ على صفحات ماجدة»؛
هي الجزء والكلّ
وذينك صنوان
إذا كانت الاستثناءات الصغيرة لا تشوّه القاعدة
فلماذا تظلّ حبيسة زنزانة
في عتمة النسيان؟

مهلًا
لأننا شيبًا وشبانًا
في حميًّا الثأر والغضب يسحبنا الدّرب
ممارسة أو إذعانًا
نحو قفص مجرمي الحرب
* * *
«الحرب حادّة وقاسية»
قال داعي القتال الساذج... وقاتل بشدّة
حتى صفَعَتْهُ بالقاضية
لو أنّ حكم العدل وحكم المغفرة
كانا على قدر تلك الحدّة!

وتلك الجماهير الصادحة جذلاً:
الحرب... الحرب
بينما هي سكرى بخمرة مجدها
وتلعق سمّها عسلاً
ماذا لو اكتوت بنارها وبردها
وبأحكامها العسكرية
حين تُقِيْم عدالتها
في المحاكم الميدانيّة!
* * *
سيخفت همس تلك السكينة
يوماً
وسيرى ملامحها تمّحي في عيونه
سيقف الجندي الإسرائيلي
ويتّخذ وضعيته الدفاعيّة
إزاء بلادة الجمهور العبريّ!

وحرب الأمّة التي وقفت بلا جزع

في هذا الشرق
أمام جيوش سبع ممالك
لن تجزع اليوم أيضاً من الصدق[1]
أليست جبانة إلى حد ذلك!

أمام واقع لا نظير له

١

لا يقالنّ «ليس ثمة كلمات» تعبّر عن ما يجري في هذه الأيام. ثمّة كلمات، وهي لا تزال بنات أفكار يحدّث المرء بها نفسه في أحلام اليقظة لا المنامات، ورويدًا رويدًا سوف تُثبت للخاطِر أنها تخبّر بالواقع كما هو، وليست هذيانًا. تلك الحيرة مفهومة: هذا الانتقالة غير القابلة للتكرار، والتي قلبت خطر الاندثار إلى خلاص لا مثيل له، حدثت في أقلّ من أسبوع. كانت حربًا سريعة غير مسبوقة، ولعلّ هذا ما يزيد من صعوبة إحصاء الإنجازات الجزيلة التي أورثتها لإسرائيل، إلّا أنّ تلك السرعة، بقدر ما فاجأتنا، كانت الشرط الحتمي والضمانة الوحيدة للنصر.

كان لا بدّ لذلك النصر، حتى يتحقق، من أن يحدث بسرعة البرق. القوى العالمية التي تعاطفت معنا، قولًا، لم تكن قبل هذه الحرب تحرّك ساكنًا من أجلنا، وإن كنّا منخرطين في معارك ممتدّة، وإن كانت القوات المعادية لنا ستفعل أي شيء من أجل مدّ يد العون لخصمنا.

ومع ذلك، بينما نقف اليوم مغمورين بالسعادة من سرعة هذه الحرب، لا ينبغي أن ننسى التوسّع الذي تمّ بين الساعة التي سبقتها والساعة التي أعقبتها. بين هذه وتلك لحظات لامتناهية من الجهد الخارق، والقوّة القابضة على الزناد حتى النهاية؛ لحظةُ الدبابة التي تتوقف لوهلة وتضرب على مهل ومشقة لا تقاس ما يعيقها في طريقها؛ لحظةُ الجندي الذي يتدحرج ويلتحم مع عدوّه؛ ثواني الأبدية بين الانقضاض وبين الدم؛ انعقاف الأظافر والأسنان ببطء وثقل في اللحم لحظة انغراسهما. تلك الأشياء ليست سريعة. البطء الأبدي لتلك اللحظات هو ما انطوت عليه سرعة المعركة. هي لحظات ذات مكنون واحد؛ سواء أكانت جزءًا من بضع أيام أم سنةً بتمامها. إنها قيمة مطلقة، إنها الجزئية الأبدية التي انبثق منها الزخم الكاسح، وهذا ما علينا أن نتذكّره حتّى لا نراها، مع مرور الوقت، قفزة مفاجئة أزالت عنّا رعب الاندثار بضربة واحدة. علينا أن نعرف ذلك حتّى نرى إنجازات هذه الحرب بقيمتها الصحيحة.

٢

شأن هذا الانتصار لا يتعلّق فقط بكونه أعاد العتيق والتليد من مقدّسات الأمة إلى يد اليهود؛ تلك المحفورة في ذاكرتها وأعماق تاريخها أكثر من أي شيء آخر. شأن هذا الانتصار هو في كونه ألغى فعليًّا الفرق بين دولة إسرائيل وأرض إسرائيل. إنها المرّة الأولى منذ خراب الهيكل الثاني التي تكون فيها أرض إسرائيل بيدينا. الدولة والوطن باتا جوهرًا واحدًا، وهذا الاتصال التاريخي لا ينقصه الآن سوى أن ينسج شعب إسرائيل، في ظلّ الواقع الذي تحقق، عقدته الثالثة التي لن تنقطع أبدًا. إذا بقيت أبواب الهجرة خاوية الآن، كما كانت عليه حتى يومنا هذا، فقد يظلّ هذا النصر بمثابة فعلّ لم يلتئم مع الجذور التاريخية العميقة لهذه الأمة، لأن أرض إسرائيل بدون ذلك ستبقى بين يدي سلطة يهودية، وليس بين يدي الشعب اليهودي. لذلك، حين نقول إن هذا النصر يضعنا في موضع قوّة للتفاوض مع الشعوب العربية ودول العالم، يجب أن ننتبه أيضًا إلى أنه ينبغي علينا، في كلّ الأحوال، أن نصيّر هذا النصر موقف قوّة في مفاوضاتنا مع الشعب اليهودي. استجابة الأمة لهذه اللحظة العظيمة - لا الاستجابة عبر التبرّعات النقدية وحسب- هي إقرار وشرط لا غنى عنه للحفاظ على المنطق التاريخي لهذه الأيام العظيمة. أمرٌ كهذا ينبغي أن يكون أساس شواغلنا وجهودنا من الآن فصاعدًا.

٣

جنبًا إلى جنب مع المساحات الشاسعة من التاريخ ومشاهد الطبيعة الخلّابة التي انكشفت اليوم للشعب الرابض في أرض صهيون، تكشّف له أمرٌ آخر مهمّ وأساسي: ملامحه ذاتها وهي تتبدّى أمامه في مرآة هذه الأيام. لم يقف الشعب وجهًا لوجه أمام أعدائه الذين أحاطوه من كل جانب وحسب، وإنما أمام نفسه أيضًا. بدا وكأن زوبعة الوقت قد أزاحت عن رسم تلك

١ يستدعي ألترمان هنا استعارة توراتيّة إذ يكتب حرفًا: «هذه أمّة لن تجزع فتقول: لا يشاعنَ الخبر في جت»، وهي جملة وردت على لسان النبي داوود حينما علم بمقتل صديقه الحميم يوناثان على يد الفلست، وتقال كناية عن عدم إشاعة الخبر، أو الخشية من افتضاح الأمر.

الملامح وجوهرها كلّ ما هو ثانويّ، تاركة الأساسيّات فقط، وتلك الأساسيّات كانت حِرَفيّةً وانضباطًا وجاهزيّةً صامتةً ومتيقّظةً وشجاعَة مسهِبة ومبذولة وحقيقيّة. تلك السمات تجلّت، واضحة وصارخة، في كلّ مكان؛ عبر المدن، في القرى والبلدات، في المعامل والمنازل، في الجبهة الأمامية والخطوط الخلفية. تلك الملامح تنعكس أيضًا في برقيّات الجنود إلى أهاليهم، والتي تُطبع بشكل دوريّ في الصحف، وأصبحت جزءًا لا يتجزّأ من الأخبار وعناوين الصفحات الأولى.

عند مطالعة تلك البرقيات، بدا وكأن القشور التي تغلّف النّوى قد أزيلت فجأة وظهر نسيج الحياة الحقيقي لهذا الشعب؛ النسيج المشّكّل للروابط والأواصر، للشواغل والهموم والمحبّة، للحزن والعناء المتأهبين بصمت للحظة الامتحان. كأن ستارة ما لـ«بيانو» ضخم رُفعت فتكشّفت أوتاره؛ رنّتها هي رنّة الموجودات التي تنبثق منها الحياة، وتتشكّل منها التواريخ والأمم. تشعر حين تقرأ برقيات السلام إيّاها أن عناوين الصحف الأولى، عن عمليّات وخطط مرتقبة وحرب تصريحات بين رئيس دولة فلاني ومفوضة أممية فلانية، قد تكون في الواقع ليست أكثر أهميّة، وربّما أقلّ، مما تُبلغ به مادلين زوجها: أنّها والأطفال بخير، والوالد يشعر بتحسّن أكبر، وكلّ شيء على ما يرام سوى أنّهم مشتاقون ويريدون منه أن يراسلهم. عند مطالعة تلك الصحف، ينتاب المرء شعور فجائي بأن الأمرَ ما دام متعلّقًا بأمن وحياة هذه الأمة؛ فهذا ربّما يكون حقًّا حصاد الأخبار. هو شعورٌ بأن الفرق بين خطاب مبعوث فلاني في الأمم المتّحدة وخطاب السيدة سيمونا لزوجها عن أن الجدّة انتقلت للعيش معهم، أو خطاب فيوليت–سيغليت لخطيبها تطمئنه أنها تحتفظ بالخاتم وتنتظره؛ يكمن في أن هذه الأخبار ليست عابرة ويمكن الوثوق بها أكثر: إنها مادّة غير قابلة للتلف، ومنها يتخلّق كل شيء: التاريخ، اللغة، الأدب، المعرفة والإيمان، الصناعات والمدن، الأرض والدولة. خامة هذه الأمة التي ظهرت لنا في هذه الأيام هي إحدى أعظم الإنجازات التي تحقّقت لنا، وحينما نطالب بعدم إضاعة إنجازات هذه المعركة؛ فلا بدّ من أن نشير أيضًا إلى المكتسب الجليل هذا.

٤

نقف اليوم في مستهلّ واقع جديد، وفي غضونه زمنٌ جديد ومساحات جديدة، إلا أن الماضي القريب يسعى لأن يتوغّل هنا أيضًا. بعض توابع الأنماط العامة المتزعزعة لدينا، مما قبل المعركة، تعاود الظهور اليوم. وعلى الرغم من أن حضورها يبدو مزعجًا ونافرًا في هذا الوقت، فإنها مهيّأة لأن تستحوذ على موقع جديد، وتصبح مجدّدًا جزءًا لا يتجزّأ من المشهد. لزامٌ على أحد تلك التوابع أن يقوم هنا، ذلك أنّ هذه اللحظة الكبيرة والجديدة جديرٌ بها أن تصطبغ أيضًا بلون مألوف وغير جديد.

أودّ هنا أن أقف عند الجهود المبذولة في هذا الوقت لمماهاة هذا النصر الاستثنائي مع الحكومة الائتلافية السابقة، قبل ضم «الوزراء الجدد» إليها. بالطبع، السؤال عن إمكانيّة مماهاة نصر كهذا مع حكومة ما أو أفراد بعينهم يبقى إشكاليًا، لكن من جانب آخر يمكن تفهّم هذه الجهود؛ فبمعزل عن العوار الذي يعتريها، هي تبقى نتيجة طبيعية للظروف. الحقيقة هي أن الحكومة الائتلافية كانت، قبل توسيعها، في وضعيّة لا ترغبها أي حكومة في العالم تعيش حالة طوارئ. للمرة الأولى في تاريخ دولة إسرائيل، لم يكن الشعب مؤمنًا بحكومته، ولا يثق في قدرتها على التعامل مع متطلّبات المرحلة. انعدام الثقة هذا لم يكن حزبيًا، بل عامًا، شعبيًا، ملموسًا، قائمًا ميمنة وميسرة، وعبئًا كان بعض المعلّقين يطالب، ولا يزال حتى اليوم، باعتبارها ثمار «نبش» وخراب. وكردّة فعل طبيعية، يسعى بعض أعضاء الائتلاف الحاكم السابق، تبعًا لذلك، إلى الادعاء الآن بأن انعدام الثقة ذلك كان سلوكًا خاطئًا، وأنهم ببساطة ضَمّوا إلى الحكومة من ضمّوا من أجل تدعيمها. هذا هو مصدر الآراء المندفعة والمشحونة التي يطلقها أعضاء الائتلاف السابق هذه الأيام أمام حشود كبيرة، مستدعين بذلك أهليّة وقوّة ونصر الجيش الإسرائيلي كدليل على أن انعدام الثقة في الحكومة السابقة كان نتيجة خطأ وتحريض.

علي أن أوضح هنا، تجنّبًا لسوء الفهم، أنني لا أقول إن عقد المحاسبات أمرٌ ليس في مكانه أساسًا في هذا التوقيت. ما هو ليس في مكانه في عمليّة المحاسبة تلك لا يتعلّق بالتوقيت، بل بكونها ليست محاسبة نزيهة. المحاسبات المحقّة كلّ الأوقات محبّبة لها، أمّا المحاسبات المحرّفة فهي ناشزة دائمًا وناشزة في هذا الوقت.

من الصعب أن نفهم كيف تقتحم شخصيات عامّة جدّية أبوابًا مفتوحة على مصراعيها محدّثة الجماهير بأن الخطط العملياتية للجيش الإسرائيلي كانت معدّة «حتى قبل دخول الوزراء الجدد». هل يصدّقون في قرارة أنفسهم حقًّا أن الجمهور كان يعتقد أن الجيش لم تكن لديه خطط عمليات معدّة حتى ما قبل يومين أو ثلاثة من المعركة؟ يبدو

أنه بوسعنا أن نرجّح عن يقين، حتّى من دون أي معلومات معتمدة، أن مثل تلك الخطط كانت قائمة ليس فقط قبل دخول موشيه ديان إلى الحكومة كوزير للدفاع، بل قبل وصول وزراء الإسكان والنقل والعمل إلى المنصب، بل حتى منذ عهدة رئيس الأركان السابق. أكثر من ذلك: بوسعنا أن نفترض أنّ تلك الخطط، بالنظر إلى الظروف المتوقّعة دائمًا وإلى الظرف الجيوسياسي الذي كنا منغمسين فيه تسعة عشر عامًا، هي ليست أمورًا متروكة لتغيّرات مؤسسية أو اختلافات في المقاربات والرؤى، لقد أخطأ عاقدو المحاسبات في اعتقادهم أن عدم الثقة الذي شعر به الناس تجاه حكومتهم كان أيضًا عدم ثقة بالجيش الإسرائيلي وخططه. لم يشكك الشعب في كفاءة الجيش، بل في كفاءة الحكومة، وبالأخص في كفاءة رئيس الحكومة أن يكون وزير دفاع كفؤًا بالنسبة للجيش في أيام الاختبار العصيبة هذه. المسألة هنا ليست متعلّقة بطبيعة الخطط التي أعدّت على يد رئيس الأركان وموظفيه؛ أنا أكيدٌ بأنها كانت الأفضل من بين الخطط التي يمكن أن تخطر في البال، ولكن حين يقول وزراء ذوو سمعة حسنة، بكلّ جديّة، إن وزير أمنٍ مثل موشيه ديان لم تكن له يد في تنفيذ تلك الخطط، أو تنقيحها وملاءمتها وفقًا لمتطلّبات الظرف الحالي، فإنهم يبدون كعابثين. الشعب الذي طالب بتعيين موشيه ديان لم يطالب به بديلًا لرئيس الأركان، وإنما كوزير أمن؛ كقبضة قوية وموثوقة وجديرة، يجب أن تكون في هذا التوقيت على رأس أجهزة إسرائيل. أولئك الذين يتحدّثون بالفم الملآن عن أن ضمّ وزير الدفاع لم يكن إلّا لإضافة ثقل معنويّ، يسعون عبثًا لتشويه واقع أقوى منهم بكثير.

في الواقع، الأخطر من التهافت على تحوير انضمام ديان للحكومة إلى أمر زائد جاء كاستجابة لنزوة عامّة وحسب، هو نظام الدعاية المتشعّب الذي يسعى لتلقين الناس ما هو أبعد من ذلك؛ أن قوّة جيش إسرائيل المنتصر في المعركة هي في المجمل ثمرة جهود حكومة أشكول. على هذا النحو، نجد في إحدى صحف الائتلاف الحكومي، مثلًا، أنه «إذا كان الجيش الإسرائيلي قد أُسنِد وسلّح بشكل مضاعف؛ فذلك بفضل وزير الدفاع ليفي أشكول». حين تسمع، علاوة على ذلك، من وزير العمل أن انتصار الجيش تحقّق بفضل سياسة المشتريات لحكومة أشكول، التي تركّزت على صقل سلاحي المدفعية والجو، فإنك لا تتساءل عن المقصد فقط، بل عن فحوى الحديث نفسه، والذي إزاءه سيجد حتّى أنصار «المعراخ» الأوفياء صعوبة في تصديق أن ما قدّمه بن غوريون ومساعدوه لإسناد الجيش وصقله وتسليحه على مدار ست عشرة سنة يتلخّص في «أفعال حرب التحرير العظيمة». يجدر بأتباع «المعراخ» الموثوقين أن يفكّروا مليًّا، أيضًا، في أن تلك الآلة الضخمة للجيش لم تتعزّز فقط على مدار ستّ عشرة سنة على يد وزير الصحة ووزير النقل ووزير العمل - الذين هم في الواقع الوزراء الجدد في هذا السياق- وإنّما أيضًا، وربّما بالأساس، على يد أشخاص ليسوا اليوم في الحكومة، ومنهم تسلّمت حكومة أشكول آلة الجيش الضخمة، التي رُفدت ووطّدت، على نحو واسع، على الرغم من التحفظات الصريحة للوزراء الذين يقدّمون اليوم شروحاتهم عن مصدر النصر.

مثل تلك الأشياء يجب أن تقال في هذا التوقيت، ليس تصحيحًا لحساب الاستحقاقات بين شخص وآخر، ولكن بالأساس لمنع أي تشويه وتحريف لوقائع حقبة كاملة في تاريخ تمتين إسرائيل. مثل تلك التحريفات هي من الأشياء التي حان الوقت لرميها خلفنا على بوابات هذا الزمن الجديد الذي نقف على أعتابه اليوم.

أشرف بدر *

حكومة الضم الإسرائيلية:
تغيير في الشكل لا في الجوهر

الخلاصة

تسعى هذه المقالة إلى التعرف على تركيبة الحكومة الإسرائيلية الـ ٣٥، وتحليل أهم بنود اتفاق الائتلاف الحكومي، والخطوط العريضة لسياسات الحكومة المكونة من تكتلي الليكود (برئاسة بنيامين نتنياهو)، وأزرق أبيض (برئاسة بيني غانتس). ستحاول المقالة الإجابة على عدة أسئلة في مقدمتها: ما هي الخطوط العريضة لهذه الاتفاقيات، ولهذه الحكومة؟ وما هي أهم دلالاتها، وما هي انعكاساتها المستقبلية المتوقعة؟. ستنتهج المقالة مقاربة تحليلية لوثائق ومواد أولية تم نشرها على موقع الكنيست الإسرائيلي، وتحوي بنود الاتفاق بين الطرفين، بالإضافة إلى الخطوط العريضة لسياسات الحكومة الـ ٣٥، وكذلك الاتفاقيات الائتلافية مع بقية الأحزاب المشكلة لحكومة (نتنياهو/ غانتس)، وهي: شاس، يهودات هتوراة، البيت اليهودي، غيشر، العمل، ديرخ ارتس. تخلص المقالة إلى أن الاتفاق الائتلافي للحكومة الحالية يدفن صيغة حل الدولتين، وبأنّ التغيير الحاصل بتشكيل حكومة (نتنياهو/غانتس) هو تغيير في شكل الحكومة، التي لا تختلف في جوهرها عن الحكومات اليمينية التي قادها نتنياهو سابقاً.

مدخل

وقّع حزبا الليكود (التجمع) برئاسة بنيامين نتنياهو، وكحول لافان (أزرق- أبيض) برئاسة بيني غانتس بتاريخ ٢٠٢٠/٤/٢٠؛ على اتفاق لتشكيل الحكومة الإسرائيلية الـ ٣٥، تحت مسمى

* طالب دكتوراه في العلوم الاجتماعية بجامعة بيرزيت.

تتم الإشارة في مقدمة الاتفاق الائتلافي إلى الاهتمام بوضع خطة اقتصادية للتغلب على آثار كورونا، والاهتمام بالفئات الضعيفة في المجتمع. بعد استعراضنا لبنود الاتفاق لا نجد أي تفصيل لهذه الخطة، وحتى بعد الإعلان عن الخطوط العريضة لسياسات الحكومة، لم يتم التطرق للتفاصيل، وإنما تم استخدام عبارات عامة تدور حول التصدي لآثار كورونا.

«حكومة الطوارئ والوحدة الوطنية»، تبع ذلك الإعلان عن الخطوط الأساسية لحكومة نتنياهو/ غانتس، والاتفاقيات مع الأحزاب التي انضمت للائتلاف الحكومي، ما يثير عدة أسئلة في مقدمتها: ما هي الخطوط العريضة لهذه الاتفاقيات، ولهذه الحكومة؟ وما هي أهم دلالاتها، وما هي انعكاساتها المستقبلية المتوقعة؟

ستحاول هذه المقالة الإجابة على هذه الأسئلة من خلال تحليل مادة أولية تحوي بنود الاتفاق الائتلافي بين الليكود وأزرق أبيض.[1]

بالإضافة إلى تحليل بنود الخطوط العريضة لسياسات الحكومة الـ ٣٥،[2] وكذلك الاتفاقيات المبرمة مع الأحزاب المشكِّلة للحكومة، والمنشورة على موقع الكنيست الإسرائيلي.

تمأسس الاتفاق بين الطرفين على فكرة ائتلاف بين تكتلين حزبيين. بحيث تتشكل الحكومة من تكتليّ الليكود وأزرق – أبيض، فيتم تقاسم المناصب المهمة في الحكومة والكنيست والمؤسسات المختلفة مناصفة. على أن تأخذ كل كتلة برلمانية تنضم للائتلاف حصتها من المناصب بحسب التكتل الذي تنضم إليه، فقد انضم حزب العمل لتكتل أزرق – أبيض، مقابل حقيبتين وزاريتين، فيما انضم ديرخ أرتس لتكتل أزرق أبيض مقابل حقيبة وزارية. في المقابل انضمت أحزاب اليمين شاس ويهودات هتوراة والبيت اليهودي وغيشر لتكتل الليكود، مقابل حصة متفق عليها من الحقائب الوزارية.

بني الائتلاف الحكومي الـ ٣٥ على فكرة حكومة تناوبية طوال الفترة الممتدة على ثلاث سنوات، ويمكن أن تمدد لسنة رابعة، على أن تكون الحكومة في الأشهر الستة الأولى حكومة طوارئ، ومن بعدها تتحول إلى مسمى حكومة وحدة وطنية. يتناصف فيها الطرفان الحقائب الوزارية الـ ٣٢، ويتم فيها التناوب على موقع رئيس الوزراء بين حزبي الليكود وأزرق – أبيض، بحيث يتولى رئيس الليكود (نتنياهو) موقع رئيس الوزراء في الفترة الأولى الممتدة لسنة ونصف (١٨ شهر)، والتي يشغل فيها رئيس أزرق – أبيض (غانتس) موقع نائب رئيس الحكومة ووزير الخارجية. وبعد انتهاء الفترة الأولى يتبادل الاثنان مواقعهما؛ بحيث يصبح غانتس رئيس الوزراء للمدة المفترض تبقيها من عمر الحكومة وهي سنة ونصف، ويتولى نتنياهو موقع نائب رئيس الحكومة، ووزير الخارجية.

يقع الاتفاق الائتلافي في ٢٥ صفحة، ويحوي مقدمة و٤١ بندا بالإضافة إلى ملحقين. تتناول المقدمة ظروف تشكيل الحكومة، التي جاءت للاستجابة لتحديين؛ أولهما: حالة الطوارئ المتمثلة في انتشار فيروس كورونا، والتعامل مع آثاره الصحية والاجتماعية والاقتصادية. وثانيهما: معالجة الشرخ الموجود في المجتمع الإسرائيلي والمحافظة على الدولة. يدرك كلا الطرفين بأن الجولات الانتخابية الثلاث التي تم إجراؤها على مدى أكثر من عام ونصف، عمقت من الشروخات المجتمعية وخلقت حالة من الاستقطاب في المجتمع الإسرائيلي، فكانت الكورونا بمثابة سلم لنزول كليهما عن شجرة التمنع عن الدخول في حكومة ائتلافية، التي لم يكتب لفكرتها النجاح في الجولات السابقة، فكل طرف كان يراهن على انتخابات إضافية مبكرة، على أمل أن تفرز خارطة حزبية مختلفة، لكن على أرض الواقع لم تتغير هذه الخارطة بشكل جوهري على مدى الدورات الانتخابية، ولم يستطع أي تكتل حسم النتيجة لصالحه، ما أوصل الطرفين إلى قناعة بوجوب الخروج من هذا الطريق المسدود، والاتفاق على حكومة ائتلافية.

يتم الإشارة في المقدمة إلى الاهتمام بوضع خطة اقتصادية للتغلب على آثار كورونا، والاهتمام بالفئات الضعيفة في المجتمع. بعد استعراضنا لبنود الاتفاق لا نجد أي تفصيل

لهذه الخطة، وحتى بعد الإعلان عن الخطوط العريضة لسياسات الحكومة، لم يتم التطرق للتفاصيل، وإنما تم استخدام عبارات عامة تدور حول التصدي لآثار كورونا. اللافت للانتباه التنويه في مقدمة الاتفاق على أن لا تسن حكومة الطوارئ أي قوانين في فترة الطوارئ الممتدة لستة أشهر، خارج إطار التصدي لجائحة كورونا، وقد يكون المغزى من ذلك رغبة أزرق – أبيض في قطع الطريق على نتنياهو في سن قوانين تخدمه بشكل شخصي. لكن هذا الأمر اعترضت عليه محكمة العدل العليا الإسرائيلية، وطلبت تعديل ما نص عليه الاتفاق من تأجيل وضع الخطوط الأساسية للحكومة لما بعد تأديتها القسم في الكنيست، ونوهت إلى وجوب أن يشمل عمل الكنيست في فترة الطوارئ سن جميع القوانين بصرف النظر إن كانت تتعلق بالتصدي لكورونا أم لا.[٣] حصل ذلك على إثر الالتماس الذي تقدمت به بعض الأحزاب والمؤسسات، اعتراضاً على تشكيل حكومة ائتلافية ستجعل من نتنياهو رئيسا للوزراء في الوقت الذي يتعرض فيه للمحاكمة بتهم تتعلق بالفساد.[٤] أيضاً اعترضت المحكمة على ما ورد في الاتفاق (بند ٣ فرع ج)، من عدم توظيف مسؤولين كبار جدد (كمدراء الوزارات ووكلائها) حتى انتهاء فترة الطوارئ (٦ أشهر)، وأوصت المحكمة بتقصير المدة إلى ١٠٠ يوم. وبالفعل تعهد الائتلاف الحاكم في رسالة رسمية موجه للمحكمة بالأخذ بهذه الملاحظات، (وضع الخطوط الأساسية للحكومة قبل أدائها القسم، عدم الاقتصار على سن قوانين خاصة بكورونا، وتقصير مدة عدم إحداث تعيينات جديدة إلى ١٠٠ يوم)؛ وذلك في معرض رده على الالتماس المقدم ضده.[٥]

يمكننا القول، ومن خلال تحليل بنود الاتفاق بين الطرفين، إنه يتوزع على خمسة محاور (سيتم التطرق لها لاحقاً). أولها: يتعلق بتوزيع المناصب بين الطرفين، بحيث يتم تقاسمها بشكل متساو. أمّا المحور الثاني فيتعلق بصياغة اتفاقيات مستقبلية سيتم العمل على إنجازها على قاعدة التوافق، وتتعلق بمسؤولي المؤسسات الوطنية غير المنبثقة عن الحكومة. يدور المحور الثالث حول العمل المشترك على سن قوانين جديدة وتعديل بعض القوانين القائمة. في المحور الرابع نجد إشارة إلى برنامج الحكومة فيما يتعلق بتنفيذ ضم بعض مناطق الضفة الغربية. آخر المحاور يمكننا تصنيفه تحت مظلة آليات عمل الحكومة، والحالات التي قد تؤدي لسقوط الحكومة.

فيما يتعلق بالملاحق: نجد الملحق الأول الذي ينص على آلية عمل الحكومة الائتلافية، ويتعرض لتعريف الائتلاف الحكومي المزمع عقده، ومهام رئيس الائتلاف، والالتزامات المترتبة على أعضاء الكنيست الذين تشارك أحزابهم في الائتلاف الحكومي، وآلية اقتراح القوانين وسنها (التي تكون بالتوافق)، وتوزيع المناصب في الائتلاف الحكومي. أمّا الملحق الثاني فهو عبارة عن مقترح قانون سيقدم للكنيست يختص بتعديل قانون تشكيل الحكومة بحيث تتم مواءمته مع فكرة الحكومة التناوبية، يتضمن مقترح القانون الذي سيصوت الطرفان على تمريره في الكنيست على عدة بنود، بعضها عبارة عن تعديلات على بنود أصلاً موجودة لكنها تتعارض مع فكرة حكومة التناوب، فيما يتم إضافة بنود أخرى جديدة لخدمة الهدف نفسه. كما يتضمن التعديل الحالات التي قد تقود إلى إجراء انتخابات كنيست مبكرة.

فيما يتعلق ببنود وثيقة الخطوط العريضة لسياسات الحكومة الـ ٣٥، فهي تقع في صفحتين ومكونة من ١٤ بنداً. تتوزع على محورين؛ أولهما: كيفية التعامل مع فيروس كورونا، وضم خمسة بنود فضفاضة لا تحوي رؤية تفصيلية. وهي أشبه ببرنامج انتخابي أكثر من شبهها ببرنامج حكومة، فالمحور يحوي وعودا بتشكيل لجان لوضع خطط توفر شبكة أمان اجتماعي للمتضررين من كورونا، ومحاولة التعامل مع الآثار الاقتصادية السلبية لكورونا على القطاع الخاص، من خلال تشجيع الاستثمار وتعزيز المنافسة، وإزالة الحواجز البيروقراطية من أمامها. أمّا المحور الثاني فيحوي ٩ بنود، وتدور حول حق «الشعب اليهودي» في دولة ذات سيادة في أرض إسرائيل، «الوطن القومي والتاريخي للشعب اليهودي». والحفاظ على «الطابع اليهودي للدولة». والعمل بجد من أجل زيادة هجرة اليهود من جميع دول العالم إلى إسرائيل. وتعزيز الاستيطان في «جميع أنحاء البلاد»، بالترافق مع العمل على تطوير النقب والجليل.

أولاً: توزيع المناصب

أ) الوزارء ونوابهم

نص البند ١٢ على أن الحكومة تتكون من ٣٢ وزيرا يتم تقاسمهم مناصفة بين التكتلين، على أن تتم إضافة ٤ (بالمناصفة) بعد انتهاء فترة الطوارئ. وأشار البند ١٣ فرع أ) إلى أن لكل تكتل الحق في تعيين ٨ نواب للوزراء، ويمكن (بحسب البند ب) تعيين ٢ من كل تكتل في وزارة لا تتبع للتكتل نفسه بعد التوافق مع الوزير المعني. لكن هذا الترتيب تغير عند تم عرض الحكومة على الكنيست لنيل الثقة وأداء القسم، لتصبح الحكومة مكونة من ١٨ وزيرا من تكتل الليكود بالإضافة إلى نتنياهو، و١٤ وزيرا من تكتل أزرق أبيض بالإضافة إلى غانتس، وليصل عدد أعضائها إلى ٣٤ وزيرا. فيما يلي توزيع الوزارات بين التكتلين:[٦]

تكتل الليكود	الوزير/ حزبه	تكتل أزرق- أبيض	الوزير/ حزبه
المالية	يسرائيل كاتس/ الليكود	نائب رئيس الوزراء في الفترة الأولى ورئيس الوزراء في الفترة الثانية	بيني غانتس/ أزرق أبيض
الخارجية «في الفترة الثانية»	نتنياهو/ الليكود	الخارجية في الفترة الأولى	غابي أشكنازي/ أزرق أبيض
الأمن الداخلي	أمير أوحانا/ الليكود	الدفاع	غانتس في الفترة الأولى أشكنازي في الفترة الثانية
التعليم	يوآف غالنت/ الليكود	العدل (القضاء)	آفي نيسنكرون/ أزرق أبيض
الداخلية	آرييه درعي/ شاس	الاقتصاد	عمير بيرتس/ العمل
المواصلات	ميري ريغف/ الليكود	الزراعة	ألون شوستر/ أزرق أبيض
الاعمار والاسكان	يعكوف ليتسمان/ يهودات هتوراة	العمل والرفاه	ايتسيك شمولي/ العمل
الصحة	يولي ادلشتين/ الليكود	الإعلام	يوعز هندل/ ديرخ آرتس
الخدمات الدينية	يعكوف ابيتان/ شاس	الهجرة والاستيعاب	بنينه تمنو شطه/ أزرق أبيض
الطاقة	يوفال شتانيتس/ الليكود	التربية والرياضة	حيلي تروفر/ أزرق أبيض
حماية البيئة	جيله جملايل/ الليكود	وزير في وزارة الدفاع	ميكال بيتون/ أزرق أبيض
شؤون المخابرات	ايلي كوهن/ الليكود	الشتات	عومر ينكلبيتس/ أزرق أبيض
التعاون الإقليمي	جلعاد أردان/ الليكود	العلوم والتكنولوجيا	يزهر شاي/ أزرق أبيض
الاستيطان	تسفي حوطوبلي/ الليكود	الشؤون الاستراتيجية	أوريت فركش، هكوهن/ أزرق أبيض
القدس والتراث	رافي بيرتس/ البيت اليهودي	المساواة الاجتماعية	ميراف كوهن/ أزرق أبيض
شؤون الكنيست	دودي امسلم/ الليكود	السياحة	آسف زمير/ أزرق أبيض
وزارة تمكين وتعزيز المجتمع	أورلي ليفي، أباكسيس/ غيشر		
التعليم العالي والمياه	زئيف ألكين/ الليكود		
وزير في مكتب رئيس الوزراء	تساحي هنغبي/ الليكود		

- وزارة الطاقة أو البيئة في الفترة الثانية ستكون بالتوافق بين الطرفين. فيما يتولى الليكود المسؤولية عن الخدمة الوطنية، الاستيطان، مركز الإعلام، بينما يتولى أزرق – أبيض شؤون الناجين من المحرقة، والبدو، وذلك بحسب البند ٢٧.
- حصل حزب شاس على ثلاثة نواب وزراء: المالية والداخلية والرفاه/ الخدمات الاجتماعية.[٧]
- حصل يهودات هتوراة على نائبي وزير، في وزارة النقل (تولي المسؤولية عن الوسط الحريدي في هذه الوزارة)، ووزارة التربية والتعليم.[٨]

يلاحظ بأنه تمت الإشارة في البند ٢١ إلى أنّ وزير العدل (أزرق – أبيض) سيترأس اللجنة الوزارية لسن القوانين، وسيكون نائبه من الليكود، بحيث يتم تقاسم عدد المنتسبين للجنة. سيتم سن القوانين بالتوافق، ولا يتم المصادقة من قبل الائتلاف الحكومي على أي قانون في الكنيست ما لم يتم التوافق عليه في اللجنة. فعلياً يؤشر هذا البند على تحكم أزرق- أبيض بهذه اللجنة، رغم تساوي عدد الأعضاء من التكتلين، إلا أنه وكما هو متعارف عليه، عند تساوي الأصوات، رئيس اللجنة هو المرجح. يبدو أنّ غانتس يريد ضمان سن قوانين لا تتعارض مع مصالحه أو تطلعاته المستقبلية، وفي الوقت نفسه ألا يقع فريسة لمزاج نتنياهو الذي قد يعمل على سن قوانين تخدمه وتخدم حزبه. والأهم من هذا أن وزير العدل سيقع على عاتقه تعيين المدعي العام الجديد والذي سيتولى بدوره متابعة القضايا المرفوعة ضد نتنياهو.

يلاحظ بأنه تمت الإشارة في البند ٢١ إلى أنّ وزير العدل (أزرق - أبيض) سيترأس اللجنة الوزارية لسن القوانين، وسيكون نائبه من الليكود، بحيث يتم تقاسم عدد المنتسبين للجنة. سيتم سن القوانين بالتوافق، ولا يتم المصادقة من قبل الائتلاف الحكومي على أي قانون في الكنيست ما لم يتم التوافق عليه في اللجنة.

ب) الكنيست ورؤساء اللجان

يوجد في الكنيست أربعة أنواع من اللجان:» **لجان الكنيست الدائمة** التي يبلغ عددها اليوم ١٢، وتضم اللجان التالية: لجنة الكنيست، لجنة المالية، لجنة الشؤون الاقتصادية، لجنة الخارجية والأمن، لجنة الداخلية وشؤون البيئة، لجنة الدستور والقانون والقضاء، لجنة الهجرة والاستيعاب، لجنة المعارف والثقافة، لجنة العمل والرفاه، لجنة شؤون مراقبة الدولة، لجنة تعزيز مكانة المرأة، لجنة شؤون الأبحاث والتطوير العلمي والتكنولوجي. **اللجان لموضوع معين** كاللجان الدائمة إلا أن فترة ولايتها محددة . **اللجان الخاصة**: وهي لجنة آداب المهنة («إتيكا») ولجنة التفاسير، ولهما وضع دائم يختلف عن وضع اللجان الدائمة. **ولجان التحقيق** البرلمانية التي تفوض الصلاحية إليها على أساس قرار الكنيست بكامل هيئتها».[٩]

تم الاتفاق بين طرفين الائتلاف الحكومي على تولي الليكود رئاسة الكنيست (البند ١٦)، بحيث يستقيل غانتس من الرئاسة ويتولى بدلاً منه مرشح الليكود (ياريف ليفين) الرئاسة طوال فترة الدورة الحالية للكنيست. كما تم الاتفاق بين الليكود وشاس على تولي شاس موقع نائب رئيس الكنيست (بحسب البند ١٦)، وكذلك تولي حزب يهودات هتوراة موقع النائب الثاني لرئيس الكنيست لمدة ٢٨ شهر. أمّا بالنسبة لترؤس لجان الكنيست فسيكون التوزيع كالتالي:

الليكود	رئاسة اللجنة	أزرق – أبيض	رئاسة اللجنة
المالية	يهودات هتوراة	الخارجية والأمن	يوعز هندل/ ديرخ آرتس[١٠]
سن القوانين والقضاء	يهودات هتوراة	الداخلية وحماية البيئة	أزرق أبيض
لجنة شؤون الكورونا	الليكود	التعليم	أزرق أبيض
العمل والرفاه	الليكود	الكنيست	أزرق أبيض
الهجرة والاستيعاب	شاس[١١]	العلم والتكنولوجيا	أزرق أبيض
الاقتصاد	شاس	المرأة	أزرق أبيض
المخدرات	الليكود	الطفل	أزرق أبيض

يستنتج من هذا التوزيع بأنّ هنالك محاولة من طرفي الائتلاف الحكومي للموازنة مع توزيع الوزارات، بمعنى أنّ يتولي تكتل الليكود رئاسة اللجان البرلمانية المرتبطة بعمل بعض الوزارات التي يتولاها تكتل أزرق – أبيض، كما هو ظاهر في لجان (سن القوانين والقضاء، العمل والرفاه، الهجرة والاستيعاب، الاقتصاد). والعكس صحيح فيما يتعلق بأزرق

يستنتج من هذا التوزيع بأنّ هنالك محاولة من طرفي الائتلاف الحكومي للموازنة مع توزيع الوزارات، بمعنى أنّ يتولي تكتل الليكود رئاسة اللجان البرلمانية المرتبطة بعمل بعض الوزارات التي يتولاها تكتل أزرق - أبيض، كما هو ظاهر في لجان (سن القوانين والقضاء، العمل والرفاه، الهجرة والاستيعاب، الاقتصاد). والعكس صحيح فيما يتعلق بأزرق – أبيض.

– أبيض من خلال توليه (الخارجية والأمن، الداخلية وحماية البيئة، التعليم، الكنيست).

ج) السفراء

تم الاتفاق على أنّ يكون تعيين سفير إسرائيل في الولايات المتحدة الاميركية بيد رئيس الوزراء في مدته، بمعنى أنه يمكن لغانتس عند توليه رئاسة الحكومة تغيير السفير(بند ١٨). بينما يتولى رئيس الوزراء في الفترة الأولى (نتنياهو) تعيين سفراء إسرائيل في: الأمم المتحدة، لندن، باريس، كانبره، وبحسب الاتفاق لا يتم استبدالهم في الفترة الثانية عند تولي غانتس رئاسة الحكومة (بند ١٩). فيما نص الاتفاق بين أزرق أبيض وحزب العمل على أن يكون هنالك ممثل عن العمل كسفير أو قنصل في أحد الدول البارزة (بند ١٩). نلاحظ هنا حرص نتنياهو (الليكود) على التحكم بتعيين السفراء في الدول المحورية، في محاولة للتحكم بالسياسة الخارجية، والحد من تأثير أزرق أبيض في أثناء توليه حقيبة الخارجية.

ثانياً: اتفاقيات مستقبلية خاصة باللجان والمجالس المؤسسات الوطنية

بحسب البند ٢٥ فإنّ الطرفين سيعملان على صياغة اتفاق ائتلافي فيما يتعلق بالمؤسسات الوطنية، وتحديد المسؤولين عنها بالتوافق. والمقصود هنا بالمؤسسات الوطنية: (الهستدروت الصهيوني العالمي+ الوكالة اليهودية+ الكيرين كاييمت+ كيرين يسود)، وجميعها مؤسسات تابعة للحركة الصهيونية. هذا البند سيخدم أزرق – أبيض مستقبلاً، لأنّه سيوفر له موطئ قدم في مؤسسات مهمة ومؤثرة.

فيما يتعلق بلجنة تعيين القضاة والتي تتشكل وفقاً للقانون الأساس من تسعة أعضاء برئاسة وزير العدل، بحسب التقسيم التالي: وزير ثانٍ من اختيار الحكومة. وعضوان في الكنيست يختارهما أعضاء الكنيست عبر التصويت السري، وعضوان من نقابة المحامين يتم انتخابهما في اقتراع سري. وكذلك رئيس المحكمة العليا، وقاضيان آخران في المحكمة العليا. يتطرق البند ٢٦ إلى لجنة تعيين القضاة، بحيث يشغل ممثلو الائتلاف الحكومي المقاعد المخصصة في اللجنة للكنيست والحكومة، بحيث يكون من طرف الحكومة وزير العدل ووزير من طرف الليكود، وعضوا الكنيست أحدهما من الليكود والثاني من أزرق – أبيض. وقد أثار هذه البند سخط المعارضة، كما ورد في الالتماس الذي رفعوه للعليا لإبطال الاتفاق، مجادلين بأنه جرت العادة في تشكيل اللجنة، على أن يتوزع ممثلو الكنيست في اللجنة على ممثل للائتلاف الحاكم وممثل عن المعارضة.[١٢] لكن العليا لم تأخذ بهذا الاعتراض على اعتبار أنه لا يوجد قانون يمنع ذلك.

كل المجالس والاتحادات (والتي تعتبر غير تابعة للحكومة) ولكن الحكومة تتدخل في تعيينها، يتم تقاسمها بشكل متساوٍ بين الطرفين (البند ٣١).

ثالثا: القوانين

اتفق الطرفان على سن وتعديل عدة قوانين عدا عن قانون الحكومة، وهي: القانون النرويجي، وقانون التجنيد، وقانون الميزانية، وتطوير قانون كيمنتس.

أ) قانون التخطي النرويجي:[١٣] نص البند ١٧ على تمرير القانون النرويجي، لكن العليا أعربت في قرارها عن إشكالية سن مثل هذا القانون، بالنظر إلى كونه

تغييرا بأثر رجعي في قواعد اللعبة والحق في الاختيار والانتخاب.[١٤] حيث نص القانون المقترح على استبدال الوزير المستقيل من الكنيست من حزب أزرق – أبيض بعضو من الحزب نفسه، وهذا يعني ضمناً منع أي عضو من حزب «يوجد مستقبل» من أن يحل محل الوزير المستقيل. الإشكالية تكمن في أنّ أزرق – أبيض تشكل من ائتلاف بين ثلاثة أحزاب، مناعة اسرائيل برئاسة غانتس، مع حزبي يوجد مستقبل وتيلم، لكن غانتس انشق عنهما بعد إبرامه للاتفاق مع الليكود، وحمل اسم أزرق أبيض، بينما تسمى الحزبان باسم يوجد مستقبل– تيلم. فيما سبق نص الاتفاق الائتلافي بين الأحزاب الثلاثة على تشكيل قائمة انتخابية مكونة من الأحزاب الثلاثة. وبالتالي إذا استقال عضو من أي حزب كمناعة إسرائيل فسيحل محله في الكنيست عضو من حزبي يوجد مستقبل وتيلم.[١٥] بناءً على ملاحظة العليا أرسل الائتلاف الحكومي رده للمحكمة، والذي يوضح فيه بأنّ القانون لم تتم صياغته بعد، وأن هنالك لجنة لصياغة القانون ستأخذ ملاحظات المحكمة بالاعتبار، وبالتالي فإنّ أداء الحكومة لقسمها غير مرتبط بسن القانون.[١٦] لكن وبحسب الاتفاقيات المبرمة فيما بعد بين الليكود وكل من شاس ويهودات هتوراة (البند ٢١)، فإنّ القانون النرويجي مطروح في الأجندة التشريعية لتكتل الليكود، وسيتم العمل على «تطويره» بما يتناسب مع وضع تكتل أرزق أبيض.

ب) قانون التجنيد: نص البند ٢٤ من الاتفاق بين التكتلين على سن قانون التجنيد بحسب مقترح الجيش ووزارة الدفاع، وبحسب أهداف التجنيد، بحيث يحدد بقرار من الحكومة وليس بقانون أساس، ليتم التوافق مع القانون الذي تم اقتراحه في شهر تموز ٢٠١٨ ، والذي ينص على فرض عقوبات مخففة على المؤسسات التي يتعلم فيها رافضو الخدمة العسكرية من المتدينين، وليس على رافضي الخدمة كأشخاص، وكذلك على إعفائهم من العقوبات في السنوات الثلاث الأولى.[١٧] سيتم بحسب البند ٢٤ تأجيل المواعيد السابقة بما فيها القراءة الثالثة للقانون في الكنيست حتى يعدل، حيث يتم البحث إذا قل عدد المجندين الفعليين لسنة التجنيد ٢٠٢٢ عن نسبة ٨٥٪ ولمدة ٣ سنين متوالية، بحيث توضع خطة لسنتين، وتتم صياغة القانون بحسب اقتراح وزير الدفاع بالاتفاق مع الكتل البرلمانية في الائتلاف. يجب الإشارة هنا إلى أنه وبحسب الاتفاق بين الليكود وحزبي شاس ويهودات هتوراة (بند ١٠) وكذلك البيت اليهودي (بند ٧)،[١٨] لن يتم سن قانون للتجنيد يخالف اتفاقية «الوضع الراهن» التي تتضمن إعفاء دارسي التوراة من الخدمة العسكرية.

ج) قانون الميزانية: جرت العادة في إسرائيل على تقديم الحكومة لميزانية سنوية، لكن الاتفاق الحالي يشير في البند ٣٠ إلى السعي نحو تقديم ميزانية لسنتين، بحيث يتم خلال ٩٠ يوما من تأدية الحكومة للقسم تقديم ميزانية للسنتين (٢٠٢٠+٢٠٢١). وإذا لم يتم الاتفاق على ميزانية ٢٠٢١ يتم الرجوع للخطة الأساسية، وفي نهاية ٢٠٢٢ سيتم إقرار ميزانية ٢٠٢٣ . وفي حال لم يتم الاتفاق على الميزانية بين كتل الائتلاف الحاكم سيبت في ذلك رئيس الوزراء ونائبه. وفي حال عدم إقرار الميزانية خلال ستة أشهر تحل الحكومة وتجرى انتخابات مبكرة. لكن أحزاب شاس ويهودات هتوراة والبيت اليهودي وحتى يضمنوا نصيب المتدينين من كعكة الميزانية، وضعوا في اتفاقهما مع الليكود بنودا تنص على ضمان مخصصات طلبة المدارس الدينية والقطاع الحريدي (بند ٦).

اتفق الطرفان على تشكيل لجنة بالتناصف لتعديل «قانون كيمنتس»، الذي تم تمريره في الكنيست في ٥ نيسان ٢٠١٧ ، ويقوم على تعديل فصل الإنفاذ والعقاب من قانون التخطيط والبناء، وكذلك تعديل العديد من القوانين الأخرى، بهدف زيادة الإنفاذ ضد جرائم البناء. إن أحد العناصر الأساسية في القانون هو زيادة العقوبات التي يمكن فرضها على مرتكبي «جرائم» البناء غير المرخص، وخاصة من خلال تشديد العقوبات الاقتصادية عليهم. بالإضافة إلى ذلك ، قام القانون بتسهيل الأدوات الإدارية التي تسمح بهدم البناء غير القانوني. تمنح أحكام القانون موظفا إداريا صغيرا صلاحية الاتهام وإصدار الحكم وفرض الغرامة، التي تفوق غرامات المحاكم بخمسة أضعاف وتصل إلى ٣٠٠ ألف شيكل، وقد اعترفت ايليت شاكيد (وزيرة العدل السابق) بأنّ القانون مخصص للعرب، ولأنّ «الموشافيم»[١٩] تضرروا من هذا القانون قام نتنياهو بتجميده في الموشافيم فقط (وهذا يفسر موافقة نتنياهو على تعديل القانون). بعد سنة من تطبيق القانون

يتضح لنا من خلال بنود الاتفاق الائتلافي والتصريحات التي أطلقها نتنياهو بأنّه مصمم على تنفيذ الضم، وسيبذل قصارى جهده حتى لا تتم عرقلة الأمر سواء من حلفائه الأميركان أو غيرهم.

كانت الحصيلة في أوساط الفلسطينيين كالتالي: غرامات بـ ١٥ مليون شيكل، و١٥٤ حالة وقف وإزالة للأبنية.[٢٠]

رابعاً: الشق السياسي

ورد في الاتفاق بندان (٢٨+ ٢٩)، يتعلقان بالبرنامج السياسي الذي ستسعى الحكومة لتنفيذه، والمتمثل في ضم مناطق في الضفة الغربية، وتطوير اتفاقيات السلام مع «الجوار» وخصوصاً في مجال التعاون في مكافحة كورونا، في إشارة لاتخاذ التعاون في مكافحة الوباء كذريعة لتعميق حالة التطبيع مع بعض الدول العربية. وقد أشار البندان إلى ضرورة التنسيق بشكل كامل مع الولايات المتحدة الأميركية، لتنفيذ رؤية ترامب للسلام (صفقة القرن)، وذلك فيما يتعلق بالخرائط والتواصل مع الأطراف الدولية، ليتم عرض الاتفاق على الولايات المتحدة حول البدء في تنفيذ الضم بتاريخ ٢٠٢٠/٧/١، وذلك بعد إقراره في الحكومة أو الكنيست. لكن الاتفاق الائتلافي برمته لم يتطرق من قريب أو بعيد لكيفية التعامل مع السلطة الفلسطينية، فتم تجاهلها بشكل تام، في رسالة موجهة للرئيس محمود عباس والسلطة الفلسطينية ومن خلفها منظمة التحرير الفلسطينية «م.ت.ف»، بأنّ هذا الائتلاف الحكومي لا يعتبرهم «شركاء» في عملية السلام، وأن هدف الائتلاف الأساسي هو تطبيع العلاقة مع الدول العربية، دون إعطاء أي اعتبار للفلسطينيين.

بالرغم من هذا التجاهل المقصود لوجود السلطة الفلسطينية؛ إلا أن ذلك لا يعني نفي احتمالية سعي الائتلاف الحاكم لخوض مفاوضات «ديكورية» مع السلطة. فقد عبر سفير الولايات المتحدة في إسرائيل دافيد فريدمان عن موقف إدارة ترامب من هذا الأمر، أثناء مقابلة أجرتها معه صحيفة «إسرائيل اليوم». بقوله «عندما يكتمل رسم الخرائط، وعندما توافق الحكومة الإسرائيلية على وقف بناء المستوطنات في الجزء الذي لن تفرض عليه سيادتها من المنطقة (ج)، وعندما يوافق رئيس الوزراء على التفاوض مع الفلسطينيين على أساس خطة ترامب للسلام، (والذي وافق عليها بالفعل من اليوم الأول لطرحها)، عندما يحدث ذلك، سنعترف بسيادة إسرائيل على المناطق التي تعتبرها الخطة جزءا من إسرائيل»، وأضاف فريدمان: «على حكومة إسرائيل أن تعلن عن سيادتها، وفيما بعد سنعلن نحن اعترافنا بها...إنه قرار إسرائيل بالمقام الأول، لذلك عليكم أن تقوموا بذلك أولاً»،[٢١] وأشار فريدمان إلى أنّ اعتراف الولايات المتحدة بعملية الضم سيكون خلال أسابيع من إعلان الحكومة الإسرائيلية عنه.

يتضح لنا من خلال بنود الاتفاق الائتلافي والتصريحات التي أطلقها نتنياهو بأنّه مصمم على تنفيذ الضم، وسيبذل قصارى جهده حتى لا تتم عرقلة الأمر سواء من حلفائه الأميركان أو غيرهم. فقد صرح في الكنيست أثناء إلقاء خطابه لنيل الثقة بالحكومة عن سعيه إلى فرض السيطرة الإسرائيلية على مناطق في الضفة الغربية، (داعياً حزب «يمينا» إلى الانضمام للحكومة)؛ بقوله: «هذه الأراضي هي مناطق ولادة ونشأة الأمة اليهودية وحان أوان فرض القانون الإسرائيلي عليها وكتابة فصل باهر من تاريخ الصهيونية. كلنا نعرف أن مئات الآف المستوطنين في يهودا والسامرة من أخوتنا وأخواتنا سيبقون دائما في أراضيهم كجزء من أي تسوية سلام مستقبلية، وحان الأوان أن الشعب الفلسطيني وأيضا من يتواجدون في هذا البرلمان سيعترفون بذلك. وحان الأوان أن كل من يؤمن بحقوقنا العادلة في أرض إسرائيل

لا نجازف إن ادعينا بأنّ الاتفاق الائتلافي والخطوط العريضة لهذه الحكومة يؤبّنان بشكل رسمي صيغة "حل الدولتين". فعدا عن تجاهلهما الإشارة لهذه الصيغة أو حتى لمفاوضات سلام مع الفلسطينيين، أو لكيفية التعامل مع السلطة الفلسطينية، أو إعطاء أي اعتبار لوجودها، فإنهما يؤكدان على تنفيذ عملية الضم، بالتنسيق مع الإدارة الأميركية.

سينضم إلى الحكومة برئاستي من أجل قيادة هذه الخطوة التاريخية معا. كل موضوع السيادة مطروح على جدول الأعمال فقط بسبب قيامي بالعمل شخصيا من أجل دعمه خلال ثلاث سنوات كاملة بشكل علني وخفي».[٢٢]

خامساً: كيف يمكن أن تسقط الحكومة؟

تتمتع حكومة نتنياهو/ غانتس بقاعدة برلمانية واسعة، فقد صوت لصالح تشكيلها ٧٣ عضو كنيست مقابل معارضة ٤٦. يمكننا القول بالاستناد على متابعة التصريحات الصحافية للطرفين بأنه لا يوجد توجه لدى أي منهما نحو خوض انتخابات جديدة مبكرة، ما يعزز الانطباع باستمرار الحكومة في أداء أعمالها حتى انتهاء مدة الاتفاق بين الطرفين، إلا أنّ الاتفاق أشار إلى عدة حالات يمكن بموجبها إسقاط الحكومة أو حلها. فعدا عن احتمالية حصول خلاف بين الطرفين وذهاب أحدهما للتحالف مع المعارضة لإسقاط الحكومة، فقد نص الاتفاق في حال لم يتمكن الطرفان من تمرير التصويت على الميزانية في الكنيست خلال الـ ٦ شهور من تأدية الحكومة القسم، يتم حل الكنيست والدعوة إلى انتخابات مبكرة. كما أشارت ملاحق الاتفاق إلى إمكانية إسقاط الحكومة في حال تقدم ١٢ عضو كنيست من التكتل الذي ينتمي له رئيس الحكومة، بطلب للكنيست بسحب الثقة من رئيس الحكومة (الذي سيكون بالضرورة رئيسا لحزبهم). كما أشارت الملاحق إلى حالة أخرى يمكن من خلالها أن تسقط الحكومة، وهي فشل الحكومة في تمرير ميزانية سنة ٢٠٢٢، فقد نص الاتفاق في حال مرت ٦ أشهر من بدء السنة المالية لعام ٢٠٢٢، ولم تقر الميزانية فإنّ ذلك سيقود إلى حل الكنيست وإجراء انتخابات مبكرة.

ما لم يطرأ حدث دراماتيكي على الساحة السياسية الإسرائيلية، فالأرجح هو استمرار الحكومة طوال مدة السنوات الثلاث، مع احتمال التمديد لها لسنة أخرى. فكلا الطرفين قد أرهقا من خوض الجولات الانتخابية، وتوصلا إلى هذا الاتفاق بعد ترسخ القناعة بعدم جدوى خوض جولة انتخابية رابعة، لا يعتقد بأنه ستغير الخارطة السياسية. علاوة على ذلك، خرج كلا الطرفين رابحاً من هذا الاتفاق؛ ضمن نتنياهو عدم سن قانون يمنعه من تولي رئاسة الحكومة أثناء محاكمته، وحصل أرزق أبيض على حصة من الكعكة السياسية تفوق حجم مقاعده في الكنيست. على الرغم مما سبق، تبقى احتمالية سقوط الحكومة قائمة، فالساحة السياسية الإسرائيلية دائمة التقلب، أخذا بعين الاعتبار أن الاتفاق بين الطرفين احتوى بنودا تضمن استمرار الحكومة، تحسباً لتنحي نتنياهو نتيجة استقالته في حال تمت إدانته بإحدى قضايا الفساد التي يحاكم بها. وهذا أمر مستبعد، لأن محاكمته (كما جرت العادة في هذا النوع من المحاكمات) ستستغرق سنوات، وحتى لو تمت إدانته واضطر للاستقالة، فقد نص الاتفاق على أنه في حالة استقالة رئيس الحكومة (والمقصود بذلك نتنياهو) سيحل محله عضو من نفس حزبه. وبالتالي سيحل محل نتنياهو شخص آخر يختاره حزب الليكود.

الخلاصة والاستنتاجات

لا نجازف إن ادعينا بأنّ الاتفاق الائتلافي والخطوط العريضة لهذه الحكومة يؤبّنان بشكل رسمي صيغة «حل الدولتين». فعدا عن تجاهلهما الإشارة لهذه الصيغة أو حتى

لمفاوضات سلام مع الفلسطينيين، أو لكيفية التعامل مع السلطة الفلسطينية، أو إعطاء أي اعتبار لوجودها، فإنهما يؤكدان على تنفيذ عملية الضم، بالتنسيق مع الإدارة الاميركية، دون الالتفات إلى وجود طرف فلسطيني. من الواضح أنّ هذا الائتلاف الحكومي عازم على اغتنام هذه الفرصة التاريخية، والأجواء الجيوسياسية المواتية، المتمثلة بإدارة أميركية صهيونية، وانقسام فلسطيني، وتشرذم وضعف عربي، ولهاث من بعض الدول العربية لإقامة تحالف مع إسرائيل بذريعة مواجهة «الخطر الإيراني». علاوة على ذلك؛ وكمؤشر إضافي على دفن صيغة «حل الدولتين»، فقد نصت الخطوط العريضة لسياسات الحكومة بشكل واضح على السعي لترسيخ يهودية الدولة، والعمل بشكل دؤوب على تعزيز الاستيطان.

من المرجح ألا تبادر هذه الحكومة بشن حرب على غزة. وذلك لعدة أسباب من أبرزها: أنّه لأول مرة منذ حوالي ٤ سنوات يتولى وزارة الحرب الإسرائيلية جنرال (غانتس)، وليس سياسيا حزبيا يغلب عليه الطابع «المدني»، يهدف إلى بناء مجد شخصي من خلال توليه هذه الوزارة، ليعوض «النقص» في سيرته الشخصية وللظهور بمظهر المحافظ على الأمن. ولطالما غلب على المؤسسة العسكرية في التقييمات المعلنة والتي يتداولها الإعلام الإسرائيلي، بأن بقاء الوضع على ما هو عليه فيما يتعلق بغزة، هو الأفضل لإسرائيل. بل إن المؤسسة العسكرية تذهب باتجاه التوصية بتقديم «تسهيلات» لغزة، للمحافظة على «الهدوء» القائم، لذلك من المتوقع ألا يخرج غانتس عن هذا التوجه، وإن كان القرار النهائي بيد نتنياهو الذي يميل لعدم شن حرب في الوقت الحالي. يضاف إلى ذلك أنّ هذه الحكومة وضعت نصب عينيها تنفيذ عملية الضم للأغوار والمستوطنات، لذلك ستسعى لعدم التشويش على هذه العملية، بالامتناع عن الانجرار لحرب مع غزة. والأهم من ذلك؛ أنّ هذه الحكومة تهدف إلى معالجة الآثار الاقتصادية لفيروس كورونا والذي تسبب بارتفاع نسبة البطالة إلى ٢٥٪ (ما يقدر بمليون شخص)، ومن المتوقع أن يتسبب الفيروس في عجز الموازنة بنسبة ١١٪، وأن يكون النمو سلبياً هذا العام. بالإضافة إلى ذلك، تضخم ديون الدولة والتي وصلت بالفعل إلى ٧٥٪ من الناتج المحلي الإجمالي. وهذا ما دفع قادة الجيش للقبول بالتنازل عن ٣٠٪ من المصاريف «الفنية» للجيش في الميزانية المقرر إتمامها.[٢٣] بالاستناد على ما سبق، وفي ظل هذه الظروف الاقتصادية الصعبة، من غير

حكومة نتنياهو وغانيتس: سفينة بربّانين.

المتوقع أن تخوض إسرائيل الحرب المكلفة ماديا، في حال لم يطرأ أي تطور دراماتيكي، فمن غير المتوقع أن تبادر الحكومة الإسرائيلية الجديدة إلى شن حرب جديدة على غزة.

أعاد نتنياهو تموضع الأحزاب الإسرائيلية عبر التشكيلة الحكومية الجديدة، ما تسبب في انشقاق بعض الأحزاب، وإعادة تشكل بعضها. فانسلخ أزرق أبيض بقيادة غانتس عن القائمة الانتخابية التي خاض على أساسها الانتخابات وتضم حزب يوجد مستقبل برئاسة تومي لبيد، وحزب تيلم بقيادة موشيه يعلون، اللذين فضلا البقاء في المعارضة. فيما انشق ديرخ آرتس عن حزب تيلم وانضم للحكومة تحت تكتل أبيض ارزق. بينما انفرط عقد القائمة الانتخابية التي ضمت حزب العمل وغيشر وميرتس. فانضمت إيشر برئاسة أورلي ليفي/اباكسيس إلى الحكومة عبر تكتل الليكود. فيما انضم حزب العمل للحكومة عبر تكتل أزرق أبيض، وبقي ميرتس في المعارضة. أمّا اليمين المتدين فقد ناله جانب من هذه التغيرات، فقد انشق حزب البيت اليهودي برئاسة رافي بيرتس عن القائمة الانتخابية «يمينا»، والتي ترأسها في الانتخابات وزير الدفاع السابق نفتالي بينت، وتضم في عضويتها ثلاثة أحزاب وهي: اليمين الجديد، البيت اليهود، والاتحاد الوطني. ولينتقل اليمين الجديد والاتحاد الوطني إلى صفوف «المعارضة». بالرغم من ذلك، من المتوقع أن تشهد الساحة السياسية الإسرائيلية استقراراً بعد طول غياب نتيجة الانتخابات المتتالية.

يمكننا القول إن هذا الاتفاق استفاد منه الطرفان «win-win situation»، وإن كان بنسب متفاوتة، تناصف الطرفان المكاسب مع أفضلية طفيفة لليكود، في الوقت الذي يبلغ فيه عدد أعضاء الكنيست من الليكود ٣٦ عضو مقابل ١٦ عضوا

ظاهرياً انتصر نتنياهو؛ لكن للعملة وجه آخر، وهو انتزاع أزرق- أبيض مواقع مهمة ومؤثرة في المنظومة السياسية إذا أحسن إدارتها فسيتمكن من تقليص هيمنة الليكود على مفاصل صنع القرار، الذي تمتع بالهيمنة عليها لسنوات طويلة، وبالتالي قد يؤسس أزرق أبيض في المستقبل لتقاسم السلطة.

لأزرق – أبيض. نجح نتنياهو في تفكيك تحالف انتخابي (أزرق أبيض) شكل خطورة على استمرار تسيده للنظام السياسي الإسرائيلي، واستطاع أنّ ينقذ رأسه من خلال إجهاض ما كانت تسعى له المعارضة من سن قانون في الكنيست، يتم بموجبه منع أي شخص توجه له لائحة اتهام من ترؤس الحكومة. ظاهرياً انتصر نتنياهو؛ لكن للعملة وجه آخر، وهو انتزاع أزرق– أبيض مواقع مهمة ومؤثرة في المنظومة السياسية إذا أحسن إدارتها فسيتمكن من تقليص هيمنة الليكود على مفاصل صنع القرار، الذي تمتع بالهيمنة عليها لسنوات طويلة، وبالتالي قد يؤسس أزرق أبيض في المستقبل لتقاسم السلطة، في محاولة لاستدراك مؤسسة الجيش (من خلال حزب أزرق أبيض) معالجة التغيرات البنيوية التي طرأت على منظومة الحكم بعدما تولى نتنياهو رئاسة الحكومات المتتالية، فبعدما كانت مؤسسة الجيش هي المنتج شبه الحصري للقيادات السياسية، تحولت الأمور في عهد نتنياهو إلى تهميش لدورها، ودور السياسيين القادمين من هذه المؤسسة.

يوفر الاتفاق فترة «تدريب» لغانتس على رئاسة الحكومة في الـ ١٨ شهر الأولى، والتي سيكون فيها نائبا لرئيس الوزراء ولصيقا لنتنياهو، ليتعلم بشكل عملي كيفية إدارة الدولة، والميكانيزمات التي تدار بها الأمور. وإذا أحسن غانتس إدارة الحكومة في الفترة التي سيتولى فيها رئاسة الوزراء، فسيتحول إلى منافس حقيقي ورقم صعب في الانتخابات المقرر عقدها بعد ثلاث سنوات. يرتبط ذلك بتنفيذ ما تم الاتفاق عليه بشكل كامل، واستمرار الحكومة. لكن هذا الأمر مشكوك فيه مع شخص مراوغ كنتنياهو، يعمل كل شيء للبقاء كرئيس وزراء، فمن المتوقع أن يتحرك في جميع الاتجاهات من أجل ألا يتحول توقيعه على اتفاق الائتلاف الحكومي، توقيعا على إنهاء دوره كرئيس للوزراء في أي انتخابات قادمة.

حاول أزرق– أبيض حيازة بعض الوزارات التي لها دور في التعامل مع آثار كورونا كوزارة الصحة، لكن نتنياهو أصر على التمسك بهذه الوزارة. نجح أزرق أبيض في تولي حقيبتين سياديتين (الدفاع والخارجية في الفترة الأولى)، بالإضافة إلى حقائب وزارية تتعلق بالشأن الاجتماعي (العمل والرفاه+ العدالة الاجتماعية). ولربما كان الأفضل لمستقبل «أزرق– أبيض» السياسي الابتعاد عن الوزارات التي ستباشر التعامل مع الآثار الاقتصادية والصحية للكورونا (كوزارة المالية والصحة)، مع عدم التخلي بشكل كامل عن الخوض في هذا الجانب وذلك من خلال تولي حقيبتي الاقتصاد والزراعة. من المتوقع أن تكون الفترة القادمة صعبة من الناحية الاقتصادية، وهذا قد يتطلب اتخاذ إجراءات قاسية، في هذه الحالة لن يتحمل أزرق– أبيض المسؤولية المباشرة، وسيوجه اللوم بشكل أساسي للوزارات التي يتقلدها الليكود، لكن في حال تم تجاوز الأزمة بسلام سيتقاسم النجاح مع الليكود على اعتبار أنه شريك في الائتلاف الحكومي.

يستنتج من توزيع المناصب بين الطرفين حرص الليكود على التمسك ببعض الملفات التي تخدم تحالفاته السياسية، كملف الاستيطان (من خلال السيطرة على وزارة الإعمار والإسكان التي لها دور مباشر بعملية الاستيطان). في المقابل ظهر حرص أزرق - أبيض على المحافظة على ما يمكن وصفه آخر قلعة من غزو اليمين المتشدد وهي القضاء، (هذا لا يعني بأن اليمين المتشدد لا يملك ثقلا فيه، إلا أنه حتى اللحظة لا يهيمن عليه)، تجسد هذا الحرص من خلال الإصرار

استطاع الطرفان من خلال الاتفاق وضع الأسس لنظام الحزبين، والذي قد يتطور في لاحق الأيام ليصبح النمط الحزبي السائد، بعد حقبة طويلة من العيش تحت نظام تعدد الأحزاب. فقد تمأسس النظام الحزبي الإسرائيلي منذ النشأة على تعدد الأحزاب، وعدم قدرة أي حزب على تشكيل الحكومة بمفرده، دون اللجوء إلى عقد اتفاقيات ائتلافية مع الأحزاب الصغير.

على تولي حقيبة العدل وتركيبة لجنة تعيين القضاة، وقد دفع نتنياهو ثمن ذلك بالتخلي عن حلفائه في حزب يمينا بقيادة نفتالي بينت، الذي اشترط تولي هذه الحقيبة للانضمام لهذا الائتلاف.

اهتم أزرق- أبيض بتولي مواقع ستقوده للتغلغل في مواقع لها تأثير مستقبلي (كالوزارات ذات الطابع الاجتماعي)، ووزارات لها علاقة بيهود الخارج كوزارة الشتات والهجرة والاستيعاب. كل هذه المواقع إذا أحسن أزرق أبيض إدارتها ستمكنه من مراكمة رصيد انتخابي مستقبلي لجمهور من الناخبين غير المحسومين، والذين في العادة يرجحون الكفة في حالات الاستقطاب الحاد. علاوة على ذلك؛ تبرز أهمية وزارة الدفاع في صنع القادة المستقبليين، فتحديد هوية رئيس الأركان القادم يتحكم به وزير الدفاع، والتجربة التاريخية تقول لنا، بأنّ الخدمة كضابط بارز في الجيش هو عتبة الوصول إلى المواقع المهمة في الدولة. وذلك بالرغم من حالة التهميش التي عانى منها خريجو المؤسسة العسكرية في حكومات نتنياهو المتتالية، لكن ذلك قد يتغير في وجود حزب أزرق أبيض القادم من رحم المؤسسة العسكرية ويترأسه جنرالان (بيني غانتس وغابي أشكنازي).

استطاع الطرفان من خلال الاتفاق وضع الأسس لنظام الحزبين، والذي قد يتطور في لاحق الأيام ليصبح النمط الحزبي السائد، بعد حقبة طويلة من العيش تحت نظام تعدد الأحزاب. فقد تمأسس النظام الحزبي الإسرائيلي منذ النشأة على تعدد الأحزاب، وعدم قدرة أي حزب على تشكيل الحكومة بمفرده، دون اللجوء إلى عقد اتفاقيات ائتلافية مع الأحزاب الصغير. وبالتالي سينعكس ذلك مستقبلاً على التحرر من ابتزاز الأحزاب الصغيرة وخصوصاً المتدينة. تجسد ذلك في الاتفاق بعدة بنود على رأسها، بند الميزانية الذي سيصوت عليه لسنتين، وذلك لتجنب الابتزاز السنوي للأحزاب. يضاف إلى ذلك إلزام جميع أعضاء الائتلاف الحكومي بالتصويت على مشاريع القوانين التي يتم إقرارها سلفاً في الحكومة، وعدم السماح لأي عضو كنيست ينتمي لأحزاب الائتلاف الحكومي بتقديم مشروع لقانون (بشكل منفرد أو جماعي) تعارضه الحكومة، أو يتعارض مع بنود الاتفاق. علاوة على نزع فتيل أي أزمة مستقبلية بين مكونات الائتلاف كقانون التجنيد.

يحرم الائتلاف الحكومي الحالي المعارضة من أي دور مؤثر، فقد جرت العادة على تولي المعارضة رئاسة بعض لجان الكنيست (وقد انتقدت العليا ذلك)، إلا أن طبيعة الائتلاف الحالي القائم على التناوب جعل من رئاسة لجان الكنيست أداة لممارسة طرفي الائتلاف الرقابة على أداء الوزارات التي لا يديرها. دفع هذا الاستئثار بلجان الكنيست موشيه يعلون رئيس حزب تيلم القابع في المعارضة للتعبير من خشيته من تحول النظام السياسي الإسرائيلي من الديمقراطية إلى ما يشبه الديكتاتورية.[٢٤]

لكن كل ما سبق ذكره، لا يعني بأن المنظومة السياسية الإسرائيلية قد تغيرت، فالحديث يدور هنا عن تكتلين حزبيين تتطابق برامجهما السياسية، والفرق بينهما شكلي، فنحن نتحدث عن أحزاب سياسية إسرائيلية تتوزع ما بين اليمين المتدين المتشدد مقابل اليمين الوطني المتشدد، والاختلاف بين التكتلين يتمركز على من يدير المنظومة لا على المنظومة نفسها. وهذا ما يدفعنا للاستنتاج بأن هذا الاتفاق قد يؤسس لتغيير النظام الحزبي الإسرائيلي باتجاه نظام الحزبين، لكنه لن يغير المنظومة نفسها والقائمة على أساس مفهوم الاستعمار الاستيطاني.

الهوامش

١. موقع الكنيست الإسرائيلي، نص اتفاق الليكود وأزرق أبيض، ٢٠٢٠/٤/٢٣. (بالعبرية) https://bit.ly/3fy8bQj

٢. موقع الكنيست الإسرائيلي، الخطوط العريضة لسياسات الحكومة الـ ٣٥. (بالعبرية) https://bit.ly/2TjdvgS

٣. المحكمة العليا الإسرائيلية، التماس ٢٥٩٢/٢٠. (بالعبرية)
https://bit.ly/3cdPhMm

٤. قضت المحكمة بانه لا يوجد في القانون ما يمنع عضو كنيست موجه له لائحة اتهام من تولي رئاسة الوزراء.

٥. موقع الكنيست الإسرائيلي، إعلان محدث من رئيس الوزراء كتلة الليكود وكتلة أزرق أبيض، ص: ٥. (بالعبرية). https://bit.ly/3fOdsmE

٦. واي نت، نتنياهو حول تضخم الحكومة: تكلفة منخفضة مقارنة بانتخابات إضافية، ٢٠٢٠/٥/١٧. (بالعبرية).
https://bit.ly/2WH7D2M

٧.

٨. موقع الكنيست الإسرائيلي، اتفاق الليكود ويهودات هتوارة، ٢٠٢٠/٥/١٣، بند ١٤، ص: ٤. (بالعبرية) https://bit.ly/2TbOzb2

٩. موقع الكنيست الإسرائيلي، لجان الكنيست، ٢٠٠٤.
https://bit.ly/36ANu1K

١٠. موقع الكنيست الإسرائيلي، الاتفاق بين ازرق وديرخ آرتس، ٢٠٢٠/٥/١٣، بند ١٥، ص: ٢. (بالعبرية). https://bit.ly/2X1fVSo

١١. موقع الكنيست الإسرائيلي، اتفاق الليكود وشاس، مصدر سابق، بند ١٥، ص: ٤.

١٢. المحكمة العليا الإسرائيلية، مصدر سابق، ص: ١٨.

١٣. «قانون معمول به في البرلمان النرويجي يلزم الوزراء، فيما عدا رئيس الوزراء، بالاستقالة من عضوية الكنيست خلال فترة عضويتهم في الحكومة واستبدالهم بآخرين ضمن القائمة الانتخابية للحزب، مع الاحتفاظ بحقهم في العودة إلى الكنيست على حساب الأعضاء البديلين، في حال استقالتهم من الحكومة. واستند مؤيدو هذا القانون في إسرائيل على إبراز مبدأ الفصل بين السلطة التشريعية (الكنيست) وبين السلطة التنفيذية (الحكومة)، بحيث ترك المسألة التشريعية بيد ١١٩ عضو كنيست (مع الافتراض أن رئيس الحكومة يبقى محتفظًا بعضويته في الكنيست).وهناك ادعاء آخر أن الهدف من وراء تبني هذا القانون هو لزيادة عدد السياسيين في المناصب الرسمية (الحكومية)، وبالتالي إلى زيادة تأثيرهم السياسي لمصالح الأحزاب المكونة للائتلاف الحكومي. اتبعت الطريقة في إسرائيل في الماضي كما هو منصوص عليه في القانون النرويجي، حيث أن وزراء قدموا استقالاتهم من الكنيست، واحتل مكانهم نشطاء من أحزابهم، ولكن دون توفر فرصة عودتهم إلى الكنيست بعد استقالتهم من عضوية الحكومة. بادر مناحيم بغين حين كان عضوا في الكنيست إلى تعديل في بند رقم ٢١ (ب) لقانون أساس: الحكومة (١٩٦٨)، مفاده أن استقالة من عضوية الكنيست توقف عضوية المستقيل في الحكومة، إلا أن هذا البند قد أُلغي من النص الجديد للقانون ذاته من العام ١٩٩٢. وتبنى الائتلاف الحكومي المبرم بين مجموعة من الأحزاب في إسرائيل في أعقاب انتخابات الدورة الرابعة عشرة للكنيست، القانون النرويجي. إلا أن تجربة العمل وفق هذا القانون أثارت جدلاً واسعًا في أوساط مختلفة في الكنيست الاسرائيلي. فتم تجميد اقتراح تطبيق القانون في ٣١ تشرين الأول ١٩٩٦، ثم اتخذت الحكومة في كانون الأول ١٩٩٧ قرارًا بتحويل القانون إلى الأرشيف. وكان ذلك أثناء دورة حكومة بيبي نتنياهو. ولما كُلف أيهود باراك بتشكيل حكومة جديدة في أعقاب انتخابات الكنيست الخامسة عشرة وعد مرشحي قائمة حزبه (إسرائيل واحدة) بأن يسعى إلى إعادة تجديد مبادرة القانون النرويجي ولكنه لم يفعل. وهكذا، كان مصير هذا القانون الفشل في التطبيق في إسرائيل». (المصدر: مركز مدار، قانون نرويجي في إسرائيل، موسوعة المصطلحات. https://bit.ly/3fqUx18)

١٤. محكمة العدل العليا الإسرائيلية، مصدر سابق، ص: ٢٠.

١٥. صحيفة «إسرائيل اليوم»، بعد انتقادات العليا: جمد أزرق - أبيض القانون النرويجي، ٢٠٢٠/٥/٥. (بالعبرية)
https://bit.ly/2Wv6XfC

١٦. موقع الكنيست الإسرائيلي، مصدر سابق، البند ٥، ص: ٥.

١٧. على الرغم من ذلك أعلنت الأحزاب الدينية وقتئذ رفضها للقانون، وقالت إنها لن تقبل «فرض قيود على دارسي التوراة». ويبدو ظاهرياً بأن المتدينين يعارضون القانون، لكنهم داخليا راضون عنه، لأنه قدم تنازلات لهم عبر تخفيف العقوبات أو الإجراءات التي يمكن أن تتخذ ضد رافضي الخدمة العسكرية منهم. (المصدر: وكالة الأناضول، قانون التجنيد في إسرائيل يشق صفوف المعارضة ويهدد الائتلاف الحكومي، ٢٠١٨/٧/٣. https://bit.ly/3dq7ExJ)

١٨. موقع الكنيست الإسرائيلي، اتفاق الليكود والبيت اليهودي، ٢٠٢٠/٥/١٣. (بالعبرية) https://bit.ly/2ZfklaS

١٩. مستوطنات العمال داخل إسرائيل.

٢٠. موقع عرب ٤٨، المحامي قيس ناصر: هذا ما جنيناه من قانون «كيمنتس» منذ تطبيقه، ٢٠١٩/٩/٢١. https://bit.ly/3bfSrxV

21. Israel Hayom،›For Israel to give up Hebron and Beit El is like the US giving up the Statue of Liberty", 5\8\2020. https://bit.ly/2xRlKJu

٢٢. موقع الكنيست الإسرائيلي، نتنياهو، غانتس ولبيد تحدثوا في افتتاح الجلسة العامة لتشكيل الحكومة الخامسة والثلاثين، ٢٠٢٠/٥/١٧. (بالعبرية) https://bit.ly/3bIiMF8

٢٣. واي نت، من كورونا إلى نتفليكس: المهمات المركزية للحكومة الجديدة، ٢٠٢٠/٥/١٧. (بالعبرية) https://bit.ly/2X9XJGh

٢٤. واي نت، يعلون ل واي نت: اوحانا للأمن الداخلي من أجل إحباط التحقيقات مع نتنياهو، ٢٠٢٠/٥/١٣. (بالعبرية)
https://bit.ly/3ctHUQY

نور الدين أعرج * وباسل رزق الله**

من الخلاص الجماعي إلى تحقيق الذات: تحولات البطولة في الدراما الإسرائيلية المعروضة عبر "نتفلكس"

"أقتل كي تكون"

-محمود درويش

تتبع هذه المداخلة عينة من الإنتاجات الدرامية الإسرائيلية التي تظهر فيها تمثيلات عسكرية إما بشكلٍ رئيسي أو ثانوي، وتتولى تقديم قراءةً لها ترتكز على السعي لفهم مركزية البعد العسكري، في الفضاء العام الإسرائيلي، وتراجعه، والممارسات التي ترتبط باستعادته، أو إعادة إنتاجه، في خضم التحولات المستمرة داخل المجتمع الإسرائيلي ومجتمع الجيش. لقد حاز بعض هذه الإنتاجات على صدى كبير، وأصبحت مادةً للحديث والنقاش على مستوى كبير، وبالأخص مسلسل فوضى[1] المكون من ثلاثة أجزاء، وحصل هذا الصدى تصاعديًا وعلى مستوى جزئي حتى الآن، فالحديث يقتصر على الجزء الثالث من مسلسل فوضى، على الرغم من وجود أجزاء سابقة، وأيضًا وجود إنتاجات إسرائيلية أخرى تمتلك جودةً دراميةً أفضل منه ومتاحة على منصات عرض عالمية.

لا تقتصر المداخلة على قراءة صورة الجندي الإسرائيلي في الإنتاجات الدرامية، التي تظهره كبطل خارق يُنقذ المجتمع ورفاقه، مبنيةً على الصورة التقليدية للجندي البطل الذي يحمل قيم الذكورة والتضحية، لكنها تعيد قراءتها، مطلة على أنماط من الجدل الداخلي في إسرائيل، وأزمات عدة، مثل النقاشات عن انخفاض نسب التجنيد في الوحدات القتالية، وأيضًا الحديث عن صلاحيات الجندي الإسرائيلي ومدى قدرته على

* (طالب ماجستير دراسات إسرائيلية في جامعة بيرزيت)
** (طالب علم اجتماع وأنثربولوجيا في جامعة بيرزيت)

تخضع هذه الورقة مسلسل فوضى ومسلسل When heroes fly (عندما يطير الأبطال) ومسلسل The spy (الجاسوس) وفيلم The angel (الملاك)، والفيلم الوثائقي الدرامي The Red Sea Diving Resort (منتجع البحر الأحمر) للتحليل، على أساس اعتبارها نصوصًا اجتماعيةً يمكن قراءتها باعتبارها خاضعة لعملية ديناميكية من التأثير والتأثر من وعلى الفضاء الاجتماعي والسياسي بما يحوزه من أنماط من الإقصاء، التمثيل واللا مساواة.

اتخاذ القرارات، وهي مترافقة مع النقاشات حول مدى فاعلية وجود جيش الشعب. كما أنّ هذه الإنتاجات تحاول استيعاب الفروقات الثقافية والإثنية من خلال تقديم معالجةٍ لها على أساس استيعابها وتحليلها وليس على أساس الهيمنة أو الأشكنزة لها، كما تحاول عرضها بوصفها نزاعاتٍ سياسة وعسكرية، متعالية على الفروقات الثقافية والنظرة الدونية من الإسرائيلي الإشكنازي للإسرائيلي الآخر، ما يتجاهل كما توضح الدراسة، أن الهيمنة الأشكنازية الثقافية بنيةً قائمةً وعليها تجري كل هذه النقاشات أصلًا.

...هناك يؤلفون شعرًا حديثًا، هناك يركبون مدججين على ظهر الفرس ويردون بالنار على ثيران الثوّار العرب، هناك يأخذون الرعاع التافهين ويصنعون منهم شعبا مقاتلا. حلمت سرا بأنهم يأخذونني أيضًا إليهم في أحد الأيام. كي يحوّلوني أيضًا إلى شعب مقاتل. كي تتحول حياتي أيضًا إلى شعر حديث، حياة نقية مستقيمة وبسيطة مثل كأس ماء بارد في يوم حار.[٢]

هذا المقطع المقتبس من رواية عاموس عوز "قصة عن الحب والظلام" التي تمثل سيرةً ذاتية له، يتحدث عن نظرته للطلائعيين/ ات في بدايات المشروع الصهيوني الذين يعيشون حياةً صعبةً وفيها مخاطر وقتال من أجل المشروع الصهيوني. ينظر عوز الطفل في حينه بعين الإعجاب لهذه المجموعة ويحلم بالالتحاق بهم في يوم ما، وهو ما حصل لاحقًا بانضمامه إلى كيبوتس حولداه. ما يهمنا من هذا المقطع هو الصورة التي تتشكل عن الجندي/ الطليعي، فالجندي في مجتمع مُعسكر/ دولة عسكرية يصبح هو النموذج الذي يريد الكل الاحتذاء به وأنّ يصبح مثله؛ أي أنه يتحول إلى جزء من التخيل السياسي، ليس فقط عن البطل أو البطولة، ولكن عن مستقبل المجتمع، والسعي إلى إنجازه.

تخضع هذه الورقة مسلسل فوضى ومسلسل When heroes fly (عندما يطير الأبطال) ومسلسل The spy (الجاسوس) وفيلم The angel (الملاك)، والفيلم الوثائقي الدرامي The Red Sea Diving Resort (منتجع البحر الأحمر) للتحليل، على أساس اعتبارها نصوصًا اجتماعيةً يمكن قراءتها باعتبارها خاضعة لعملية ديناميكية من التأثير والتأثر من وعلى الفضاء الاجتماعي والسياسي بما يحوزه من أنماط من الإقصاء، التمثيل واللا مساواة. كما أنها لا تنفصل عن النقاشات السياسية والأمنية عن مصير "الأمة" أو الدولة والهوية، والطرائق الأنجع للحفاظ عليها. وحددت هذه الورقة العينة الخاصة بها في الإنتاجات الخمسة التي تم عرضها على شبكة "نتفليكس" باعتبارها منصةً عالمية تحظى بمتابعة واسعة.

لا يمكن التعامل مع هذه الإنتاجات المختارة التي سنعمل على فحص صورة الجندي الإسرائيلي فيها، بمعزل عن السياق السياسي والاجتماعي لإنتاجها وعرضها ومكان عرضها الذي يحدد جمهورها.

تركز الدراسة بالأساس على ثيمة العرض البطولي للجندي الإسرائيلي، كما على عرض الجيش باعتباره جيشًا متجانسًا لا يأبه بالاختلافات الإثنية والثقافية التي أنتجها استقطاب إسرائيل لمواطنين يهود من خلفيات ثقافية مختلفة. بافتراض أن هذا العرض للجسد العسكري الإسرائيلي في الإنتاجات الدرامية والسينمائية المختلفة، غير منفصل عن بعض المشاكل السياسية والاجتماعية وأنماط الاستقطاب الداخلية والخارجية في إسرائيل وعنها.

على سبيل التأطير النظري

تنطلق معظم التحليلات المعنية بدراسة المجتمع الإسرائيلي من فكرة مركزية فيه، وهي هيمنة الثقافة العسكرية على كافة القطاعات الأخرى في المجتمع، وتداخلها مع هذه القطاعات وإعطاء صبغة عسكرية للمجتمع، تأخذ شرعيتها من الجيش، وتعطيه معناه.

فالجيش يلعب دورًا مركزيًا في الدخول للمجتمع والاندماج فيه؛ أي أنه يمثل نوعًا من أنواع "طقوس العبور" التي يندمج من خلالها الفرد في المجتمع، ويكتسب شرعية الانتماء له، التي تتجاوز موضوع المواطنة، وتبقى موضعًا للمساءلة حسب الخلفية الإثنية والقومية. كما أوضح الباحث إياد القزاز، فإنه وعلى عكس الجيوش الأخرى، يعتبر الجيش الإسرائيلي وسيلةً مهمةً للاندماج الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. وقبل كل شيء بناء الأمة.[٣] فلم يحظ الجيش بالدور المنوط به وحسب، بل تغلغل في الفضاء الاجتماعي الإسرائيلي منذ نشأة الدولة. ومنذ السنوات الأولى لإسرائيل؛ أي في العامين ١٩٤٨ – ١٩٤٩ . شهدت الساحات العامة مواكب عسكرية ضخمة في المدن الإسرائيلية المركزية، حيث عرض الجيش نفسه من خلالها، ولم تخل هذه الساحات من المتفرجين الذين وصلوا إلى أعداد ضخمة، وحُددت عدة مناسبات يعرض الجيش فيها مواكبً وعروضا، كان أبرزها "يوم الاستقلال" ويوم الدولة، بالإضافة إلى تحديد يوم من أيام السنة، عرف باسم "يوم الجيش". وبقيت هذه العروض منتظمة في إسرائيل حتى نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات.[٤]

ولم تقتصر هيمنة الجيش فقط على الفضاء الاجتماعي، بل طالت الجوانب السياسية، فقد ارتبط كثير من المناصب السياسية بالضباط المتقاعدين؛ إذ تولى هؤلاء الضباط أهم المناصب السياسية في الدولة. ففي عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٣ ، كان المرشحان لرئاسة الوزراء من الضباط المتقاعدين.[٥] كما أن هناك زيادة واضحة في هذه الفترة في مستوى اختراق الضباط المتقاعدين للمناصب الحكومية العليا.[٦] ولعل هذا الاستحواذ على المناصب السياسية من قبل الجيش يحمل دلالاته المباشرة عن صورة المجتمع الإسرائيلي، التي توضح الشكل العام للبنية الداخلية للمجتمع، وهذه الحالة مستمرة في الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة، ويشكّل حزب أزرق أبيض (كحول لافان) مثالا على ذلك. كما أنّ مركزية الجيش تظهر من خلال الموازنة التي يحصل عليها فهي الأعلى في العالم مقارنةً بالناتج العام، كما أنّها الأعلى نسبة إلى عدد السكان.[٧]

مع تغلغل الجيش في مجالات عدة في المجتمع الإسرائيلي، ومع إحداث بعض التغيرات على المستويين الداخلي والخارجي التي أحدثتها الحروب المتتالية؛ نتج نوع من التنظير يركز على عسكرة المجتمع الإسرائيلي. ففي هذا السياق، يوضّح أوري بن إليعازر Uri Ben-Eliezer في كتابه "حروب إسرائيل الجديدة"، أنّ لحرب أكتوبر عام ١٩٧٣ دورًا مهمًا في خلق بداية توجّه إسرائيليّ نحو تعميق النزعة العسكريّة في المجتمع الصهيونيّ. إذ يوضح بن إليعازر أن دور هذه الحرب كان في بداية تحول اجتماعي إسرائيلي باتجاه مفهوم الأمة العسكرية أكثر من كونها دولة عسكرية.[٨]

بينما يرى عزمي بشارة أن هيمنة الثقافة العسكرية في اسرائيل مرتبطة بعدم وجود خيار لدى إسرائيل سوى الحرب والاستعداد دائمًا للحرب في ظل نشوئها في وسط كامل من الدول العربية المحيطة بها. ومع التفوق العربي في العدد والاقتصاد والجغرافيا سعت إسرائيل إلى تعويض النقص بتفوق إسرائيلي محلي على الجبهات العينية، والاعتماد على تفوق عددي مؤقت في مراحل زمنية محددة تستطيع فيها إسرائيل أن تستنفر الاحتياط، وهي مراحل الحرب والاستعداد للطوارئ.[٩] وهو ما يتفق مع طرح موطي غولاني أنّ هناك تعاظما للشعور بأن الحرب هي فعل صحيح ومفيد جدًا لعملية التشكل المتواصلة للمجتمع الإسرائيلي،[١٠] فالحرب هنا تتحول إلى بوتقة صهر بحدّ ذاتها ومساهمة في عملية تجاوز إسرائيل لأزماتها.

وهو ما يلتقي مع طرح بشارة بأن إسرائيل دولة عسكرية، من خلال وصفها بالدولة الثكنة التي لم تتطور بوصفها دكتاتورية عسكرية، بل عبر سيطرة اختصاصيي العنف، على عملية صنع القرار، وعلى الثقافة السياسية السائدة التي تمجد العسكر وقيمه، ويعمل فيها الجيش باعتباره بوتقة الصهر الرئيسية للأمة.[١١] وهذا يتفق مع مجادلة يغيل ليفي الذي يقر بوجود تأثير كبير للجيش على المستوى السياسي، ويعتبره اللاعب الأهم في صناعة القرار على المستوى المؤسساتي.[١٢]

إذًا، لا يمكن الحديث عن نشوء الإسرائيلي الفرد، وبناء المجتمع، وعملية بناء الدولة، بمعزل عن الثقافة العسكرية التي نشأت معها، فمن الملاحظ والواضح أن احتياجات المجتمع الإسرائيلي في فترة النشوء وما بعدها للحماية العسكرية، وطدت معنى العسكرة في كافة السياقات. وحتى عند الحديث عن بدايات فكرة الدولة الصهيونية، فإن إسرائيل أنتجت وعرفت

مع انتهاء هذا الإقحام للجسد العسكري في الفضاء الاجتماعي _الذي تواصل منذ نشوء إسرائيل وحتى سنة ١٩٩٧، ومع الحاجة إلى عرض الجسد العسكري في فضاءات جديدة، دون الحاجة إلى خوض سجالات الميزانية والإرهاق المادي والجسدي للجيش؛ بدأت محاولات عدة لتحقيق هذا الهدف. فكانت الإنتاجات الإسرائيلية الدرامية والوثائقية والسينمائية ساحة جديدة أقل جدلًا.

نفسها بكونها دولة أمنية، وهذا ما أوضحه جوني منصور وفادي نحاس في كتابهما "المؤسسة العسكرية في إسرائيل"، حيث كان النجاح الذي حققه بن غوريون مع القيادات اليهودية والييشوفية أنه جعل القضية اليهودية قضية أمنية صرفة، وليست فقط مسألة سياسية تحتاج إلى قرار دولي وما شابه. وبالتالي بدأت هذه الرؤية تتغلغل شيئًا فشيئًا إلى أوساط القيادات الصهيونية العالمية. بمعنى آخر شدد بن غوريون على النظرية الأمنية بكونها الأمر الأهم بالنسبة للوجود اليهودي في فلسطين ومستقبل الدولة اليهودية.[١٣]

أما من ناحية العمران، فلم تنفصل حسابات شكل المستوطنات وموقعها الجغرافي عن هذه القيم العسكرية،[١٤] إذ هيمنت الحسابات العسكرية على شكل هذه المستوطنات وموقعها وبنيتها الداخلية. فمع تقديم الهاغاناة وسائل الدفاع المباشر عن النفس سواء الفردي أو الجماعي، ومع تطورها كأداة عسكرية ذات قيمة عامة لمشروعات أكثر جرأة في ميدان التوطن والسياسة؛ نهض بها المجتمع الإسرائيلي. ونتيجة هذا الوضع فقد باتت كل مستعمرة يهودية قلعة هاغاناة[دفاع]؛ وصحب التخطيط الاقتصادي الزراعي لبناء المستعمرات، تخطيط عسكري وترتيبات حربية. فكان الاهتمام بالسيف، يضاهي الاهتمام بالمحراث.[١٥]

مع ظهور تيار يرى أنَّ العروض العسكرية التي كانت تقام في الساحات العامة داخل إسرائيل ما هي إلا إنهاك لطاقات الجيش الإسرائيلي على المستوى الجسدي والمادي، في دور أُقحمَ لأدوار الجيش، نتج تيار آخر يرى أنه لا مشكلة في العروض العسكرية، إذ إنها تمثل إسرائيل، وما هي إلا احتفال ببعض الأيام التذكارية الإسرائيلية. ومع اختلافات الرأي في الوسط السياسي الإسرائيلي، بدأ عدد العروض ينحدر تدريجيًا منذ عام ١٩٧٣ ليقدم آخر عرض عسكري منظم بـ "يوم الاستقلال" عام ١٩٩٧ عندما أعلن الوزير المسؤول عن الاحتفالات أنه تم إلغاء هذه العروض العسكرية لأسباب تتعلق بمشاكل الميزانية والرغبة في عدم التدخل في خطط عمل الجيش.[١٦]

مع انتهاء هذا الإقحام للجسد العسكري في الفضاء الاجتماعي ـــالذي تواصل منذ نشوء إسرائيل وحتى سنة ١٩٩٧ ، ومع الحاجة إلى عرض الجسد العسكري في فضاءات جديدة، دون الحاجة إلى خوض سجالات الميزانية والإرهاق المادي والجسدي للجيش؛ بدأت محاولات عدة لتحقيق هذا الهدف. فكانت الإنتاجات الإسرائيلية الدرامية والوثائقية والسينمائية ساحة جديدة أقل جدلًا وعرضة لمثل هذه السجالات السياسية داخل المجتمع. وستنطلق هذه الورقة من افتراض أنّ صورة الجندي الإسرائيلي التي يتم إقحامها في الفضاء العام داخل المجتمع الإسرائيلي لها دلالاتها التي لا تنفصل عن خدمة بعض الأهداف السياسية والاجتماعية والاقتصادية، مثل انخفاض أعداد المتطوعين في للجيش أولًا، والتعتيم على الهاجس الإثني الذي لازم إسرائيل منذ سياساتها لضم مواطنين يهود من خلفيات ثقافية وإثنية مختلفة.

إنعاش الجيش

يعتبر موطي غولاني حرب ١٩٧٣ لحظةً فارقة للقوة باعتبارها مرتبطةً بروح الشعب (Ethos)، فهي الروح الاجتماعية السائدة المغلفة بطهارة من يستعملها رغمًا عن إرادته، ويعود ذلك إلى رفض المجتمع الإسرائيلي الحرب اللانهائية، فبعد حرب ١٩٧٣ ارتفع مستوى المعيشة وتخلخلت روح الجماعة التي

ومع أن هذا التحول من روح الجماعة إلى روح "تحقيق الذات" قد يكون مرتبطًا أيضًا بتغيرات لا تقتصر على إسرائيل، بل تأخذ بعدًا عالميًا، إلا أنَّه يأخذ منحنى آخر في السجال الإسرائيلي. فقد شهدت الإحصائيات انخفاضًا واضحًا في نسبة المجندين في الجيش، ما أنتج سجالًا داخليًا آخر عن تحويل الجيش من "جيش الشعب" إلى "جيش محترف".

أخلت مكانها لروح "تحقيق الذات"؛[١٧] أي أنّ تحولات المجتمع الإسرائيلي نحت منحى ليبراليا على المستوى الشخصي قبل المستوى الاقتصادي العام، وأصبح الهم الفردي يفوق الهم العام، وهذا ما جعل روح المجتمع المرتبط بالقوة تتضرر وكل ما يرتبط فيها من قيم البطولة وضرورة الخدمة في الجيش، كما ازدادت الحساسية للخسارات البشرية في الحروب.[١٨] فقد شهد المجتمع الإسرائيلي تحولات اقتصادية وتحول إلى "مجتمع السوق"، ما ساهم في ابتعاد أبناء الطبقة الوسطى العلمانية عن الجيش، بمعنى أن حضور هذه الطبقة في الوحدات القتالية أصبح أقل من السابق، وأصبح التعامل مع الجيش تعاقديًا أكثر من كونه ولاءً غير متحفظ.[١٩]

ومع أن هذا التحول من روح الجماعة إلى روح "تحقيق الذات" قد يكون مرتبطًا أيضًا بتغيرات لا تقتصر على إسرائيل، بل تأخذ بعدًا عالميًا، إلا أنَّه يأخذ منحنى آخر في السجال الإسرائيلي، بحيث أنتج في بنية المجتمع الإسرائيلي، عدة أزمات داخلية. فقد شهدت الإحصائيات انخفاضًا واضحًا في نسبة المجندين في الجيش، ما أنتج سجالًا داخليًا آخر في الحكومة الإسرائيلية عن تحويل الجيش من "جيش الشعب" إلى "جيش محترف".

فبناءً على الإحصائيات، شهد العام الماضي انخفاضًا في نسبة المجندين في الجيش،[٢٠] فقد انخفضت النسبة من ٥٩٪ بين الإناث عام ٢٠٠٥ إلى ٥٦٪ عام ٢٠١٩، أمّا بين الرجال فقد انخفضت من ٧٧٪ عام ٢٠٠٥ إلى ٦٩٪ العام الماضي،[٢١] لكن هذا التراجع لا يحدث فقط في الإقبال على الخدمة العسكرية بحدّ ذاتها، بل في الإقبال على الوحدات القتالية لصالح وحدات السايبر،[٢٢] فقد انخفضت نسبة طلبات الانضمام إلى الوحدات القتالية من ٧٦٪ من مجمل المؤهلين للخدمة العسكرية عام ٢٠١٠ إلى ٦٧,٥٪ في عام ٢٠١٧،[٢٣] ما أعاد فتح الباب أمام عودة النقاشات عن "جيش الشعب" أو "جيش محترف"،[٢٤] وعلى الرغم من ذلك لا يبدو أنّ هناك اتجاهًا قريبًا نحو إلغاء فكرة جيش الشعب، نظرًا لمركزية الجيش بصفته بوابةً لدخول المجتمع وعمله كبوتقة صهر .

وكما تم استعراضه، فإن إسرائيل دولة قامت بشكل ديناميكي على تعريف نفسها، ومن ينتمي لها أو يستحق الانتماء لها من خلال الجيش؛ أي من خلال نشوئها كدولة عسكرية وخلق مواطنين متأهبين دائمًا للحرب، وهذا ما يجعل سجالات مثل سجالات إلغاء جيش الشعب تأخذ طابعًا مختلفًا تمامًا عن غيره من الدول. إذ يوضح عزمي بشارة في هذا السياق، أن إسرائيل أنشأت مواطنيها من خلال الخدمة الإجبارية في الجيش، وإبقاء كل فرد على استعداد دائم للحرب والاستدعاء في أي لحظة للحرب.[٢٥]

بطولة متمردة

يحمل الإنتاج الدرامي الموجه للعالم وللمجتمع الإسرائيلي في الآونة الأخيرة شحنات من البطولة العالية، وهي إحدى تفاعلات هذا الإنتاج، ولأن هذه العلاقة تعبر عن البنى الفوقية والتحتية في إسرائيل، وليست أحادية وتعكس التفاعلات في المجتمع، فإنّ حضور سردية البطولة وتمثلها في الإنتاج الدرامي والسينمائي هو تعبير عما يدور، أو أقله عن جزء، مما يدور في المجتمع الإسرائيلي، من بروز روح "تحقيق الذات" وتعزز الفردانية وفقدان سردية البطولة، لتأتي هذه الإنتاجات الإسرائيلية كنوع من الترويج للبطولة كمحاولة لإعادة "روح

الجماعة". وتظهر قيمة البطولة في الإنتاجات الإسرائيلية في مستوياتٍ عدة، وفي مناطق تبدو متشابهةً في كثير من الأحيان. فمثلًا، تشترك معظم الإنتاجات الإسرائيلية في جزئية رفض الجندي البطل تعليمات المسؤول عنه التي تأمره بالانسحاب من ساحة المعركة لخطورة قد تؤثر عليه، أو لفقدان الأمل من نتائج مثمرة من العملية. وهذا الطرح يعطي قيمتين للبطولة، الأولى وهي إعطاء نوع من الاستقلالية للجندي الإسرائيلي والتعتيم على البيروقراطية العالية في الجيش الإسرائيلي التي أفقدت الجندي معنى إنجازاته وبطولاته ومعنى عمله. أما الثانية فهي تضحية البطل الفرد بنفسه من أجل إنقاذ الآخرين، وتكريس نفسه لخدمة بلده وشعبه، وهو ما يكتسب معنى فرديًا مرتبطًا بتحقيق الذات. فمثلًا في المسلسل الإسرائيلي "فوضى" الذي تدور أحداث الجزء الثالث منه حول فرقة خاصة أو ما يعرف بالمستعربين، تنفذ عمليات صعبة بقدرات خارقة وبعدد قليل يتراوح بين ٤-٥ في وسط معادٍ لها، إمّا في الضفة الغربية أو قطاع غزة مع التركيز على غزة في هذا الجزء. الجزء الثالث الذي يشكل في غالبه محاكاةً لعملية استخبارية إسرائيلية فاشلة في قطاع غزة، قام بقلب القصة وأدخل العديد من الأحداث والمشاهد لكي تخدم المسلسل الممتد على ١٢ حلقة. فيركز السيناريو على رفض الفرقة المتكرر للانسحاب. فعلى سبيل المثال: رغم انكشاف الوحدة وطلب القيادة من أفرادها مغادرة غزة، إلاّ أنّ الوحدة ترفض ذلك نظرًا لوجود معلومات ضعيفة حول وجود الشابة "يعرا" التي أسرت في غزة، فيدور حوار بين "غابي" في القيادة والوحدة، "**غابي: أرشدهم إلى منطقة المروحية. درون: هذا ما أتينا لتحقيقه وقد اقتربنا جدًا منه. ايلي: إلغِ طلب المروحية**"، فتقرر الفرقة البقاء في غزة لوجود فرصة إنقاذ ضعيفة. بعد هذا كلّه، وفشل علمية الإنقاذ، ومقتل أحد جنود الفرقة، تصل معلومات أنّ "يعرا" موجودة في رفح ولكن هناك طلب بخروجهم من غزة، مرة أخرى ترفض الوحدة الخروج ويعبر عن ذلك حوار "درون" مع "هيلا" رئيسة مكتب غزة التي تظهر بأنّها تعرف كل شيء في غزة طوال الوقت. "**درون: هل سترسلين صوراً جوية للمنطقة؟. هيلا: اسمع يا "درون"، هي موجودة في مجمع محصن وفيه مخابئ فوق الأرض وتحتها ومسلحون وكاميرات وأسلحة. درون: نحن لها**".

وتظهر هذه القيمة البطولية في مسلسلات أخرى مثل مسلسل "The spy" الذي يتبنى الرواية الإسرائيلية حول "إيلي كوهين"، وتدور أحداثه عن الجاسوس الإسرائيلي الذي كان متواجدًا في سورية في فترة حكم الرئيس السوري أمين الحافظ. يظهر "إيلي كوهين" كبطل يتأزم مع كل المحاولات لاسترجاعه بعد أنّ تم ترشيحه لأن يكون عميلًا في إسرائيل، فمع اكتشاف أخ إيلي أنه العميل الإسرائيلي في سورية؛ تتأزم العقدة بالنسبة لإيلي، ويبدأ بالتفكير بشكل جاد بالعدول عن القرار، إلى أنَّ المشهد الآخر الذي يتبع كل هذه المشاهد المتأزمة ينقلنا إلى سورية، بعد عودة إيلي إلى هناك وقبول منصب نائب وزير الدفاع السوري، على الرغم من كل التأزمات التي تعرض لها والخطورة التي كانت تحيط به بعد اكتشاف مجموعة من الجواسيس وإعلان قرار إعدامهم، والعمل الجاد من قبل المخابرات السورية على كشف المزيد من العملاء. مع أنَّ البطل الإسرائيلي في هذا المسلسل تم كشف أمره وقتله من قبل القوات السورية، إلا أن عرض هذه البطولة لم يقتصر على الإصرار على متابعة التضحية فقط في لحظات قريبة من انكشاف أمره، ولكن المسلسل أصر على عرض نهاية بطولية مبالغ بهها إلى درجة إصرار كوهين على إرسال المعلومات الموجودة بحوزته حتى مع انتشار قوات الأمن السورية حول منزله ومراقبة تشويشات الخطوط من أجل كشف العملاء، وإصراره على إرسال آخر معلومة للجيش الإسرائيلي حتى مع وجود الأمن السوري على باب الشقة التي يسكن فيها.

ولم يخل الفيلم الدرامي الوثائقي "منتجع البحر الأحمر للغوص" من هذا العرض المتكرر لرفض البطل الإسرائيلي أوامر مسؤوليه، فتم عرض هذه الجزئية في المسلسل في ما لا يقل عن ٥ مشاهد مختلفة؛ إذ يروي الفيلم سيرة وحدة من الجيش الإسرائيلي قامت بتهريب اليهود الإثيوبيين إلى إسرائيل مع نشوب الحرب الأهلية. تكمن فكرة الفيلم التي استمد اسمه منها، في استئجار هذه الوحدة لمنتجع البحر الأحمر للغطس، وهو فندق ساحلي مهجور في السودان، وتعيش الوحدة فيه وتقوم بإدارته كتغطية عليهم لتسهيل نقل اليهود إلى خارج البلاد.

يتم عرض البطل الإسرائيلي "أري" في هذا الفيلم، على أنّه ذلك الجندي الخارج عن الأوامر، ليس في سياقها العام، بل في سياقها البطولي فقط، فمع بداية الفيلم، يعود "أري" إلى إسرائيل بعد أنّ قام بتهريب بعض اللاجئين إلى المخيمات السودانية ليرتب تهريبهم إلى إسرائيل مرة أخرى، وبعد عودته يتم الحوار في قيادات الجيش عن منعه من متابعة تهريبهم

لخطورة قد تحيط به، ففي حوار لـ"أري" مع مسؤوله "إيثان". **يقول إيثان: يجب أن تنهي مهمتك، سيضع مكتب التهريب خططًا بديلة. أري: لا تفعل ذلك يا إيثان، تعرف أن هؤلاء الأشخاص حمقى، وسيهدرون شهورًا على خطط غير قابلة للتطبيق، شهورًا لا يمكننا أن نضيعها، لا بد أن تعيدني.** ليعرض "أري" مرة أخرى خطة بديلة على الجيش وهي خطة استئجار فندق منتجع البحر الأحمر للغوص، وتتم الموافقة عليها ويتابع أري وفرقة معه مكونة من ٥ أشخاص عمليتهم، ويتكرر هذا الرفض للعودة في مشاهد أخرى أثناء قيامهم بالعملية.

بعد أنّ كادت الفرقة أن تكشف مع نقلها للآلاف من اليهود الإثيوبيين، تعرض القيادة على الفرقة مرة أخرى العودة بشكلٍ سريع إلى إسرائيل، وبعد رفض اليهودي الإثيوبي المشترك في عملية التهريب ذلك بقوله: **لن أعود، فهنالك الآلاف ما زالوا هنا.** يرفض "أري" العودة ويخير زميليه بين العودة إلى إسرائيل أو إكمال المهمة برفقته. وهذا يظهر في حوار أري مع زملائه. إذ يقول: **أنا لن أعود قبل أن أنجز مهمتي التي جئت من أجلها، أما أنتم فالقرار قراركم.** لينتهي المشهد بمشاركة ثلاثتهم في إكمال المهمة، والعودة إلى إسرائيل بطيارة إسرائيلية نقلت معظم اليهود الإثيوبيين. لينتهي الفيلم الإسرائيلي بشاشة سوداء مكتوبٌ عليها: **استمرت هذه العمليات التهريبية لليهود الإثيوبيين، وتم إنقاذ الآلاف منهم.**

لم تخل كل هذه الإنتاجات من هذا العرض للجزء المتعلق بالرفض البطولي لأوامر القيادة بالانسحاب قبل إكمال المهمة الموكلة للجندي، ولم يتوقف العرض على هذه الإنتاجات فقط، ففي مسلسل when heroes fly تبرز فكرة الجندي الذي يمثل البطل الإسرائيلي الخارق الذي يقوم بمهمات صعبة خارج إسرائيل. المسلسل الذي يعالج في الأساس قضية اضطرابات ما بعد الصدمة BTSD التي تتسبب بها الحروب للجنود، لا يخلو من نموذج البطولة هو الآخر، بل يمكن القول إنّ تصوير الجندي كبطل على الرغم من كل الصعوبات النفسية، مركزي بقدر تسليط الضوء على الاضطرابات التي يعانون منها.

يبدأ المسلسل بلقطات من حرب لبنان الثانية عام ٢٠٠٦، لمجموعة من جنود الاحتياط في الجيش كانوا قد أنهوا الخدمة الإلزامية قبل عام فقط. وحضور الحرب لا يكون مركزيًا طوال المسلسل من ناحية لقطات وأحداث، لكن أثرها يبقى حاضرًا طوال الوقت وتسترجع كأحداث تؤثر على كل القصة.

تبدأ الإشارات للبطولة والتضحية منذ بداية المسلسل،

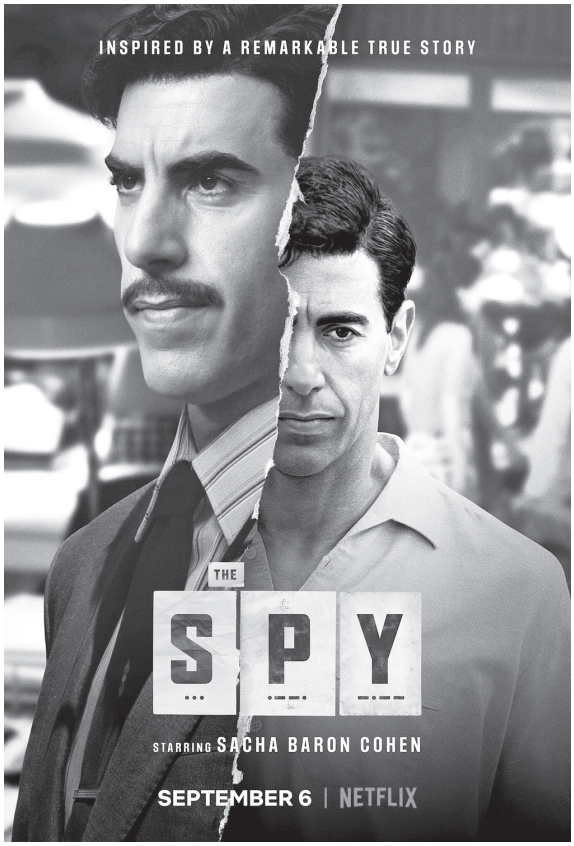

ملصق "الجاسوس".

فخلال الانسحاب من جنوب لبنان تظهر دبابة لمجموعة الجنود الذين يعودون برًا إلى إسرائيل، ويتوقفون عندها ويعلمون أنّ هناك أمرا بتدميرها لأنها تحتوي على خرائط مهمة، لكن يلحظون حركةً في بُرج الدبابة، ما يدفعهم للتوجه إليها على الرغم من أنهم في طريق العودة لإسرائيل، ليكتشفوا وجود جنود فيها ويقومون بإنقاذهم، ويشير الجنود الذين أنقذوا إلى أنهم كانوا متأكدين من عدم تركهم وحيدين – في إشارة إلى أنّ الجيش الإسرائيلي لا يترك جنوده في الميدان، وهي إشارات متكررة دائمًا وتتمثل في عمليات التبادل–، في هذه اللحظات تهاجم مجموعة من مقاتلي حزب الله الدبابة والجنود، ويكون التقدير أن عددهم نحو ٣٠ مقاتلًا، مقابل عدد قليل من مقاتلي الجيش الإسرائيلي. يصاب عدد من الجنود خلال الاشتباك من بينهم قائد وحدة الاحتياط "أزولاي" الذي يطلب من الجندي "أفيف" الانسحاب مع القوات وتركه لصعوبة إنقاذه. يقول "أزولاي" للجندي "أفيف"، "محال أن نسمح لهم بالحصول على تلك الدبابة، عليك أن تُخرج المجموعة من هنا، أنت الوحيد الذي يعرف مسار العودة"، ويطلب من الجيش قصف الدبابة لحماية

.. في "منتجع البحر الأحمر".

أشرف مروان في "الملاك".

المعلومات الموجودة فيها، ويكون القتيل الوحيد في هذا الكمين، فيما يتمكن بقية الجنود من مغادرة المكان.

في مشاهد أخرى، تتحرك المجموعة في كولومبيا قبل أنّ تعتقلها الشرطة، ولكنها تتمكن من الهرب وتستطيع تحديد الغابات الموجودة فيها "يائيلي"، وهي غابات لا تستطيع الشرطة الكولومبية الدخول إليها. توصلهم حبيبة "بيندا" إلى الغابة ويلتقون بعمها الذي يقدم لهم السلاح، وبين إقبال وتردد يحصل كلٌ منهم على سلاح يقولون إنه للدفاع عن النفس، ويختارون أسلحة شبيهة بتلك التي حملوها في الجيش. وفي إعادة تراجيدية لمشهد رسم الطريق من خلال الخرائط، يقوم "أفيف" و"هيملر" بذلك، يتنقلون وسط الغابات ويضيعون الطريق قبل أن يقعوا في كمين ينجحون في الفرار منه مع إصابة "بيندا" وقتل عدد من المهاجمين.

يمكث "دوبي" مع "بيندا" المصاب ويحاول التواصل مع الشرطة، وينجح في ذلك، كما يعود وينقذ صديقه الذي اكتشف مكانه، ويقتل من حاول قتله.

في هذه اللحظات، يستمر بحث الجنود قبل أنّ تتمكن طائفة الأيتام من القبض على "هيملر" ولاحقًا "أفيف"، ومع اشتداد الهجوم وتحديد موقعهم تصل الشرطة إلى هناك وتجري معركة ينقذ فيها "هيملر" رفيقه الذي كان على خلاف مع "أفيف"، ويقتل رجال العصابات الذين اشتبكوا مع الشرطة لوقت ولم تنجح في النيل منهم، في ما ينجح أحد المصابين منهم بإصابة "هيملر" وقتله، وعلى الرغم من ذلك يطلب من "أفيف" البحث عن "يائيلي".

أمّا مسلسل الملاك The Angel الذي يتناول قصة العميل المصري أشرف مروان، فتم التطرق إليه كبطل إسرائيلي يحمل صفات الإسرائيلي نفسها في جزئية البطولة. ففي هذا الفيلم الذي يعرض الرواية الإسرائيلية لقصة مروان، زوج ابنة الرئيس المصري السابق جمال عبد الناصر الذي تغلغل في الحكومة المصرية على مدار رئاسة ثلاثة رؤساء مصريين، بداية من الرئيس المصري جمال عبد الناصر مرورًا بالسادات وانتهاءً بالرئيس المصري حسني مبارك، تبقى صورة التمسك بالبطولة واضحة كما المسلسلات الأخرى التي تم عرضها، إلا أنها تأخذ بعدًا آخر. فبعد تسليم أشرف مروان عدة معلومات عن توقيت بعض الغارات المصرية السورية التي حصل عليها من خلال التجسس على الرئيس المصري أنور السادات، والتي كانت مغلوطة؛ رفضت المخابرات الإسرائيلية التعامل معه، إلاّ أنه مرةً أخرى أصر على إعطاء المعلومات الصحيحة والحصول عليها وتقديمها للمخابرات الإسرائيلية لحماية المدنيين الإسرائيليين الذين قد يموتون جراء القصف المصري والسوري على إسرائيل.

البطولة: الحل السحري

لأسباب تظهر وكأنها أسباب تراجيدية لخدمة النص؛ تظهر الأزمات الأُسرية والعاطفية والاجتماعية في معظم الإنتاجات الإسرائيلية مترافقةً مع مشاهد ما قبل خوض بطل المسلسل أو الفيلم الإسرائيلي بطولته ومتداخلةً في النص في معظم الأحيان. إلاّ أنّ هذه الأسباب لم تكن أسبابًا تراجيدية وحسب، وإنما أعطت البطولة معناها، لتأتي البطولة كحلٍ سحري، فيرتبط هذا بالعرض الإسرائيلي عن البطولة الذي يحاول أنّ يصنع صورة بطلٍ خارق من بين كل الأزمات العاطفية والأُسرية التي خرج منها منتصرًا بفضل بطولته مرةً أخرى.

يظهر هذا العرض للبطولة كحل لكل هذه الأزمات في الإنتاجات الإسرائيلية مختلفة. فمثلًا في مسلسل فوضى، ذهب "درون" إلى غزة قبل أن يرى ابنه "إيدو"، وذلك بسبب مشاكل "درون" مع زوجته التي منعت لقاءهما، إلاّ أن ما شاهده "أيدو" على الأخبار وما سمعه عن بطولة والده وبطولة وحدته

يزعزع مشاعر الطفل ويعيد شوقه للقائه، فتصل الوحدة إلى إسرائيل بعد قتال عنيف لاسترجاع الأسيرة الإسرائيلية عند حماس، ليركض "إيدو" باتجاه والده ويضمه. ولم تقتصر حلول البطولة السحرية على "درون" فقط، وإنما شملت معظم جنود الوحدة. فقبل الدخول إلى غزة يقرر "ستيف" أحد جنود الوحدة عدم الذهاب معهم ،كي لا يقتل ويبقى ابنه وحيدًا، ولأن علاقته مع زوجته سيئة نتيجة عمله، ولكنه بعد إصابة "أفيخاي"، وفي لحظة واحدة، يظهر على حاجز بيت حانون ليدخل إلى غزة مع "نوريت" وهي جندية بالوحدة أيضًا، ويصل عندما يقرر "درون" تسليم نفسه والذهاب للمشفى مع "أفيخاي" من أجل إنقاذ حياته، لكن وصول "ستيف" و"نوريت" ينقذهم في لحظة درامية خلال الوقوف على أحد الحواجز في قطاع غزة. ومع أن مشاركة "ستيف" لم تكن كاملةً في العملية، إلى أنّ بطولته عُرضت كحل لمشكلته مع زوجته.

حتى مع موت صديقهم بسبب تقدمهم ومجازفتهم، عُرضت البطولة ونتائجها المثمرة كمواساة لهؤلاء الجنود. ففي وسط الحديث المأساوي بين "درون" و"ستيف" عند منزل "أفيخاي" عن الخطأ في العودة بعد وصول المروحية لنقلهم، والتي أدت إلى موت صديقهم "أفيخاي"، تأتي "يعرا" الفتاة التي كانت مأسورةً في غزة مع عائلتها لمواساة عائلة "أفيخاي"، فينتصر مشهد البطولة على مشهد الحزن والسؤال الأخلاقي، ويقول "درون" لرفيقه، "هذه هي طبيعتنا، وهذه هي طبيعة أفيخاي، نحب التقدم، ونحب أن نكون في المقدمة مع أنه كان من الممكن أن يكلفنا الكثير.

أما في مسلسل when heroes fly، فإن المشاكل النفسية التي نتجت عن البطولة، لا يمكن الفكاك منها إلاّ ببطولةٍ أخرى. فخلال عملية إنقاذ "يائيلي" تنتهي كل الأزمات العالقة بين "أفيف" و"هيملر"، كما أنّ نهاية عملية الإنقاذ تؤدي إلى إنهاء أزمة "أفيف" واضطراب ما بعد الصدمة، واستعادة حياته السابقة.

في مسلسل "The spy" يفتتح المسلسل بمشاهد عدة تعرض أزمة اليهودي الشرقي وبطل المسلسل "إيلي كوهين" في مجتمع يبدو البطل فيه وكأنه منعزل لكونه شرقيًا، ويحاول البطل أن يعطي لنفسه معنى لإنجازاته في عمله الروتيني – يعمل في متجر كبير كطابع إيصالات على ناسخ آلي– من خلال وضع ساعات معينة لإنتاج أكبر عدد من الكلمات التي تتم طباعتها. بعد العمل، وفي حفلة نظمتها صديقة زوجته في منزلها، يقوم زوج الصديقة بطلب المشروبات من "إيلي" ظنًا منه أنه خادم في الحفل، فيظهر "إيلي" نفسه متقبلًا للطلب ويذهب ليحضر بعض المشروبات. ينتقل المشهد إلى حوار بين "إيلي" وزوجته في منزلهما، فيقول "إيلي": "**لم أقصد أنها ليست صديقتك، أو أنك لا تروقين لها. ترد نادية: هذا ما قصدته تحديدًا. هل تظن أن امتلاكهم المال قد يجعلهم أعلى منا. إيلي: لا، هذا ليس السبب، بل لأنهم يظنون أنهم أفضل منا. نادية: من؟ ايلي: كلهم. الجميع، بحفلاتهم الغبية وموسيقاهم الطفولية. لا فكرة لديهم عما فعلته في مصر. يظنون أنني مجرد مهاجر عادي**". يتم استدعاء "إيلي كوهين" للعمل كجاسوس في سورية، ليجد فرصته في الاندماج في مجتمع يرفضه. ينجز "إيلي" الكثير من المهام الملقاة على عاتقه ويعود لإسرائيل في إجازة. يذهب هو وزوجته لشراء عدد كبير من البضائع لمنزلهما، ليوقفهما حارس أمن المتجر قائلًا: "**ألديك إيصال بهذه الاغراض. إيلي: عفوًا. العامل: إيصال لهذه الأغراض، وأوراقكم الشخصية. إيلي: ما الداعي لإبراز أوراق هوياتنا؟ نحن زبائن ندفع أموالًا ولا نحتاج لأن نريك أي شيء. العامل: أؤدي وظيفتي فحسب، كانت تسرق أغراض من هنا. إيلي: عفوًا، أصبحت سارقًا الآن، أهذا هو الأمر. الا تظن أننا بإمكاننا تحمل نفقة شرائها**؟". يظهر هذا المشهد الفرق بين شخصية إيلي ما قبل دوره "البطولي" وبعده، ويوضح ما أنجزته التجربة التي خاضها "إيلي" في سورية في تعزيز ثقته بنفسه واستبطان صورة مختلفة عن سابقها لنفسه، ويظهر كأنه أكثر قدرة على مواجهة اللامساواة المفروضة عليها.

يفتتح الفيلم الشبيه بالمسلسل السابق The angel، بمشاهد تروي قصة الرفض الذي تعرض له بطل الفيلم والجاسوس الإسرائيلي –حسب الرواية الإسرائيلية– "أشرف مروان"، من قبل الرئيس المصري "جمال عبد الناصر"، إذ عرض الفيلم التهميش الذي كان يمارس من قبل عبد الناصر، مظهرًا أنّ سبب تواصل مروان مع المخابرات الإسرائيلية هو التهميش الذي كان يتعرض له من قبل والد زوجته. في أحد المشاهد الافتتاحية، يقول "أشرف" لزوجته "منى": "**هل أنتِ موافقة على الطريقة التي يهينني بها؟ منى: لم أقل ذلك. أشرف: إذًا ما هذا، لا أفهم ما مشكلته معي؟ منى: لقد غضب لأنك عبرت عن أفكارك على المائدة، هذا كل شيء. أشرف: منى، كرهه يعميه، إنه ينبذني كل مرة**". ليتم عرض المشاركة العسكرية مرة أخرى، كخلاص لهذا النبذ الذي يتعرض له بطل المسلسل من جديد.

وهكذا تم عرض البطل الإسرائيلي "أري" في فيلم "منتجع

البحر الأحمر للغوص". فبعد أن غاب "أري" عن ابنته الوحيدة مدة طويلة في العمل، يظهر وهو يشرح لها عن عمله في الجيش. يجد "أري" رسمة لابنته تعرضها هي وأمها مكتوب عليها بخط عريض "عائلتي". فيقول "أري": "**أين أنا من هذه الصورة؟ فتجيب ابنته: في العمل**". مشهد يحمل شحنة درامية عالية تبرز أثر غياب الأب في عمله في الجيش، إلاّ أنّ صورة الأب والبنت لن تظهر مرة أخرى في الفيلم إلا في صورة أفضل، فيما بدا وكأن كل المشاكل القديمة قد انتهت، بدون ترابط منطقي في الأحداث. يتنقل "أري" إلى السودان مجددًا للعمل على تهريب الإثيوبيين من جديد، وبعد تهريب الدفعة الأخيرة، ومع إقلاع الطائرة الإسرائيلية من السودان، يفتح "أري" ورقة كانت قد أرسلتها له ابنته قبيل إقلاع الطائرة، رُسم فيها صورة له ولزوجته ولابنته مكتوبٌ عليها "عائلتي".

لقد تم عرض الفعل العسكري البطولي، كحل شامل وخلاص نهائي للمشاكل الأُسرية والعاطفية والمجتمعية، حيث أصبحت المشاركة العسكرية بمثابة "النهاية السعيدة"، التي يتجاوز البطل من خلالها العقد الدرامية، من دون ترابط أو تسلسل درامي واضح، فيما بدا وكأنه مقولة سياسية مباشرة.

على العموم، فإن ما يميز تلك الأعمال الدرامية، أنها تخاطب الهموم الفردية للأبطال، حيث لا تمثل شخصية "إيلي" الوضع العام لجماعة إثنية مهمشة في إسرائيل، وإنما يتم عرض الدونية التي يتعرض لها، كمشكلة فردية، أو جزء من الصراعات اليومية التي تواجهها الشخصية، فيما تصبح البطولة بمثابة خلاص فردي أيضًا. يظهر هنا نمط جديد من التصورات حول البطولة في الدراما الإسرائيلية، تبدو متلائمة مع التحول نحو صياغات أكثر فردية، لا تجيب على أسئلة تتعلق بالجماعة، ولكن بصراعات الفرد وهمومه، معاني حياته الشخصية. وهو تحول لا بد من فهمه في ضوء الانتقال إلى مجتمع ما بعد البطولة، وانخفاض التوق عند الفرد الإسرائيلي لأن يكون بطلًا جمعيًا، بعد تخلخل روح الجماعة التي آلت إلى روح "تحقيق الذات".

ملاحظات ختامية

حاولت الورقة تقديم قراءة في حضور ثيمتين في الدراما الإسرائيلية، وهما البطولة كما يتم عرضها، والمجتمع المتجانس كما يتم تمثيله، وتعاملت الورقة مع الدراما بصفتها عاملًا فاعلًا في المجتمع يعكس الأزمات والعلاقات والتفاعلات، وليست شيئًا قائمًا بذاته باتجاه أحادي.

إحدى هذه الأزمات هي فقدان سردية البطولة الإسرائيلية، وظهور أزمات أخرى في المجتمع مثل انخفاض نسبة التجنيد. ويمكن القول إنّ الدراما عملت على ترميم وإعادة بناء صورة التضحية والبطولة الإسرائيلية وإعادة إنتاجها في صورة جديدة أقرب وأبعد عن الواقع؛ أي أنّها مبنية على أحداث تحتوي على الكثير من الدراما والخيال، ولكنها تتعامل مع البطل بأنسنة أكثر من السابق؛ أي أنها تقحم سردية البطولة في مشاكله اليومية والعائلية والاجتماعية. بالإضافة إلى صورة الجندي الفاعل في الجيش، والبطل، بغض النظر عن سياقه التاريخي الذي نتج فيه، وبغض النظر عن خلفيته الاجتماعية الآتي منها.

ما تشير إليه الدراسة، يتعلق بنوع من التحول العميق في مفهوم البطولة في إسرائيل، كما تم التعبير عنه في الأعمال السينمائية. حيث إنها بطولة ارتبطت كما تمت الإشارة أعلاه، بنوع من تطوير نمط آخر من احتلال الثيمة العسكرية للفضاء العام، ومخاطبة شرائح جديدة من المجتمع.

لكن الأهم، أن سردية البطولة الجديدة، لم تكن منفصلة عن نوع آخر من التحولات داخل المجتمع الإسرائيلي، وهو نزوعه نحو فردانية أكثر، وقيم تتعلق بتحقيق الفرد لنفسه، لا من خلال الانتماء إلى الجماعة الكلية، ولكن من خلال إنجاز نوع من الخلاص الفردي، حيث تم تطوير البطولة كثيمة تتعلق بالريادة وتحقيق الذات، والخلاص الفردي من الهموم الاجتماعية.

هنا، يبدو أن ثيمة البطولة تخلت عن دورها كرافعة للصهر الاجتماعي بالمعنى التقليدي، ولكنها إما مالت إلى إنكار تلك الفوارق بين المجموعات المتباينة، أو تفضيل تجاهلها؛ بمعنى أن البطولة العسكرية لم تعد تُقدم باعتبارها نوعًا من خلاص الفرد من تهميش تتعرض له جماعته، وإنما كنوع من خلاص الفرد/البطل من جماعته نفسها؛ أي أن البطولة، تُعرض وكأنها بمثابة استحقاق، يحصل البطل من خلاله على الحق في الانتماء بشكل فردي إلى المجتمع، دون مساءلة أنماط التهميش التي لا تزال جماعته تتعرض لها.

الهوامش

١ . بدأ عرض مسلسل فوضى على شاشات التلفاز في إسرائيل نهاية عام ٢٠١٩ ولم يأخذ صدى كبيرًا إلاّ مع بدء عرضه على شبكة نتفليكس في نيسان ٢٠٢٠، وقد أثار العديد من النقاشات مع مسلسلات أخرى، ويمكن الاطلاع على جزء منها بمراجعة، عبد الجواد عمر، "الهاسبرا" الصهيونية الجديدة: الصيّاد الفاضل"، باب الواد، ١٠ آب ٢٠١٩، شوهد في: ١٥ أيار ٢٠٢٠، في: https://bit.ly/3gFGV2G . أورلي نوي، "مسلسل فوضى "الإسرائيلي": معاناة الفلسطينيين مادة ترفيهية لجلاديهم"، بوابة الهدف، ٨ كانون الثاني ٢٠٢٠، شوهد في: ١٥ أيار ٢٠٢٠، في: https://bit.ly/2BosgJ8 . عيد عزيز، "فوضى الدماء والبقاء على كل المستويات... الثقافية والسياسية والاقتصادية"، رمان، ١٣ أيار ٢٠٢٠، شوهد في: ١٥ أيار ٢٠٢٠، في: https://bit.ly/2TZhNdC .

Azad Essa, "fauda on Netflix: Palestinians can›t shoot straight (and other stuff we learned), on MIDDLE EAST EYE, Published in: 28 April 2020, Seen in: 20 may 2020, on: https://bit.ly/2Mlrr5X .

وازداد النقاش حول المسلسل بعد إعادة الحملة الفلسطينية للمقاطعة الأكاديمية والثقافية لإسرائيل نشر بيانها الذي يدعو إلى مقاطعة المسلسل، ومن ثم رد الممثلون العرب فيه على البيان. بيان حملة المقاطعة، "فوضى" في خدمة النظام: بروباغاندا تبجّل جرائم الحرب الإسرائيلية"، ٢٨ آذار ٢٠١٨، شوهد في: ٢٠ أيار ٢٠٢٠، في: https:// bit.ly/2XTFrsT . وحول رد الممثلين العرب يمكن مراجعة، وائل الريماوي، "الممثلون العرب في مسلسل "فوضى" الإسرائيلي يسخرون من المقاطعة: مسار تطبيعي جديد"، العربي الجديد، نشر ٩ أيار ٢٠٢٠، شوهد في: ٢٠ أيار ٢٠٢٠، في: https://bit.ly/2XobuCo .

٢. عاموس عوز، "قصة عن الحب والظلام"، ترجمة: جميل غنايم، (بغداد: منشورات الجمل، ٢٠١٠)، ص ١٥.

3. A. Al-Qazzaz, "Army and society in Israel". Pacific Sociological Review, 16/2 (1973) Pp 21-22.

4. M. Azaryahu,. "The Independence Day military parade", in Lumsky- Feder, Edna & Ben Ari, Eyal, *The military and militarism in Israeli society*. (Abany: SUNY press, 1999) Pp 94

٥. لمتابعة نقاشات أكثر حول الجيش وهيمنته يمكن مراجعة، "الجيش يحتكر تفسير الواقع: حول علاقات المستوى العسكري والمستوى السياسي في إسرائيل"، ترجمة سعيد عياش، تقديم: أنطوان شلحت. (رام الله: مدار: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، ٢٠٠٤).

6. G. Goldberg, "The growing militarization of the Israeli political system". *Israel Affairs*, 12(3), (2006) Pp 384.

٧. "ميزانية الجيش الإسرائيلي الأعلى في العالم عند المقارنة بحجم الناتج العام"، مدار، ٢٥ شباط ٢٠١٥، شوهد في ٤ حزيران ٢٠٢٠، في: https://bit.ly/2XXnutI

٨. أوري بن إليعازر، "**حروب إسرائيل الجديدة: تفسير سوسيولوجي-تاريخي**". ترجمة: سعيد عياش، (رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية مدار، ٢٠١٧)، ص ٦٨.

٩. عزمي بشارة، "**من يهودية الدولة حتى شارون: دراسة في تناقضات الديمقراطية الإسرائيلية**". (رام الله: مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ٢٠٠٥)، ص ٥٣.

١٠. موطي غولاني، "**الحروب لا تندلع من تلقاء ذاتها: عن الذاكرة، القوة والاختيار**"، ترجمة: نبيل خليل أرملي. (رام الله: مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، ٢٠٠٦)، ص ١١٤.

١١. عزمي بشارة، "**الجيش والسياسة: إشكاليات نظرية ونماذج عربية**". (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٧)، ص ٤٨-٤٩.

١٢. يغيل ليفي، "يغيل ليفي: الفكر الأساس في السياسة الإسرائيلية عسكري"، أجرى الحوار: أنطوان شلحت وبلال ضاهر. **قضايا إسرائيلية**، عدد ٦١ (مايو ٢٠١٦)، ص ١١٠.

١٣. جوني منصور وفادي نحاس، "**المؤسسة العسكرية في إسرائيل (تاريخ، واقع، استراتيجيات وتحولات)**"، (رام الله: مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، ٢٠٠٩)، ص ٩١.

١٤. لعب العمران دورًا عسكريًا دفاعيًا، فمثلًا إنشاء سلسلة من المستوطنات في الضفة الغربية أنتج ما سمي مصفوفة التحكم، إذ تساهم المستوطنات وشبكة الطرق والمعسكرات في استمرار الهيمنة الإسرائيلية على الفلسطينيين، إيال وايزمن، **أرض جوفاء: الهندسة المعمارية للاحتلال الإسرائيلي**، ترجمة: باسل وطفه، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر ومدارات للأبحاث والنشر، ٢٠١٧) ص ١٢٩- ١٣٠.

١٥. يغال آلون، "**إنشاء وتكوين الجيش الإسرائيلي**"، ترجمة: عثمان سعيد، مراجعة وتقديم: ناجي علوش. (بيروت: دار العودة، ١٩٧١)، ص ٦٧.

16. M. Azaryahu, p. 94

١٧. موطي غولاني، ص ١١٣-١١٦.

١٨. واحد من أبرز الأمثلة على الحساسية المجتمعية تجاه الخسارات في الحروب حركة "الأمهات الأربع" التي طالبت بالانسحاب من لبنان.

١٩. يغيل ليفي، ص ١٠٩.

٢٠. يمكن فهم أهمية الخدمة في الجيش من ناحية مبدأ المساواة في العبء من خلال النقاشات التي كانت تدور في الحكومات الإسرائيلية حول سن قانون لخدمة الشبان الحريديم، وقد تكون هذه النقاشات جزءًا من المناكفات السياسية ولكنها مهمة أيضًا لأن عدد الحريديم يزداد في المجتمع الإسرائيلي وهذا قد يمس عدد المجندين في الجيش. للمزيد حول هذه النقاشات وخلفيتها التاريخية يمكن مراجعة، انطوان شلحت، "أزمة قانون تجنيد الشبان الحريديم: الاعتبارات الايديولوجية والمصالح السياسية". مدار: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلي، ٢٨ حزيران ٢٠١٨، شوهد في ٢٤ أيار ٢٠٢٠، https://bit.ly/2Xvixbm :في

٢١. "انخفاض نسب تجنيد الإسرائيليين: إلغاء نموذج "جيش الشعب" حتمي. عرب ٤٨، ٤ أيلول ٢٠١٩، شوهد في: ٢٤ أيار ٢٠٢٠، في: https://bit.ly/2LW2CgD

٢٢. يشير مهند مصطفى إلى أنَّ هذا الانخفاض في التوجه نحو الوحدات القتالية والاتجاه نحو الوحدات ذات الطابع التكنولوجي والسايبر والاستخبارات، يعود إلى تغير في مفهوم الوحدات الاعتبارية في الجيش الإسرائيلي من الوحدات القتالية المباشرة التقليدية إلى الأذرع العسكرية التكنولوجية، ولاعتبار الجيش مدخلًا للحياة المدنية وهذا ما توفره الوحدات التكنولوجية. مهند مصطفى، "النخب العسكرية في الجيش الإسرائيلي: تحولات في مفهوم جيش الشعب"، قضايا إسرائيلية، عدد ٧٥ (تشرين الثاني ٢٠١٩)، ص ٢٥.

٢٣. نضال محمد وتد، "ارتفاع نسبة الالتحاق بوحدات "السايبر" على حساب الوحدات القتالية لجيش الاحتلال". العربي الجديد، ٥ تشرين الأول ٢٠١٧، شوهد في: ٢٤ أيار ٢٠٢٠، في: https://bit.ly/2LUzM0m

٢٤. يمكن مراجعة أحد هذه النقاشات: يوآف جلبير، "**العقيدة الأمنية ومكانة الجيش الإسرائيلي في المجتمع"، لدى أحمد خليفة، ورندة حيدر، العقيدة الأمنية الإسرائيلية وحروب إسرائيل في العقد الأخير: دراسات لجنرالات وباحثين إسرائيليين كبار**، (تحرير وإعداد) (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠١٥)، ص ٥١-٦٠.

٢٥. عزمي بشارة، من يهودية الدولة...، ص ٥٣-٥٤.

إيان لوستك *

خداع التاريخ ووعد المستقبل**

في هذا الكتاب (تهاوي البراديغما– من حل الدولتين إلى واقع الدولة الواحدة) رأينا مرّة تلو الأخرى كيف تتبدّل الخطط والمشاريع السياسيّة بسبب قانون العواقب غير المقصودة. أرغمت الإستراتيجيّة المستميتة المسمّاة «الجدار الحديديّ للصهيونيّة» العرب على تخفيف مطالبهم، إلّا أنه كان للنجاح الجزئيّ لهذه الإستراتيجيّة عواقب غير مقصودة. ضخّمت هذه الإستراتيجيّة المطالب اليهوديّة–الإسرائيليّة، كما شجّعت تطرّفًا متعنّتًا دمّر كلّ إمكانيّة لتسوية تاريخيّة كان من المفروض أن تحقّقها. إضافةً إلى ذلك، كان صعود «الهولوكوستيا» (Holocaustia) في الثقافة السياسيّة في إسرائيل نتيجةً غير مقصودة للمنافسة بين الذاكرة الجماعيّة المتخاصمة للطرفين، فمنظور الكارثة، الذي أصبح مهيمنًا في إسرائيل، قوّض السلام مع العرب لأنّه شحذ إحساس الخوف والشك والكراهيّة، وجعل من «التسوية» كلمة نابية. نتجت الجهود الناجعة التي أحرزها لوبي إسرائيل في الولايات المتّحدة، والتي غذّاها منظور الكارثة بشكلٍ جزئيّ، عن كرم مفرط تجاه إسرائيل. دمّرت النتيجة غير المقصودة للتأثير المفرط للوبي أرجحيّة الاعتدال السياسيّ في إسرائيل وحوّلت سياسة الدولة اليهوديّة نحو الرفضيّة، ووضعت الختم النهائيّ على دمار مشروع حلّ الدولتين، كما أنّها جلبت فلسطينيّين عربًا أكثر

* محاضر في العلوم السياسية في جامعة بنسلفانيا، مختص في التاريخ السياسي الحديث والشرق الأوسط.

** جزء من الفصل الأخير في كتاب إيان لوستك، ويتناول فيه مآلات حل الدولتين في الواقع الراهن للقضية الفلسطينية:
Paradigm Lost: From Two-State Solution to One-State Reality. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2019

انجذب معظم المعارضين التقليديّين لحلّ الدولتين نحو سياسات «إدارة الصراع». تُسمّى هذه السياسة في اللّغة العسكريّة الإسرائيليّة «جزّ العشب». يُشير هذا التعبير إلى استخدام دائم لعمليّات عسكريّة كبيرة ولاستهداف لقياديّين ولتقييدات اقتصاديّة تؤدّي إلى تراجع البنى التحتيّة الاجتماعيّة والسياسيّة والعسكريّة الفلسطينيّة.

ممّا جلبت يهودًا إلى داخل نطاق سيطرة الدولة الإسرائيليّة.

كان مشروع «الحقّ الإسرائيليّ» ناجحًا بشكلٍ جزئيّ. أدى الدمج القسريّ للضفّة الغربيّة وقطاع غزّة إلى استحالة هندسة حلّ الدولتين، ولكنّ الفلسطينيّين لم يختفوا وما زالوا يقاومون، كما لم تتم إزالة مسألة مستقبل الفلسطينيّين من لبّ الإجماع الإسرائيليّ والسياسة الإسرائيليّة. إحدى عواقب هذا النجاح الجزئيّ، والتي تشمل الاعتماد على مخاوف اليهود الإسرائيليّين وكراهيتهم (وليس على التزاماتهم الايديولوجيّة) لمنع التسوية على الأراضي، كانت منع اليسار، واليمين كذلك، من حلّ هذا الصراع. بينما ما زالوا لا يملكون خطّة لتحقيق ذلك، ما زال المؤيّدون المحبَطون لحل الدولتين متمسّكين برؤيتهم للمستقبل. على نقيض ذلك، لا يملك معظم قياديّي الليكود وآخرون في المعسكر القوميّ حتّى هدفًا منشودًا واحدًا للمستقبل، فلا يمكنهم بالطبع وضع خطّة للوصول إلى هذا المستقبل.

بدلاً من ذلك، انجذب معظم المعارضين التقليديّين لحلّ الدولتين نحو سياسات «إدارة الصراع».[1] تُسمّى هذه السياسة في اللّغة العسكريّة الإسرائيليّة «جزّ العشب». يُشير هذا التعبير إلى استخدام دائم لعمليّات عسكريّة كبيرة ولاستهداف لقياديّين ولتقييدات اقتصاديّة تؤدّي إلى تراجع البنى التحتيّة الاجتماعيّة والسياسيّة والعسكريّة الفلسطينيّة. ليست هذه «بيداغوغيا عنيفة» بأسلوب الجدار الحديديّ، والذي تمّ تصميمه لينتج أعداء مطواعين يطمحون للسلام، بل هي وحشيّة ممنهجة تُستخدم ضدّ خصوم عنيدين لمنع التهديدات على الهيمنة الإسرائيليّة. يعتمد مؤيّدو إدارة الصراع على استمرار فاعليّة السلطة الفلسطينيّة ومساعدتها في الحفاظ على الأمن الحاليّ، كما ينصحون بتخفيف من طرف واحد لسيطرة إسرائيل على

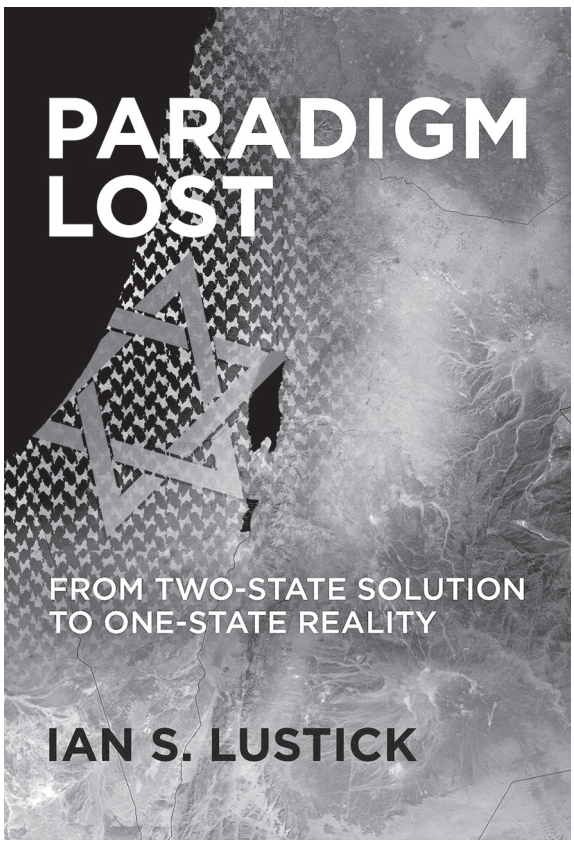

مناطق فلسطينيّة معيّنة ذات كثافة سكّانيّة عالية. من الناحية السياسيّة والدبلوماسيّة، فإنّ «إدارة الصراع» تعني:

- الحفاظ على تصوّر جماهيريّ عن الفلسطينيّين وحلفائهم بأنّهم إرهابيّون أو متطرّفون، وغير موثوق بهم ليكونوا شركاء للسلام؛
- تجنّب اتّخاذ تدابير قاطعة وواضحة من شأنها أن تغيّر أو توضّح مكانة المناطق المحتلّة؛

- الإعراب عن استعداد رسميّ لمتابعة مفاوضات حلّ الدولتين بينما يتم إحباطها بأفعال ومطالب تضمن فشلها؛
- تعويد اليهود الإسرائيليّين على وحشيّة العمليّات ضدّ العرب في لبنان وغزّة والضفّة الغربيّة؛
- تقليل تعبئة الفلسطينيّين وعنفهم من خلال سياسات السجن الجماعيّ ووضعهم في غيتوهات والسيطرة المشدّدة على حركتهم والعقاب الجماعيّ؛
- وضع تقييدات على السلطة الفلسطينيّة وحماس لإبقاء الانقسام الفلسطينيّ ولتعزيز الرقابة والسيطرة؛
- استخدام دعم أميركيّ غير مشروط للدفاع عن إسرائيل ضدّ الجهود العالميّة لتحويل إسرائيل إلى دولة منبوذة عالميًا.

تُبقي هذه السياسات المجموعة السكّانيّة الفلسطينيّة الآخذة في الازدياد تحت ضغط هائل. لا يهمّ عن أيّ منظومة سياسيّة نتحدّث، كلّما ازدادت فترة انقطاع مجموعة سكّانيّة وطالت فترة حرمانها من الملاءمات التي من شأنها أن تساهم في ارتفاع الاستقرار، كلّما زاد احتمال أن تنتج هذه «التقلّبات المحصورة» انفجارات لا يمكن إدارتها.[٢] إذًا، أدّى النجاح الجزئيّ للضمّ على أرض الواقع– والذي جعل من احتمال فصل إسرائيل عن المناطق المحتلّة أمرًا مستحيلاً، ولكنّه لم يقلّل من عدائيّة السكّان الفلسطينيّين في الضفّة– إلى العاقبة غير المقصودة المتمثّلة بحتميّة الحملات اللا–عنفيّة، والحملات شبه العنيفة، والمقاومة العنيفة.

سيكون ردّ الفعل الإسرائيليّ دمويًا ومدمّرًا، وسيؤدّي إلى عشرات آلاف المُصابين، إذ لمجرّد إحباط الاحتجاجات على طول السياج الذي يحيط بقطاع غزّة، قتل الجيش الإسرائيليّ ٢٧١ فلسطينيًا من غزّة وأطلق النار أو القنابل الغازيّة على أكثر من ٢٠،٠٠٠ فلسطينيّ في السنة التي ابتدأت بها أوّل مظاهرات «مسيرات العودة» في ٣٠ آذار ٢٠١٨,[٣] استخدمت إسرائيل هدم البيوت والترحيل والعقاب الجماعيّ والقصف الجويّ وهجمات الطائرات من دون طيّار والاغتيالات السريّة والاختطاف ضدّ العرب في الضفّة الغربيّة وفي غزّة أيضًا. كلّما ازداد منسوب العنف، كلّما ازدادت فرصة تصوير ردّ الفعل المتطرّف وغير المتناسب من الطرف الإسرائيليّ وبثّه إلى مليارات الأشخاص حول العالم.

في هذا السياق، من المرجّح أن يؤدّي فائض منسوب تفكير الهولوكوستيا في إسرائيل إلى عواقب غير مقصودة، بل وتهكّميّة، حيث يشهد اليهود الإسرائيليّون وسيشهدون معاناة وعقابًا يبدو لا نهائيًا لشعب ضعيف وجائع ولا دولة له. في حين أنّ المقصد كان ردّ الفعل القويّ على هذه المشاهد ومن منظور الهولوكوستيا، سيتماثل العديدون مع الضحايا الفلسطينيّين بدلاً من التماثل مع القامعين الإسرائيليّين. بهذه الطريقة، من المحتمل أن يحظى تفسير المحرقة كدرس حول موضوع حقوق الإنسان بشعبيّة بعد أن تمّ تهميشه سابقًا من خلال تفسير المحرقة كقالب للحياة اليهوديّة.

وصف المدافعون الغاضبون عن الهولوكوستيا استخدام الجرائم النازيّة كمعيار أخلاقيّ عند اعتبار إسرائيل على أنّها «انعكاس للمحرقة»، وشجبوا هذه المحاولة واصفين إيّاها أنّها لا–ساميّة وأنّها أكثر خطورة من إنكار المحرقة.[٤] صبّ هؤلاء المدافعون غضبهم بالأساس على الأوروبيّين والمسلمين الذين يقارنون بين إسرائيل وألمانيا النازيّة، ولكن، وبالذات بسبب سيطرة الهولوكوستيا على الإسرائيليّين، من المستحيل منعهم من القيام بالشيء نفسه. كان هناك مثال رائع على انعكاس المحرقة من هذا القبيل في مناسبة إحياء ذكرى المحرقة في عام ٢٠١٦، عندما حذّر يائير غولان؛ نائب رئيس هيئة الأركان الإسرائيليّ، أنّ قتل أسير فلسطينيّ أعزل على يد جنديّ إسرائيليّ والثناء الكبير على أعماله، يجب أن يؤدّي إلى أن تتذكّر الأمّة أهم دروس المحرقة:

إذا كان هناك أمر يخيفني من ذكرى المحرقة، فإنّه رؤية الصيرورات البغيضة التي حدثت في أوروبا، وخصوصًا في ألمانيا، قبل سبعين أو ثمانين أو تسعين عامًا، ورؤية مظاهر هذه الصيرورات هنا، بيننا، في العام ٢٠١٦.[٥]

على الرغم من استنكار رئيس الوزراء ووزيريْ التعليم والثقافة هذه الأقوال، إلا أنّ تصريح غولان يوضّح أنّ السيطرة الدائمة لقالب الهولوكوستيا على الثقافة السياسيّة الإسرائيليّة هي أمر غير مضمون.[٦]

بالنظر إلى كثافة الارتباطات التي تتشعّب إلى المحرقة وتملأ الأذهان والقلوب الإسرائيليّة، فإن بروز هذا النوع من المقارنة سيزداد حتمًا. بدلاً من تنمية الخوف والشكوك والكراهيّة، بإمكان ذاكرة المحرقة، كدرس أخلاقيّ، أن تؤدّي إلى اعتراف اليهود الإسرائيليّين بمعاناة الفلسطينيّين، وحتّى إلى التماثل

تتمثّل إحدى نتائج ترنّح اليمين في الحياة الإسرائيليّة وانهيار حلّ الدولتين- وكلاهما مرتبطان بسياسات الولايات المتّحدة التي يقود اللوبي إليها- بالضرر الذي حلّ بالحلف التقليديّ بين إسرائيل والليبراليّين الأميركيين، وبين قطاعات كبيرة في الحزب الديمقراطيّ، وبين أعداد آخذة بالازدياد من الأميركيين اليهود.

معهم. يرفض الكثير من اليهود الإسرائيليّين الأعمال التي تُنفّذ ضدّ الفلسطينيّين، ولا يسعهم إلّا أن يربطوا هذه الأعمال مع اضّطهاد النازيّين لليهود، وسيميلون حتمًا إلى اعتبار النضالات من أجل حماية حقوق الفلسطينيّين كنضالات شريفة وأخلاقيّة، بل بطوليّة.[٧] كتب الصحافيّ الإسرائيليّ الشهير، آري شافيط، أنّه عندما كان جندي احتياط شابًا يحرس أسرى فلسطينيّين في غزّة خلال فترة الانتفاضة الأولى، لم يسعه إلّا أن يرى الأسرى يهودًا، وأن يرى نفسه وباقي الجنود ألمانًا.[٨] تستحضر صورة جنود يقفون على حاجز ويرغمون عربيّ على عزف آلة الكمان صورًا أُرغموا على تسلية حرّاس معسكرات التركيز. وتستحضر الحالات التي يُجبِر فيها الجنود الإسرائيليّون العرب على أكل التراب أو ضرب أنفسهم أو غناء أغاني مديح لوحدات الجيش الإسرائيليّ، حتمًا ذكريات عن اليهود الذين أُجبروا على إهانة أنفسهم على مرأى النازيّين الساخرين منهم. ويشبه الفلسطينيّون «الإرهابيّون» من غزّة الذين يُلقى القبض عليهم أو يُقتلون في الأنفاق المحفورة تحت الأرض «قطّاع الطرق» اليهود الذين سحبهم الجنود النازيّون من أنابيب الصرف الصحّيّ الخارجة من غيتو وارسو. كما يُذكّرنا استخدام إسرائيل للسلطات الفلسطينيّة في غزّة من أجل توزيع كمّيات محدودة من الكهرباء والغذاء المسموح بإدخالها إلى القطاع باستخدام الألمان للـ«يودنراتي» (المجالس اليهوديّة) من أجل توزيع الغذاء والعمل في الغيتوهات. تُقلّد شعارات مثل «العرب برّا» و«الموت للعرب» التي تُخربش على الجدران أو يتم ترديدها في المظاهرات والمناسبات الرياضيّة شعارات نازيّة وسلوكًا ألمانيًّا عند الأذهان التي تتناغم مع الهولوكوستيا. يؤدّي العنف والملاحقة الأمنيّة المُمارسين ضدّ العرب وضدّ اليهود الذين يتم اعتبارهم متعاطفين مع العرب من قِبَل منظّمات مثل «تدفيع الثمن»، و«لا فاميليا»؛ نادي داعمي فريق كرة القدم «بيتار» الذي يتفاخر بعنصريّته، وحركة «لهافاه» (شعلة) التي تميل للتخوين بناء على العرق، حتمًا إلى استحضار صور الاضطهاد النازيّ لليهود في سنوات جمهوريّة فايمار الأخيرة.[٩]

قد تؤدّي العاقبة غير المقصودة المتمثّلة بالنجاح الباهر للوبي إسرائيل إلى خلق احتمال لتغيير دراماتيكيّ. الإحكام الشديد الذي يتمتّع به اللوبي على السياسات الأميركيّة شلّ المعتدلين الإسرائيليّين، وسرّع الضمّ الفعليّ، وحوّل عمليّة السلام إلى فشل متكرّر. تمحورت المبادرات الأميركيّة منذ فترة جيمي كارتر وحتّى باراك أوباما حول أربع مراحل: حثّ إسرائيل قليلاً على التسوية، تجنيد اللوبي ضدّ الضغط الأميركيّ على إسرائيل، انهيار عمليّة السلام، وتوسيع الضمانات والدعم الأميركي. بهذه الطريقة، أنتجت كلّ دورة تحدّيات أكثر أمام نجاح المبادرات المستقبليّة.[١٠]

تتمثّل إحدى نتائج ترنّح اليمين في الحياة الإسرائيليّة وانهيار حلّ الدولتين– وكلاهما مرتبطان بسياسات الولايات المتّحدة التي يقود اللوبي إليها– بالضرر الذي حلّ بالحلف التقليديّ بين إسرائيل والليبراليّين الأميركيين، وبين قطاعات كبيرة في الحزب الديمقراطيّ، وبين أعداد آخذة بالازدياد من الأميركيين اليهود، وخصوصًا الشباب اليهود غير الأرثوذكسيّين. الغالبيّة الساحقة من اليهود الأميركيين غاضبة من الرئيس ترامب، ويعتبرونه شخصيّة مخيفة وتهديدا مثيرا للغضب. مع ذلك، في شهر تشرين الأوّل ٢٠١٨، حصل ترامب على نسبة تأييد ٦٩ بالمئة بين الإسرائيليّين. في كانون الأوّل ٢٠١٨، قال إيريك غولدستين؛ رئيس الفدراليّة اليهوديّة للرفاه في نيويورك، لوزارة شؤون الشتات الإسرائيليّة، إنّ متبرّعين

خطط اليمين لمستقبل إيجابيّ هي خطط غير واقعيّة، إن لم تكن خياليّة. تشمل هذه الخطط تحويل الفلسطينيّين في الضفّة الغربيّة إلى مغتربين أردنيّين يعيشون في إسرائيل، وإرغام مصر على تحمّل مسؤوليّة حكم غزّة ونقل لاجئي غزّة إلى سيناء، وضمّ المناطق المأهولة بشكلٍ ضئيل في الضفّة الغربيّة ومنح سكّانها جنسيّة إسرائيليّة، ومنح العرب في معظم المدن والبلدات حكمًا ذاتيًا مؤقّتًا.

سابقين يقولون إنّهم «يشعرون بالغثيان» عندما يفكّرون بالسياسات الوحشيّة التي تطبّقها إسرائيل ضدّ المهاجرين وضدّ الفلسطينيّين، وأنّ «المتبرّعون يبلغون الفدراليّة يوميًا أنّهم لا يريدون أن يتم استثمار أموالهم في إسرائيل».[11]

لم يكن لشعار إنهاء «الاحتلال» صدى واسعًا أبدًا عند الأميركيين الذين يربطون هذا المصطلح بالاحتلالات المُسالة والديمقراطيّة في ألمانيا واليابان ما بعد الحرب. ولكن، يعتبر معظم الأميركيين المساواة في الحقوق للجميع حقيقة بديهيّة. هذا سيساعد الحملات التي تسعى إلى دعم أميركي لدمقرطة إسرائيل من خلال منح الحقوق لكلّ مواطنيها غير اليهود. لقد أدّى تعاطف أجزاء من الأميركيين التقدّميّين مع حركة مقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها (BDS)، والتي تعتبر المساواة السياسيّة للعرب في إسرائيل أحد مطالبها الأساسيّة، إلى تغيير في مواقف المرشّحين المتنافسين على ترشيح الحزب الديمقراطيّ للرئاسة.[12] عندما يستعيد الليبراليّون والحزب الديمقراطيّ الحكم في واشنطن، من المرجّح أن تبدأ سياسية الولايات المتّحدة تجاه إسرائيل بالتحوّل، من تحمّل الوضع القائم المموّه بالثرثرة الدبلوماسيّة عن حلّ الدولتين، إلى تطبيق القيم الأميركية التقليديّة، ويشمل ذلك المبدأ الديمقراطيّ الأساسيّ؛ شخص واحد، صوت واحد. بسبب اعتماد اللوبي بشدّة على الإنجيليّين اليمينيّين، وعلى التأثير الداخليّ لمُشغّلي اللوبي الأذكياء، وعلى المتبرّعين الأثرياء جدًا، وبسبب ابتعاده بشكلٍ كبير عن مخاوف جمهور الناخبين الكبير، من الممكن أن ينخفض تأثير اللوبي على الحكومة الأميركية بشكلٍ حادّ. عند اعتراف واشنطن ونخبة الخبراء السياسيّين باستحالة الانفصال من خلال المفاوضات ما بين إسرائيل والفلسطينيّين، سيتحوّل الانتباه، كما تحوّل بالفعل حتّى الآن بعدّة مستويات، لسلوك إسرائيل تّجاه العرب الذين تحكمهم، ولحرمانهم من حقوقهم المدنيّة والسياسيّة.[13]

إذا نظرنا نظرة بعيدة المدى للمشكلة واستغلّينا العواقب غير المقصودة للمشاريع التي تمّ تصميمها لأهداف أخرى، سيكون من الممكن إعادة الطمأنينة لمن يكافح من أجل تحسين ظروف كلّ من يعيش فيما يسمّيه البعض فلسطين، ويسمّيه الآخرون أرض إسرائيل. من المؤكّد أنّه يمكن القيام بالكثير وتعلّم الكثير، بما في ذلك تعلّم طريقة تفكير المستوطنين وداعمين آخرين لحكم إسرائيل على الأراضي المحتلّة، لأنّهم يشعرون بالقلق حيال المستقبل، تمامًا كما يقلق التقدّميّون حياله. حتّى إذا لم تتّفق المجموعات على الهدف النهائيّ، يمكنها العمل معًا لتحصيل أهداف متداخلة على الأقل، أو لتحصيل أهداف مشتركة على المدى القريب. على سبيل المثال، يرغب معظم داعمي الضمّ اليمينيّين تجنّب وصمة عار الأبارتهايد، ويرغبون بأن يتم اعتبارهم كمن يحترم، على الأقل، المبادئ الديمقراطيّة. يتيح تصديق سياسيّي اليمين على مبادئ المساواة والديمقراطيّة علنًا فرصة لتحويل الخطاب السياسيّ الإسرائيليّ. لا شكّ في أنّه لا يوجد أيّ اختلاف بين معظم ما يقوله أنصار اليمين عن المستقبل، وبين إعلان الولاء الذي صرّح به رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو لحلّ الدولتين في عام ٢٠٠٩. معظم ما يقوله داعمو الضمّ عن الديمقراطيّة هو مزدوج المعايير. ولكن، وفي حين يؤجّل الدعم المخادع لحلّ الدولتين التعبئة من أجل الديمقراطيّة من خلال جعلها تبدو كأمر يقوّض احتماليّة السلام، فإن الدعم المخادع للديمقراطيّة لتبرير الضمّ يفتح الباب أمام اليهود والعرب للمطالبة بالمساواة، من خلال تحويل الدولة

الواحدة التي يقطنون بها لدولة يتم تطبيق القوانين نفسها على جميع من فيها.

بالتالي، من المهم ملاحظة كيف أنّ خطط اليمين لمستقبل إيجابيّ هي خطط غير واقعيّة، إن لم تكن خياليّة. تشمل هذه الخطط تحويل الفلسطينيّين في الضفّة الغربيّة إلى مغتربين أردنيّين يعيشون في إسرائيل، وإرغام مصر على تحمّل مسؤوليّة حكم غزّة ونقل لاجئي غزّة إلى سيناء، وضمّ المناطق المأهولة بشكلٍ ضئيل في الضفّة الغربيّة ومنح سكّانها جنسيّة إسرائيليّة، ومنح العرب في معظم المدن والبلدات حكمًا ذاتيًا مؤقّتًا، أو تغيير المدن الفلسطينية في الضفّة الغربيّة وفي غزّة إلى إمارات قبليّة تتمتّع بحكم ذاتيّ ولكنّها ليست مستقلّة، بينما يتم ضمّ المناطق الريفيّة بشكلٍ رسميّ.[١٤] عادةً، تشترط الملاحق التي تُرفق إلى مقترحاتهم المواطنة بمرور سنوات من السلوك الجيّد من طرف العرب، وقسم الولاء، و/أو معرفة اللّغة العبريّة، باستثناء بعض الحالات بناءً على وجهات النظر السياسيّة ووضع اللاجئين أو النشاط السياسيّ في الماضي.

بحسب هذه المقترحات، تحمي الإمكانيّة النظريّة لوجود سُبل قانونيّة للمواطنة الكاملة للعرب من ترتيبات هيمنة تشبه الأبارتهايد، كما تحمي من النقد الدوليّ، بينما تُلمّح للإسرائيليّين القلقين أنّه لن تكون معظم مناطق الضفّة الغربيّة وغزّة مؤهّلة أبدًا لأن تحظى بهذه المكانة. ولكن، يخلق اعتماد اليمين على الشروط فرصًا في حلّ الدولة الواحدة بمجرّد وضع حلّ الدولتين جانبًا. في حال تطبيقها، سينتج الضمّ، أو تطبيق القانون الإسرائيليّ، مهما كان مشروطًا أو محدودًا، عواقب غير مقصودة وغير متخيّلة. على سبيل المثال، عندما أصدر الرئيس لينكولن إعلان تحرير العبيد في ١ كانون الثاني ١٨٦٣، كذّبت شروط هذا الإعلان عظمة عنوانه، حيث أنّه حرّر فقط العبيد الذين يعيشون في مناطق معيّنة كانت ما زالت تقع تحت حكم الكونفدراليّة، وحتّى أنّ العبيد الذين تأثّرت مكانتهم من الإعلان لم يُمنحوا مواطنة، وإنّما تمتّعوا فقط بنهاية عبوديّتهم. تطلّب جعل معظم العبيد السابقين مواطنين إجراء تعديل دستوريّ، ومرّت عقود من النضال ضدّ قوانين جيم كرو قبل أن يتمتّع بعض المواطنين السود (وليس كلّهم) بالحق في التصويت. في النُظم الديمقراطيّة، يكون قوس التاريخ طويلًا، ويميل هذا القوس للانحناء من أجل دمج المجموعات السكّانيّة التي كانت مكروهة ومُستبعَدة في السابق.

بالفعل، يفضّل العديد من اليمينيّين عدم التحدّث عن المستقبل، آملين أن تختفي مشكلة العرب، دون أن يعلموا أو أن يرغبوا بالتعبير عن طريقة زوال هذه المشكلة. ولكن، ميّزت تسيبي حوطوفيلي، وهي قائدة من قيادات هذا المعسكر، الديناميكيّة السياسيّة لحكم الدولة الواحدة، وشدّدت على أنّه إذا لم يقترح «المعسكر القوميّ» واليمين المتديّن خططًا حقيقيّة للمستقبل وحلولاً عمليّة للمشكلة العربيّة، عندها سيتحكّم اليسار وحلفاؤه من وسائل الإعلام بشكلٍ مطلق في الخطاب العام الإسرائيليّ.[١٥] بالتالي، قدّم بعض اليمينيّين، بالإضافة إلى الرئيس ريفلين، مقترحات صادقة لضمّ كلّ المناطق الفلسطينيّة مع ضمان المواطنة لكلّ السكّان العرب. أحيانًا، يتم تقديم هذه الأفكار على أنّها إملاءات دينيّة أو أخلاقيّة. ولكن يدّعي مؤيّدون آخرون لهذه الفكرة أنّه لا يمكن دمج هذه الأجزاء من أرض إسرائيل بشكلٍ كامل إلّا إذا تمّ دمج سكّانها بشكلٍ كاملٍ أيضًا، ويعبّرون عن إيمانهم بأنّ الشعب اليهوديّ سينتصر بالمنافسة الديمغرافيّة من خلال التكاثر الطبيعيّ أو من خلال الهجرة إلى إسرائيل.[١٦]

لنتطرّق إلى مقترح أوري إليتسور، وهو مؤسِّس الحركة اليهوديّة المتزمّتة «غوش إيمونيم»، وناشط وقائد في أحزاب اليمين المتطرّف المتديّن، وصديق حميم لرئيس الوزراء نتنياهو. نشر إليتسور في إطار ندوة عن حلول لمسألة العرب في يهودا والسامرة وغزّة مقالاً مفصّلاً أصرّ فيه على أنّه يجب كسر «تابو» النقاش حول الحلّ الحقيقيّ الوحيد لهذه المسألة؛ أي الضمّ، مع منح مواطنة كاملة للسكّان العرب. في اقتراحه، تطلّع إليتسور ثلاثين عامًا إلى الأمام، وادّعى أنّ البديل الوحيد هو حلّ الدولتين، والذي سيعني حتمًا انقسامًا لا يمكن إصلاحه بين أبناء الشعب اليهوديّ، واستمرار سفك الدماء والوضع الراهن، والذي إذا استمر كترتيب دائم سيتحوّل إلى أبارتهايد. لقد رفض إليتسور صيغًا مختلفة شائعة في اليمين، كالحكم الذاتيّ الإداريّ، وحق العرب في المشاركة في الانتخابات الأردنيّة، وإنشاء الكانتونات، والإيهام، إلى الأزل، أنّ الوضع القائم مؤقّت فقط، واعتبرها محاولات لتمويه حقيقة وجود أعداد كبيرة من الأشخاص الذين يعيشون تحت الحكم الإسرائيليّ ولكن من دون مواطنة، ستبوء بالفشل حتمًا. كتب إليتسور: «سيكون مصير دولة الأبارتهايد هذه كمصير جنوب أفريقيا».[١٧]

بعد مرور عام، تبنّى كلّ من حوطوفيلي، ووزير الدفاع السابق موشيه آرينس، والحاخام حنان بورات؛ أشهر مؤسّسي

«غوش إيمونيم»، فكرة «الضمّ مع مواطنة»، على الرغم من أنّهم شدّدوا على أنّه سيتطلّب مرور جيل من الزمن لتطبيقها. على الرغم من أنّ حوطوفيلي كانت تقصد الضفّة الغربيّة فقط، كان مستقبل غزّة في بالها أيضًا. قالت حوطوفيلي إنّه بإمكان إسرائيل أن تتّبع إجراءات أكثر قساوة في غزّة بعد الضمّ من الإجراءات التي يمكن أن يتحمّلها المجتمع الدوليّ طالما كان يعتبر إسرائيل دولة محتلّة وليس سلطة دوليّة شرعيّة.[18]

يعتبر معسكر الضمّ، وكذلك التقدّميّون الذين يقبلون حكم الدولة الواحدة، كلّ الأرض كحيّز واحد، حتّى إذا لم يتّفقوا أيّ طابع يجب أن يسود في هذا الحيّز، «اليهوديّ» أم «الديمقراطيّ»؟ إذا كان هذا الحيّز حيّزًا واحدًا، فلدى اليمين ادّعاء قويّ بأنّه من النفاق أن يتعامل اليسار المُسالم مع إسرائيل التي داخل الخطّ الأخضر كأمر شرعيّ، بينما يتعامل معها خارج الخطّ الأخضر على أنّها غير شرعيّة. فمثلاً، إذا كان الضمّ والطرد الجماعيّ للعرب ومصادرة الأراضي بالجملة والمستوطنات اليهوديّة في المناطق العربيّة لضمان حكم إسرائيل على المناطق التي تمّت السيطرة عليها في عام ١٩٤٨ هي جميعها أمر شرعي، فإذًا المستوطنات واستيعاب الضفّة الغربيّة وغزّة، بإجراءات أقلّ قساوة، يمكن اعتبارها أيضًا أمرًا شرعيًا.[19] إذا تصالح داعمو حلّ الدولتين مع هذه النقطة المتعارضة، سيُجبر اليمينيّون على تقبّل حقيقة أنّه مثلما تضخّمت الأقليّة العربيّة الضعيفة في سنوات الخمسينيات لتصبح كبيرة ولديها قوّة مؤثّرة في السياسة الإسرائيليّة اليوم، ستفشل في نهاية الأمر أيضًا أيّ منظومة تقييدات على الحريّات الديمقراطيّة داخل كيان سياسيّ مُتضخِّم ويصف نفسه بأنّه الديمقراطيّ.

من غير المتوقّع الإدلاء بتصريح مشابه، ولكن الأمور تسير نحو ضمّ على نطاق واسع. يعتقد داعمو الضمّ أنّ زيادة حواليّ ٥ ملايين عربيّ لن تغيّر الدولة بشكلٍ أساسيّ. هذه الزيادة ستغيّر الدولة. على الرغم من أنّ الضمّ لن يمنح مواطنة متساوية لمعظم السكّان العرب بشكلٍ سريع، لكنّه سيخلقّ حلبة سياسيّة تطرح فرصًا عدّة. سيحوّل الضمّ السياسة من صراع مجموع صفريّ ما بين اليهود الإسرائيليّين والعرب الفلسطينيّين، إلى منافسة مركّبة أكثر بين مختلف المجموعات الفلسطينيّة واليهوديّة التي تبحث عن حلفاء سياسيّين، وعن الحكم داخل وعبر حدود مجتمعاتهم القوميّة.

سيستغرق توسيع المواطنة وحقّ التصويت للجميع عقودًا من الصراع. على الرغم من ذلك، إذا وضعنا جانبًا احتماليّة وقوع حرب كارثيّة لإنتاج مخرجات شديدة الاختلاف، ستحدث دمقرطة الدولة ذات يوم دون شك، وخصوصًا لأنّ أعدادًا كبيرة من اليهود ستجد أنّه من مصلحتها أن تنضمّ للعرب في صراعها من أجل حقّ التصويت للبالغين. ستواجه الحكومات المختلطة التي ستنشأ من مواطنة ملايين اليهود وملايين العرب وعشرات آلاف غير اليهود وغير العرب، والمقسّمة لفصائل دينيّة وغير دينيّة وأيديولوجيّة ومناطقيّة واقتصاديّة تحدّيات عظيمة، ولكن، بمساعدة الدعم الحماسيّ المحتمل من المجتمع الدوليّ، ستكون هناك طرق جديدة للمضيّ قدمًا. على المستوى التكتيكيّ، تحتّم الضرورة الحاليّة تركيز التحليل والعمل على فرص عينيّة من شأنها أن تدعم المساواة وأن تقلّل أو أن تقضي على العنصريّة، ممّا يعني عدم معارضة الضمّ بحدّ ذاته وإنّما تصميم الضمّ. يعني هذا التعامل مع العرب واليهود وكأنّهم يتمتّعون بحقوق سياسيّة متساوية دون التطرّق إلى مكان سكناهم نسبةً إلى الخطّ الأخضر. كما أنّ ذلك يعني استبدال النداءات التي تعكس المخاوف الديمغرافيّة اليهوديّة بتشجيع التحالفات الفلسطينيّة–اليهوديّة، يشمل ذلك دمج الجمهور المقدسيّ في صراع السيطرة على بلديّة القدس. بشكلٍ عام، يعني هذا بناء قدرات طويلة المدى لصراع مشترك بدلاً من الشعور بالأسى حول كيفيّة إعادة إطلاق عمليّة السلام، أو حول مسألة اندثار حلّ الدولتين أم لا.

من المبكر التحدّث عن حلّ الدولة الواحدة كحلّ بدلاً من التحدّث عنها كواقع ديناميكيّ وصعب. لقد حان الوقت لتبديل المشاكل المتقيّحة للهيمنة المنهجة ولكن غير المعترف بها، بمشاكل مرتبطة بتعلّم كيفيّة العيش مع الآخرين كمتساوين. في نهاية المطاف، سيتمكّن القياديّون الإسرائيليّون والفلسطينيّون والأميركيون والأوروبيّون من خلق حياة جديدة في هذه الأرض التي طالما طاردها الموت وانعدام الأمل، فقط من خلال التفكير بجدّية حول كيفيّة احترام المبادئ الديمقراطيّة والشرعيّة المتساوية لطموحات اليهود والفلسطينيّين معًا.

(ترجمته من الإنجليزية: منى أبو بكر)

الهوامش

١. .لأمثلة صريحة وضمنيّة على هذا المنهج، أنظر إفرايم عنبار وإيتان شامير، «جزّ العشب»: إستراتيجيّة إسرائيل لصراع طويل الأمد ومستعص»، *Journal of Strategic Studies* 37، رقم ١ (٢٠١٤): ٦٥-٩٠؛ ميخا غودمان، مصيدة ٦٧ [عبري] (حيفيل موديعين كينيرت، زموراه بيتان، ٢٠١٧)؛ نوعام شيزاف، «دولة واحد أم اثنتان؟ الوضع الراهن هو خيار إسرائيل العقلانيّ»، مجلّة ٩٧٢+، ٢٥ آذار، ٢٠١٢، http://972mag.com/one-or-two-states-the-status-quo-is-israels-rational-third-choice/39169/.

٢. للاطّلاع على النقطة العامّة، انظر، نسيم نيكولاس طالب ومارك بلايث، «بجعة القاهرة السوداء: كيف يجعل قمع التقلّبات العالم أقلّ قبولا للتنبّؤ وأكثر خطورةً؟»، *Foreign Affairs* 90، رقم ٣ (أيّار-حزيران ٢٠١١): ٣٣-٣٩.

٣. «لقطة إنسانيّة: الإصابات في قطاع غزّة؛ ٣٠ آذار ٢٠١٨-٢٢ آذار ٢٠١٩»، مكتب الأمم المتّحدة لتنسيق الشؤون الإنسانيّة، الأرض الفلسطينيّة المحتلّة، ٢٧ آذار، ٢٠١٩، http://www.ochopt.org/content/humanitarian-snapshot-casualties-gaza-strip-30-mar-2018-22-mar-2019.

٤. على سبيل المثال، أنظر آلان جونسون، «لماذا يعتبر تماثل النازيّة وانعكاس المحرقة أمرًا لا-ساميًّا»، Fathom، آب ٢٠١٨، http://fathomjournal.org/why-the-nazi-analogy-and-holocaust-inversion-are-antisemetic/؛ وليسلي كلاف، «انعكاس المحرقة»، *Israel Studies 24*، رقم ٢، (صيف ٢٠١٩) ٧٣-٩٠.

٥. «خطاب نائب رئيس هيئة أركان جيش الدفاع الإسرائيليّ في يوم ذكرى المحرقة يثير السخط»، *Ynetnews*، ٥ أيّار، ٢٠١٦، http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-4795959,00.html.

٦. «خطاب نائب رئيس هيئة أركان جيش الدفاع الإسرائيليّ ...»

٧. للاطّلاع على مثال مبكر لهذا التأثير، انظر أفراهام بورغ، هزيمة هتلر [عبري] (تل أبيب: يديعوت أحرونوت، ٢٠٠٧). انظر أيضًا مقابلة آري شافيط مع بورغ، «ترك الغيتو الصهيونيّ»، هآريتس، ٨ حزيران، ٢٠٠٧. الفيلم الإسرائيليّ فالس مع بشير (٢٠٠٨) الحائز على عدة جوائز مشبع بمجاز عن المحرقة ويربط السلوك الإسرائيليّ تجاه الفلسطينيّين في حرب لبنان ١٩٨٢ بالمعاملة الوحشيّة التي تلقّاها اليهود من قِبَل الألمان خلال الحرب العالميّة الثانية.

٨. آري شافيط، «على شاطئ غزّة»، *New York Review of Books*، ١٨ تمّوز، ١٩٩١.

٩. للاطّلاع على أمثلة مقارنة بين فايمار وإسرائيل، أنظر بورغ، هزيمة هتلر، ص. ٩٦-١١٣؛ أوري أفنيري، «يمكن مقارنة السياسة الإسرائيليّة مع نهاية فايمار الألمانيّة وصعود الفاشيّة»، *Irish Times*، ٢٥ أيّار، ٢٠١٦،

http://www.irishtimes.com/opinion/uri-avnery-israeli-politics-bears-comparison-with-end-of-weimar-germany-and-rise-of-fascism-1.2659314؛ موشيه تسيميرمان، «فايمار في القدس: هل إسرائيل منحدر زلق للفاشيّة؟»، Tel Aviv Review (بودكاست، ١٢ شباط، ٢٠١٦)، http://tlv.fm/the-tel-aviv-review/2016/02/12/weimar-in-jerusalem-is-israel-on-a-slippery-slope-to-fascism/؛ مردخاي كرمنيتسر، «التملّص من تهمة القتل في عمليّة إماتة الفلسطينيّين، إسرائيل تفشل في منع قدوم الإرهابيّ اليهوديّ التالي»، هآرتس، ٢٥ كانون الأوّل، ٢٠١٩. للاطّلاع على ردود نقديّة على هذه الميول الذي ما زال يتقبّل المقارنة، انظر غيليو ميوتي، «دولة تل أبيب – فايمار إسرائيل؟»، عروتس شيفاع، ٨ تمّوز، ٢٠١٢، http://www.israelnationalnews.com/Articles/Articles.aspx/12023. للمقارنة بين النكبة والمحرقة، انظر بشير بشير وعاموس غولدبيرغ، محرّران. المحرقة والنكبة: ذاكرة، هويّة قوميّة والشراكة اليهوديّة-العربيّة [عبري] (تل أبيب: هكيبوتس همؤوحاد، ٢٠١٥). للاطّلاع على سلوك وعنف مشجّعي فريق كرة القدم بيتار القدس ضدّ العرب، أنظر نقيّ للأبد (٢٠١٦)، إخراج مايا زينشطاين.

١٠. انظر رشيد خالدي، سماسرة الخداع: كيف قوّضت الولايات المتّحدة السلام في الشرق الأوسط (بوسطن: بيكون، ٢٠١٣)؛ انظر أيضًا إيان س. لوستيك، «توجّهات جديدة للسلام الإسرائيليّ-فلسطينيّ: هل يمكن للقوى الإقليميّة إحداث تغيير؟»، *Middle East Policy* 24، رقم ٢ (صيف، ٢٠١٧): ٩-١٧؛ إيان س. لوستيك، «من العمليّة إلى الباثولوجيا: لوبي إسرائيل وفشل الدبلوماسيّة» (قريبًا، متوفّر في www.ParadigmLostbook.com).

١١. يانير كوزين، «يقول اليهود في الولايات المتّحدة إنّ السياسات الإسرائيليّة تجعلهم يشعرون بالغثيان»، معاريف، ١٨ كانون الأوّل، ٢٠١٨، http://www.maariv.co.il/news/world/Article-675940. لنقاش عن الرابط ما بين الاستقطاب الحزبيّ في الولايات المتّحدة وإمكانيّات التغيير في سياسة الولايات المتّحدة بشأن التمييز داخل إسرائيل الدولة الواحدة، انظر بين وايت، شقوق في الجدار: ما بعد الأبارتهايد في فلسطين/إسرائيل (لندن: بلوتو، ٢٠١٨).

١٢. ناثان ثرال، كيف تؤدّي المعركة حول إسرائيل واللا-ساميّة إلى تصدّع السياسة الأميركيّة؟»، *New York Time Magazine*، ٢٨ آذار، ٢٠١٩، http://www.nytimes.com/2019/03/28/magazine/battle-over-bds-israel-palestinians-antisemitism.html.

١٣. لأمثلة عن هذا التحوّل، انظر التغطية المُفصّلة بصورة استثنائيّة التي منحتها نيويورك تايمز لموت المُسعفة الغزيّة على يد قنّاص إسرائيليّ. دافيد م. هالبفينغر، «يوم، حياة: عندما قُتلت مُسعفة في غزّة، هل كان هذا حادثًا؟»، New York Times، ٣٠ كانون الأوّل، ٢٠١٨. انظر أيضًا مقال ميشيل ألكساندر في يوم ذكرى مارتن لوثر كينغ، «حان وقت كسر صمت الفلسطينيّين»، *New York Times*، ١٩ كانون الأوّل، ٢٠١٩.

١٤. انظر، مثلاً، يشاي فلايشر، «نظرة مستوطن حول مستقبل إسرائيل»، *New York Times*، ١٤ شباط، ٢٠١٧؛ كارولينا لاندسمان، «كيف يتصوّر مفكّرو اليمين الإسرائيليّون ضمّ الضفّة الغربيّة»، هآرتس، ١٨ آب، ٢٠١٨؛ كارولين غليك، الحلّ الإسرائيليّ (نيويورك: كراون فوروم، ٢٠١٤). للاطّلاع على تفاصيل خطط من هذا القبيل طرحتها قيادة المستوطنين وسياسيّون مؤثّرون مثل أوري آريئيل، عادي ماينز، نفتالي بينيت وآخرون، انظر مغامرة بالإيمان: الصراع القوميّ-الدينيّ والإسرائيليّ-الفلسطينيّ في إسرائيل، تقرير الشرق الأوسط رقم ٤٧ (بروكسل: مجموعة الأزمة الدوليّة، ٢١ تشرين الثاني، ٢٠١٣)، ص ٣٣-٣٧.

١٥. عند كتابة هذه السطور، كانت حوطوفيلي تشغل منصب نائبة وزير الخارجيّة. صوفيا رون-موراياه، «تكتيك خطير» [عبري]، مقابلة مطوّلة مع تسيبي حوطوفيلي، نيكودا، رقم ٣٢٣ (تمّوز ٢٠١٩): ٣٣-٣٥.

١٦. نوعام شيزاف، «المرحلة النهائيّة»، هآرتس، ١٥ تمّوز، ٢٠١٠، http://haaretz.com/1.5149140. للاطّلاع على مقترح يعتمد على الشريعة اليهوديّة كتبها حاخام يعيش في الضفّة الغربيّة، والذي يتناول موضوع المواطنة المتساوية لكلّ اليهود والعرب في دولة إسرائيليّة تشمل كلّ المنطقة الواقعة ما بين البحر والنهر، انظر راف غليكمان، مبادئ مقترحة لخطّة سلام في أرض إسرائيل [عبري] (شيلو: ميميو، ٢٠٠٥). الاستعداد لقبول مجموعات سكّانيّة فلسطينيّة كبيرة داخل الدولة هو بحدّ ذاته العاقبة غير المقصودة لسنوات من الدعاية اليمينيّة التي غرست معتقدًا زائفًا بشأن قلّة عدد الفلسطينيّين الذين يعيشون في الضفّة الغربيّة. إلحانان ميلر، «يدّعي الخبراء أنّ معطيات ديمغرافيّة خاطئة تغذّي دافع اليمين للضمّ» *Times of Israel*، ٥ كانون الثاني، ٢٠١٥. لدى أقلّ من ١٥ بالمئة من الإسرائيليّين اليهود الذين يعرّفون أنفسهم أنّهم يمينيّون معتقدات دقيقة حول هذا الموضوع. انظر مؤشّر السلام، حزيران ٢٠١٦، http://peaceindex.org/files/peace_index_Data_June_2016-Eng.pdf.

١٧. أوري إليتسور، «كسر التابو» [عبري]، نيكودا، رقم ٣٢٣ (تمّوز ٢٠١٩): ٣٧.

١٨. شيزاف، «نهاية المرحلة». بيني بيغين ودان مريدور، الشخصيّتان البارزتان في الليكود ووزيران سابقان، دعما أيضًا منح حقوق متساوية للعرب في إسرائيل الموسّعة.

١٩. أنظر إيان س. لوستيك، «فهم النكبة: آري شافيط، باروخ مارزل، والمطالب الصهيونيّة للأرض»، *Journal of Palestine Studies 44*، رقم ٢ (شتاء ٢٠١٥): ٧-٢٧.

يائير والاخ*

عن كتاب سيث أنزيسكا

إسرائيل وفلسطين في عهد ترامب[1]

Seth Anziska,
Preventing Palestine, A Political History from Camp David to Oslo.
Princeton University Press,
Year 2018,
pp.464.

يبدو بنيامين نتنياهو هادئًا ومتفائلاً عند جلوسه في غرفة تطلّ على نهر التايمز، احتفل بالتعاون الجديد بين إسرائيل ودول عربيّة، ولّمح لتقوية علاقات إسرائيل مع دول الخليج. عندما سُئل حول العلاقة مع الفلسطينيّين، أصبح نتنياهو أقلّ حماسة وألقى اللوم على القيادة الفلسطينيّة بسبب رفضها للمفاوضات. وعندما دُفع نتنياهو للتعبير عن رؤيته بشأن حلّ سلميّ للصراع الإسرائيليّ الفلسطينيّ القديم، والذي يمتدّ لقرن من الزمن، اقترح نموذجًا بحسبه «سيكون لهم الحقّ في حكم أنفسهم، ولن تكون لهم أيّ قدرة على تهديدنا [...] وستكون المسؤوليّة الأمنيّة تحت سيطرتنا بشكلٍ كامل». وعندما سُئل: هل ستكون هذه دولة فلسطينيّة؟ تلوّى نتنياهو وقال: «أقلّ من دولة، وأكثر من حكم ذاتيّ- لا يهمنّي كيف تسمّيها». استبعد نتنياهو فكرة أنّ الضفّة الغربيّة هي منطقة فلسطينيّة محتلّة قائلاً: «من قال إنّها أرضهم؟»، أمّا بالنسبة لعلاقة هذه القضيّة بالقانون الدوليّ، فقال نتنياهو مستهزئًا: «لا تهمّني البدع الدارجة».

تبدو هذه الملاحظات مألوفة لمن قرأ كتاب Preventing Pal-

* يائير والاخ هو محاضر كبير في قسم الدراسات الإسرائيليّة في جامعة SOAS في لندن، ورئيس مركز الدراسات اليهوديّة.

يقترح كتاب Preventing Palestine تحدّيًا مستفزًا وقويًا في هذا المضمار. ويكمن إنجاز هذا الكتاب في أنّه أخذ ملاحظة هامشيّة وجعل منها العدسة الرئيسيّة التي يُنظر إلى الأمور من خلالها، فيصبح الاستقلال المبدأ التفسيريّ الذي يمكّننا من قراءة السياسات الإسرائيليّة.

estine (منع فلسطين) لسيث أنزيسكا، فهي تردّد بشكلٍ مألوف الخطاب الإسرائيليّ منذ أربعين عامًا. استخدم ممثّلون عن حزب الليكود في السبعينيات، في محادثات دبلوماسيّة مع نظرائهم الأميركيّين، لغة مطابقة تقريبًا، وأنكروا كون الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة مناطق محتلّة، وادّعوا أنّ إسرائيل تتواجد هناك وفقًا لحقّهم التاريخيّ. رفضوا أيضًا صلاحيّة تطبيق القانون الدوليّ، وأصرّوا على أنّ قرار رقم ٢٤٢ لمجلس الأمن التابع للأمم المتّحدة، والذي يدعو إلى انسحاب إسرائيل من المناطق المحتلّة، لا ينطبق على الضفّة الغربيّة وغزّة. استبعدوا أيضًا حق تقرير المصير وإنشاء كيان دولة للفلسطينيّين، واستخدموا الأمن كحجّة ليشرحوا لماذا لم يكن موضوع السيادة الفلسطينيّة مطروحًا. بدلاً من ذلك، تحدّثوا عن إمكانيّة «الحكم الذاتيّ» الغامضة. كانوا متحمّسين للتوصّل لاتفاقيّات سلام مع الدول العربيّة المجاورة، ولكن هذا الحماس لم يشمل الفلسطينيّين. كانت إسرائيل تنوي البقاء في المناطق المحتلّة إلى الأبد.

Preventing Palestine هو استعراض دبلوماسيّ تاريخيّ للمفاوضات حول حقّ الفلسطينيّين في تقرير المصير، بدءًا من حملة الانتخابات الرئاسيّة التي قادها جيمي كارتر في عام ١٩٧٦، وحتّى الوعود التي لم تتحقّق في اتفاقات أوسلو في التسعينيّات. أكثر من عشرين عامًا من مفاوضات فاشلة للتوصّل إلى كيان دولة فلسطينيّة، في حين تمّ تثبيت السيطرة الإسرائيليّة على المناطق المحتلّة. المساهمة الحقيقيّة للكتاب هي في تركيزه على مفهوم «الاستقلال» (autonomy) في السبعينيات كالمبدأ الذي نظّم ثلاثة عقود من المفاوضات، وبالتالي منع إقامة كيان الدولة الفلسطينيّة. طرح رئيس الوزراء مناحيم بيغين إطار الاستقلال خلال المفاوضات التي قادها مع الرئيس المصريّ أنور السادات، وأخذ هذا الإطار صبغة رسميّة

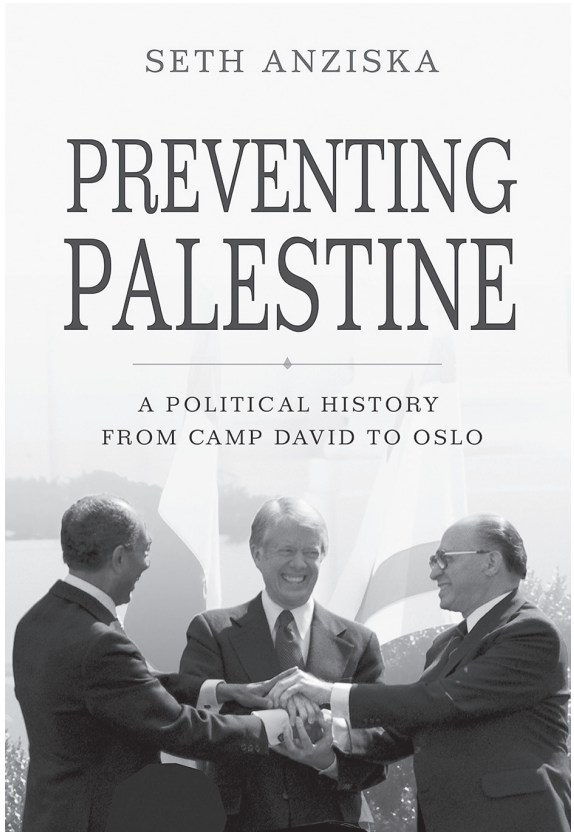

كتاب «منع فلسطين»

في اتفاقيّة كامب ديفيد للسلام بين إسرائيل ومصر التي رعتها الولايات المتّحدة. تمّ استبعاد مخطّط كامب ديفيد للاستقلال كونه أصبح منذ زمن طويل ملاحظة هامشيّة غير ذات صلة في تاريخ الصراع بين إسرائيل وفلسطين. الرأي السائد حول خطّة الاستقلال هو أنّها كانت مجرّد مناورة إسرائيليّة مؤقّتة، ولم تكن لها أهميّة حقيقيّة. عندما ضغطت مصر على إسرائيل لمعالجة موضوع تقرير المصير للفلسطينيّين، اقترحت إسرائيل

ويبدو مستقبل فلسطين السياسيّ بائسًا، ولكن، لم تكن هذه النتيجة محض صدفة، إذ كانت مبادئ السياسة الإسرائيليّة منذ السبعينيات من القرن الماضي عبارة عن الاندماج الإقليميّ، واحتواء المشروع الوطنيّ الفلسطينيّ من خلال ترتيبات محدودة للحكم الذاتيّ.

إدارة فلسطينيّة «عمليّة» للشؤون المدنيّة، بدايةً لفترة انتقاليّة تمتدّ خمس سنوات، ولكن بدون وجود أيّ آفاق حقيقيّة للسيادة بعد انتهاء المرحلة الأوليّة. رفض الفلسطينيّون هذه الخطّة كليًا، ولم تشمل المحادثات ممثّلي الفلسطينيّين على الإطلاق. تمّ تعليق محادثات الاستقلال، ومن ثمّ توقّفت كليًا. بحسب الرواية التقليديّة، كان الاستقلال عبارة عن طريق بدون مخرج.

يقترح كتاب Preventing Palestine تحدّيًا مستفزًا وقويًا في هذا المضمار. ويكمن إنجاز هذا الكتاب في أنّه أخذ ملاحظة هامشيّة وجعل منها العدسة الرئيسيّة التي يُنظر إلى الأمور من خلالها، فيصبح الاستقلال المبدأ التفسيريّ الذي يمكّننا من قراءة السياسات الإسرائيليّة. يقترح السرد المقنع الذي يقدّمه أنزيسكا أنّ «الاستقلال» كان أكثر من مجرّد مناورة مؤقّتة في المحادثات الإسرائيليّة المصريّة. صحيح أنّه لم تتمّ إزالة الاقتراحات التي وضعها مناحيم بيغين على طاولة كامب ديفيد، وأنّها كانت بالأساس آليّة للانعطاف المستقبليّ، ولكنّ المبادئ التي قدّمتها إسرائيل في كامب ديفيد صاغت بعبارات بيّنة معايير سياستها حول المسألة الفلسطينيّة: لا لدولة فلسطينيّة، لا للاعتراف بحقوق الفلسطينيّين التاريخيّة، لا للاعتراف بحقوق اللاجئين، ولا لتحديد الاستيطان الإسرائيليّ في الضفّة الغربيّة. يُضاف كلّ ذلك إلى دمج المناطق الفلسطينيّة المحتلّة فعليًا إلى نطاق سيادة الدولة الإسرائيليّة، ما أدّى إلى إتاحة الحدّ الأدنى فقط من الحكم الذاتيّ الفلسطينيّ. يقول أنزيسكا إنّه تمّ إدراج هذه المبادئ لاحقًا في اتّفاقات أوسلو عام ١٩٩٣. فهم العديدون أنّ إعلان مبادئ أوسلو هو إطار يقود نحو دولة فلسطينيّة في الضفّة الغربيّة وفي غزّة، إلى جانب إسرائيل. ولكنّ هذه الاتّفاقات، والتي تمّت استعارتها من مخطّط كامب ديفيد، وعدت بمرحلة انتقاليّة تمتد خمس سنوات فقط من الحكم الذاتيّ الفلسطينيّ، دون إيضاح ما سيكون بعد هذه المرحلة. إذا قرأنا الاتّفاقيّة من خلال منطق الاستقلال، فلن نتفاجأ بأنّ أوسلو لم يُفضِ إلى دولة فلسطينيّة قطّ. اتّفاق أوسلو لم يوضّح أنّ الهدف النهائيّ هو إقامة كيان دوليّ فلسطينيّ مع انتهاء المرحلة الانتقاليّة، كما أنّه لم يحدّ من بناء المستوطنات الإسرائيليّة. مع انهيار أوسلو، أصبحت الترتيبات المؤقّتة للاستقلال الفلسطينيّ تحت الهيمنة الإسرائيليّة ترتيبات دائمة.

هذه الرواية جذّابة بشكلٍ خاصّ في ضوء السياسات الإسرائيليّة في العقد الماضي، في عهد رئيس الوزراء نتنياهو. لم يُترجم أبدًا التبنّي المتردّد والمؤهّل لنتنياهو لـ«حلّ الدولتين» في خطاب بار إيلان في عام ٢٠٠٩ إلى مبدأ سياساتيّ، ومنذ عام ٢٠١٥، ازداد تحوّل خطاب نتنياهو نحو منع إمكانيّة سيادة فلسطينيّة حقيقيّة. مدعومًا من قِبَل إدارة ترامب الأميركيّة، يبدو حكم إسرائيل الدائم على الضفّة الغربيّة مضمونًا أكثر من أيّ وقتٍ مضى، ما يترك للفلسطينيّين جيوبًا مجزّأة من الحكم الذاتيّ في الضفّة الغربيّة، وفي قطاع غزّة المُحاصر والذي تسيطر عليه حماس. ويبدو مستقبل فلسطين السياسيّ بائسًا، ولكن، لم تكن هذه النتيجة محض صدفة، إذ كانت مبادئ السياسة الإسرائيليّة منذ السبعينيات من القرن الماضي عبارة عن الاندماج الإقليميّ، واحتواء المشروع الوطنيّ الفلسطينيّ من خلال ترتيبات محدودة للحكم الذاتيّ.

مع ذلك، تخفي هذه الاستمراريّة الملفتة للنظر تحوّلات وفترات حاسمة ومهمّة، لا يُلدغ المرء من نفس الجحر مرّتين: يعني مفهوم بيغين للحكم الذاتيّ الفلسطينيّ، كما وصفه في عام ١٩٧٨، شيئًا آخرًا عن مفهومه في عام ٢٠١٩. أصبحت للسياسات الإسرائيليّة التي تشكّلت في السبعينيات أرجحيّة مختلفة عندما تمّ تطبيقها في التسعينيات، كما أنّ معناها

عندما اقترح بيغين استقلالا فلسطينيّا "عمليّا"، كان يتحدّث عن تعايش يهوديّ-عربيّ في المناطق المحتلّة، حيث قال ذلك في لحظة تاريخيّة كان فيها سوق العمل الفلسطينيّ مندمجًا في الاقتصاد الإسرائيليّ، وبدون وجود حواجز وانقسامات ما بين الضفّة الغربيّة وغزّة وإسرائيل، وتمّ توظيف حواليّ نصف القوى العاملة الفلسطينيّة في شركات ومنشآت إسرائيليّة.

يختلف اليوم. وقد أصاب كتاب Preventing Palestine في تحديده للمنطق الذي يربط بين حكومة الليكود في السبعينيات، وبين عمليّة أوسلو التي قادها رابين، وبين تعنّت نتنياهو من أجل بتر أيّ إمكانيّة للسيادة الفلسطينيّة. ومع ذلك، هناك أيضًا اختلافات كبيرة ومتأصّلة في الاقتصاد السياسيّ والحيزيّ لإسرائيل في المناطق المحتلّة، وفي المشهد السياسيّ المتغيّر في إسرائيل. يقدّم لنا التاريخ الدبلوماسيّ الذي يركّز أصلاً على الكفاءة السياسيّة لإدارة الدولة وعلى الخطاب الجيو–سياسيّ، منظوراً محدودًا للعمليّات الاجتماعيّة والسياسيّة التي مكّنت من منع إقامة الدولة الفلسطينيّة.

عندما اقترح بيغين استقلالا فلسطينيّا «عمليّا»، كان يتحدّث عن تعايش يهوديّ–عربيّ في المناطق المحتلّة، حيث قال ذلك في لحظة تاريخيّة كان فيها سوق العمل الفلسطينيّ مندمجًا في الاقتصاد الإسرائيليّ، وبدون وجود حواجز وانقسامات ما بين الضفّة الغربيّة وغزّة وإسرائيل، وتمّ توظيف حواليّ نصف القوى العاملة الفلسطينيّة في شركات ومنشآت إسرائيليّة. استيقظ العمّال الفلسطينيّون في نابلس أو في غزّة، وسافروا يوميًا ودون أيّ قيود للعمل داخل الخطّ الأخضر، حيث كانوا ضروريّين جدًا في القطاعات التي تعتمد على العمالة اليدويّة، كقطاع البناء أو الزراعة. لقد كان الاقتصاد الاسرائيليّ غير متساوٍ بدرجة كبيرة واعتمد على الاستغلال الاستيطانيّ، ولكنّ الليكود كان يشعر بالارتياح مع هذا الاقتصاد. كانت إسرائيل/فلسطين دولة واحدة، ولم تكن الحركة مقيّدة فيها. لقد كان الثمن الذي دفعه الاحتلال رخيصًا، حيث أنّ الكفاح المسلّح الفلسطينيّ كان محدودًا، فكانت الهجمات على الجنود أو المستوطنين أمرًا نادرًا. لقد كانت هذه الحالة، من الأراضي المحتلّة «الهادئة»، والاندماج الاقتصاديّ غير المتكافئ، في خلفيّة خطّة الليكود لاستقلال محدود تحت سيطرة إسرائيليّة دائمة و«منّانة».

عندما عاد حزب العمل إلى الحكم في التسعينيات، لم يكن هذا النموذج ممكنًا أو مرغوبًا به بالنسبة لإسرائيل. وضّحت الانتفاضة الفلسطينيّة الأولى في أواخر الثمانينيات أنّ الاحتلال لم يعد يأتي بدون ثمن، وأصبح ثمنه الآن باهظًا من الناحية العسكريّة والاقتصاديّة والدبلوماسيّة. أصبح يُنظر إلى العمّال الفلسطينيّين على أنّهم يشكّلون خطرًا ومسؤوليّة على إسرائيل، وأصبحوا غير ضروريّين بالقدر نفسه. فتحت العولمة إمكانيّة استيراد العمّال الأجانب من مناطق أخرى من العالم، بينما تحوّل الاقتصاد الإسرائيليّ من القطاعات التي تعتمد على العمالة اليدويّة إلى قطاع الهايتك، والصناعات العسكريّة وتكنولوجيا المعلومات. تمّ بشكلٍ تدريجيّ، ولكن بوضوح، إنشاء حواجز جديدة بين المناطق الإسرائيليّة «الصحيحة» وبين المناطق المحتلّة، بينما تمّ تحديد حركة الفلسطينيّين إلى الحدّ الأدنى.

كان الافتراض الأساسي لعمليّة أوسلو التابعة لحزب العمل كالتالي: إنه من الممكن، ويجب، فصل الضفّة الغربيّة وغزّة عن إسرائيل، بالمفهوم الإقليميّ والديمغرافيّ. صحيح أنّ معايير الاتّفاقات تشبه خطّة الاستقلال، ولكن، وبعكس الليكود، اقترح حزب العمل على الفلسطينيّين ليس فقط استقلالاً «عمليًا»، وإنّما أيضًا إقليميًا، كما أنّه اعترف بأنّ كلّ المناطق المحتلّة بأكملها هي وحدة واحدة. في الوقت نفسه، فرض أوسلو الاعتراف بالخارطة السياسيّة لإسرائيل. أثار اعتراف رابين بحقوق الفلسطينيّين السياسيّة– على الرغم من أنّها كانت محدودة وفاترة– ردّ فعل عنيف وغير مسبوق. انهار ائتلاف رابين خلال سنة، واضطرّ لاتّخاذ قرار إستراتيجيّ، إمّا إيقاف عمليّة السلام، أو الاستمرار بها. بدلاً من ذلك، اختار أن يقود حكومة أقليّة اعتمدت على دعم أعضاء الكنيست الفلسطينيّين.

كان الافتراض الأساسي لعمليّة أوسلو التابعة لحزب العمل كالتالي: إنه من الممكن، ويجب، فصل الضفّة الغربيّة وغزّة عن إسرائيل، بالمفهوم الإقليميّ والديمغرافيّ. صحيح أنّ معايير الاتّفاقات تشبه خطّة الاستقلال، ولكن، وبعكس الليكود، اقترح حزب العمل على الفلسطينيّين ليس فقط استقلالاً "عمليًا"، وإنّما أيضًا إقليميًا، كما أنّه اعترف بأنّ كلّ المناطق المحتلّة بأكملها هي وحدة واحدة.

كان دمج الفلسطينيّين في الائتلاف الحاكم أمرًا غير مسبوق. لم يتم اعتبار «الأحزاب العربيّة» من قبل، ولا يتمّ اعتبارها الآن أيضًا، شريكة شرعيّة في الائتلاف. يعتقد الكثيرون أنّ قرار رابين بأن يحكم بدون «أغلبيّة يهوديّة» عرقيّة واضحة، كان القشّة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لليمين المتطرّف، ما أدّى إلى اغتياله في تشرين الثاني ١٩٩٥.

يجب النظر إلى عمليّة أوسلو في سياق أوسع لتاريخ السياسات الصهيونيّة منذ العشرينيات من القرن الماضي. لطالما كانت القيادة الصهيونيّة/الإسرائيليّة غير راغبة بالاعتراف بالفلسطينيّين العرب كمجموعة قوميّة ذات تاريخ راسخ في البلاد، وبحقوقهم الشرعيّة لتقرير المصير.

أظهر المؤرّخ ديميتري شومسكي أنّه في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، كانت الحركة الصهيونيّة مستعدّة لتأييد بعض الحقوق القوميّة لأقليّة عربيّة كبيرة داخل دولة الأغلبيّة اليهوديّة المستقبليّة. ولكن في الأربعينيات، تحوّلت الرؤيا الصهيونيّة نحو دولة يهوديّة متجانسة قدر الإمكان. بعد إقامة إسرائيل في عام ١٩٤٨ وتفريغها من غالبية العرب الفلسطينيّين، أصبح الوجود القومي الفلسطينيّ أمرًا مرفوضًا. بعد حرب عام ١٩٦٧، أصبح الفلسطينيّون في الضفّة الغربيّة وفي غزّة يُعتبرون سكّانًا محليّين، وليس أمّة. قد يُسمح لهم التصويت في الانتخابات البلديّة أو إدارة الجامعات، ولكن لن يُسمح لهم الحصول على سيادة. كان عدم القدرة على الاعتراف بالفلسطينيّين كأمّة في صميم موضوع «الاستقلال» في إطار كامب ديفيد. من المؤكّد أنّ رابين عمل بحسب هذه المعايير، وجسّدت عمليّة أوسلو هذا.

ولكن، وفي الوقت نفسه، كان لحزب العمل تقليد طويل من الفصل الاقتصاديّ والإقليميّ، يعود إلى النصف الأوّل من القرن العشرين. لقد أظهرت عمليّة أوسلو هذه النزعة. أشار الإقصاء التدريجيّ للقوى العاملة الفلسطينيّة من سوق العمل الإسرائيليّ في التسعينيات إلى الفصل بين إسرائيل والمناطق المحتلّة. من منظور حكومة رابين، كانت الأهداف الإستراتيجيّة لعمليّة أوسلو هي تلطيف الاحتلال الإسرائيليّ المباشر للفلسطينيّين في المناطق المحتلّة، وتدعيم مكانة إسرائيل في العالم، ما سيتيح للدولة، وخصوصًا النخبة فيها، من استغلال العولمة الاقتصاديّة. ستحتاج إسرائيل لتحقيق هذه الأهداف بطريقة من شأنها أن تعزّز من هيمنة حزب العمل، إلى اتّفاق مستقرّ ودائم مع الفلسطينيّين. يمكن أن يتحقّق ذلك فقط من خلال إقامة كيان دولة فلسطينيّة، في حين أنّه، من ناحية داخليّة، تطلّب هذا إقامة تحالف مع الأحزاب العربيّة حتمًا، ما يؤشّر للتحوّل من «الدولة اليهوديّة» نحو دولة مواطنين إسرائيليّة يلعب فيها المواطنون الفلسطينيّون دوراً متساويًا. انعتاق إسرائيل والمناطق المحتلّة من جهة، وتحوّل إسرائيل لديمقراطيّة مدنيّة من جهة أخرى، هما وجهان للعملة نفسها. من أجل أن تنجح عمليّة أوسلو، كانت بحاجة لهذين الوجهين. لا توجد أدلّة كثيرة بأنّ رابين كان على دراية بهذه العواقب عندما شرع في عمليّة أوسلو، ولكن كان للعمليّة ديناميكيّة خاصّة بها. كان التحدّي أمام هذا المسعى ضخمًا، وعلى الأرجح أنّه كان سيفشل حتّى لو لم يُغتل رابين، ليس فقط بسبب منطق أوسلو –الموروث عن الحكم الذاتيّ الذي دعا إليه بيغين، والمسار الأكبر للصهيونيّة– وإنّما أيضًا إنكار الحقوق الشرعيّة للفلسطينيّين، كشعب وكمواطنين متساوين على حدٍّ سواء. بالتالي، جسّدت عمليّة أوسلو التناقض ما بين ديناميكيّة الانفصال الإقليميّ الذي حرّكها، وبين الإطار القانونيّ للاحتواء والدمج الذي عبّر أوسلو عنه.

أثبتت السنوات الأخيرة منذ ذلك الوقت مرّة تلو المرّة أنّ صانعي السياسة الإسرائيليّة غير مستعدّين للاعتراف بالحقوق

أثبتت السنوات الأخيرة منذ ذلك الوقت مرّة تلو المرّة أنّ صانعي السياسة الإسرائيليّة غير مستعدّين للاعتراف بالحقوق الفلسطينيّة. في غياب الفاعليّة الفلسطينيّة، والضغط الخارجيّ، أوّ أيّ مكاسب حقيقيّة يمكن إحرازها من الاتّفاقيّات مع الفلسطينيّين، تبقى السياسة الإسرائيليّة مستوحاة من غرائزها الحقيقيّة: الاستيطان والضمّ، احتواء القوميّة الفلسطينيّة، ورفض السيادة الفلسطينيّة.

الفلسطينيّة. في غياب الفاعليّة الفلسطينيّة، والضغط الخارجيّ، أوّ أيّ مكاسب حقيقيّة يمكن إحرازها من الاتّفاقيّات مع الفلسطينيّين، تبقى السياسة الإسرائيليّة مستوحاة من غرائزها الحقيقيّة: الاستيطان والضمّ، احتواء القوميّة الفلسطينيّة، ورفض السيادة الفلسطينيّة. خَلق احتلال الضفّة الغربيّة لمدّة إثنين وخمسين عامًا حالة يستحيل بها استيعاب تقسيم إسرائيل/فلسطين إلى دولتين، ولا يعود ذلك لكون المشروع الاستيطانيّ مشروعًا باهر النجاح. لم تتحقّق خطّة أريئيل شارون من السبعينيات للوصول إلى مليون مستوطن في الضفّة الغربيّة حتّى عام ٢٠٠٠. ما زال عدد المستوطنين اليوم أقلّ بكثير من هذا الهدف (٦٢٢,٠٠٠ حتّى عام ٢٠١٧، يشمل القدس الشرقيّة). يسلّط داعمو حلّ الدولتين الضوء على هذه الأرقام «المحدودة» كدليل على أنّ التقسيم ما زال أمرًا ممكنًا. ولكن، تخطئ الاعتبارات الديمغرافيّة النقطة الرئيسيّة. أصبحت السيطرة الإسرائيليّة راسخة ومتأصّلة، ولها تداعيات أبعد من مسألة التعداد أو عدد الوحدات السكنيّة. مثلما أثبت الانسحاب الإسرائيليّ من غزّة في عام ٢٠٠٥، حتّى بدون وجود مستوطن واحد في قطاع غزّة، ما زالت إسرائيل تسيطر على حياة الغزّيّين.

فوز الليكود في الانتخابات الإسرائيليّة في عام ٢٠١٩، واعتراف إدارة ترامب بضمّ إسرائيل لهضبة الجولان (المحتلّة من سورية في عام ١٩٦٧)، مهّد الطريق للضم أحاديّ الجانب لأجزاء من الضفّة الغربيّة. يتسارع دمج المناطق الفلسطينيّة مع إسرائيل حتّى بدون القيام بخطوة رسميّة في هذا المضمار. في أفضل الأحوال، إذا تحقّقت «الدولة» الفلسطينيّة في يوم ما، ستشمل جيوبًا مجزّأة فيها حكم ذاتيّ بدون سيادة حقيقيّة. ولكن، وبعكس السبعينيات عندما كانت الدولة وحدة حيزيّة واقتصاديّة واحدة، سيُغلق على الفلسطينيّين في جيوب مجزّأة، وسيصبحون مقيّدين بواسطة الحواجز وجدار الفصل ومنظومة تصاريح عويصة. لم ترغب إسرائيل في السبعينيات، أن يكون الفلسطينيّون مواطنين، ولكنّها اعتمدت عليهم كعمّال. بحسب الاقتصاد السياسيّ في السبعينيات، لا يعني «الحكم الذاتيّ» بأيّ شكل من الأشكال رؤيا منصفة، وإنّما اندماجا اقتصاديّا وحيزيّا يوفّر الاستقرار، كما يوفّر سبلا للتفاعل والتحدّي والمقاومة. منذ التسعينيات، لم تعد إسرائيل تعتمد على العمّال الفلسطينيّين، وأصبح السكّان الفلسطينيّون مقيّدين ومنعزلين أكثر من ذي قبل. في هذه الظروف، ومع استمرار المستوطنات والاستيلاء على الأراضي، يمثّل «الحكم الذاتيّ» احتمالاً أكبر لانعدام الاستقرار والعنف والخطر. ربّما سيشبه مصير المراكز الحضريّة في الضفّة الغربيّة مستقبلاً مصير قطاع غزّة المُحاصر منذ ١٣ عامًا. والأنكى من ذلك أنّ اليمين المتطرّف في إسرائيل لا يخجل من الدعوة إلى طرد الفلسطينيّين الذين لا يقبلون بأن يكونوا مواطنين من الدرجة الثانية. من المؤكّد أنه تمّ منع إمكانيّة إنشاء دولة فلسطينيّة، ولكنّ من المؤكّد أيضًا أن «الحكم الذاتي» هو مسار غير صالح، وتبقى البدائل لهذه السيناريوهات القاتمة غير واضحة.

(ترجمته من الإنجليزية: منى أبوبكر)

الهوامش

1 This review originally appeared in *The Marginalia Review of Books* on August 23, 2019

نشرت هذه المراجعة في الأصل في *The Marginalia Review of Books* بتاريخ ٢٣ آب، ٢٠١٩. وتتقدم هيئة تحرير قضايا بالشكر إلى هيئة تحرير دورية مارجينياليا على هذا التعاون.

حرية زيادة*

رواية "أمام الغابات": قراءة نقدية

عنوان الرواية: أمام الغابات

المؤلف: أبراهام ب. يهوشواع

تل أبيب

هكيبوتس هميئوحاد

١٩٦٨

٢٥٧ صفحة

تقدم هذه الورقة قراءة نقدية لرواية "أمام الغابات" للروائي الإسرائيلي أبراهام يهوشواع الذي وُلد في فلسطين عام ١٩٣٦، وينتمي إلى الجيل الخامس من اليهود السفارديم. درس يهوشواع الفلسفة والأدب في الجامعة العبرية، وخدم كجندي في سلاح المظلات في جيش الاحتلال في حرب الأيام الستة.[١] تنبع أهمية رواية "أمام الغابات" من كونها أحد أوائل الأعمال الإسرائيلية الناقدة التي قدمت رواية بديلة للخطاب الصهيوني الرسمي. تهدف هذه الورقة إلى الوقوف عند القضايا المركزية والمبطنة في الرواية والتي أثارت جدلاً واسعاً على نطاق المجتمع الإسرائيلي وعلى النطاق العالمي. يقدّم الجزء الأول من الورقة سرداً تحليلياً لأهم أحداث الرواية وتحولات مجرياتها. فيما يقدّم الجزء الثاني تحليلاً لأهم القضايا التي عكستها الرواية. أما الجزء الثالث فيقدم ملخص الورقة واستنتاجاتها.

تروي رواية "أمام الغابات"[٢] قصة شاب إسرائيلي يبحث عن العزلة جرّاء تعطّله عن العمل وعيشه حالةً من الإحباط. يقترح أصدقاؤه عليه أن يعمل حارساً للغابات، حيثما تتوافر العزلة

* طالبة ماجستير في برنامج الدراسات الإسرائيلية -جامعة بير زيت.

تروي رواية «أمام الغابات» قصة شاب إسرائيلي يبحث عن العزلة جرّاء تعطّله عن العمل وعيشه حالةً من الإحباط. يقترح أصدقاؤه عليه أن يعمل حارساً للغابات، حيثما تتوافر العزلة الحقيقية، لعلّه يستطيع استجماع أفكاره واستكمال أطروحته للدكتوراه.

الحقيقية، لعلّه يستطيع استجماع أفكاره واستكمال أطروحته للدكتوراه. يوافق الشاب على مقترح أصدقائه، ويمضي إلى دائرة تشجير الغابات؛ إذ يوقّع على عقد عمل مدته ٦ شهور تمتد من الربيع حتى منتصف الخريف. يخبرونه في الدائرة نيّتهم إرساله إلى أكبر غابة في المنطقة، وأنه لن يكون وحيداً هناك، بل سيرافقه عربي. يحاكي يهوشواع من خلال شخصيته الرئيسية حال شريحة الشباب في المجتمع الإسرائيلي الذين يقاسون الإحباط، حيث يبحث الشاب عن العزلة للتعامل مع قلقه الشخصي، واكتشاف علاقته مع الكلمات، "لكن الكلمات تنهكه، كلماته هو، ناهيك عن كلمات الآخرين". (ص ٢٠٣)

في الليلة الأولى من وصول الشاب إلى الغابة، يباشر عمله كحارسٍ لها، ليتسلّل إليه شعورٌ بالخوف والقلق من إخفاقه في اتمام واجبه بحماية الغابة. وسريعاً ما يلتقي مع العربي وابنته الصغيرة، ليكتشف أن لسان العربي قد قُطِع في الحرب عام ١٩٤٨ . يعود الحارس إلى غرفته ويستمر بمراقبة الغابة، وتستمر حالة القلق المصحوبة بتخيلات وتهيؤات عن اشتعال حريق. خلال الأيام الأولى في عمله الجديد، يبدأ حارس الغابة باستكشاف المنطقة، فيرى أشجار الصنوبر واقفةً "مثل مجموعة من مجندين جدد بانتظار قائدهم العسكري"، (ص ٢١٥) ويتعثّر بحجارة دُوِّنت عليها أسماء متبرعين.

سرعان ما تنتقل الشخصية الرئيسية من وصف حالة القلق الذي يعاني منه الشاب على الصعيد الفردي، إلى القلق الذي يعاني منه المثقفون الإسرائيليون. يحدث هذا التحول بانتقال الشاب من كونه مجرد شخص محبط إلى حارسٍ من واجبه حماية الغابة. من الملفت للانتباه أن الكاتب لم يعطِ اسماً لأيٍّ من الشخصيات في الرواية، فالأسماء الوحيدة التي تُذكر هي

أ. ب. يهوشواع

أسماء المتبرعين المنقوشة على الحجارة. كما ويشير يهوشواع بشكل متكرر إلى أشجار الصنوبر التي بدورها تعبّر عن جماليات الغابات في الغرب، التي عمل الإسرائيليون على نشرها في المنطقة بشكل كثيف. باتت أشجار الصنوبر تؤدي دور الجندي المقاتل في معركة السيطرة على الأراضي الفلسطينية وإخفاء ملامحها الأصلانية من جهةٍ، ورسم ملامح جديدة للبلاد المُستَعمَرة من جهةٍ أخرى.

الشخصية الرئيسية الثانية في الرواية هي شخصية العربي الذي قُطع لسانه عام ١٩٤٨ . توحي هذه الرمزيّة بإقصاء صوت العربي في الرواية الإسرائيلية الرسمية وكتابة التاريخ. لم يدلّل صمت العربي على سلبية فعله كحالة أصيلة، بل إنّ عملية الإسكات تمت بفعل فاعل؛ أي قطع اللسان.

تتغير أحداث الرواية بشكل ملفت عندما يلتقي الحارس مع وفد يحمل خريطة للمكان. يسأله الزائرون «أين تقع بالضبط القرية العربية المُحددة على الخريطة؟... لا بد أن تكون في مكان ما هنا، قرية عربية مهجورة» (ص ٢١٩). يؤكد الحارس لهم عدمَ وجود قرية في الغابة؛ إذ لا بد أن يكون هناك خطأ ما في الخريطة.

تتغير أحداث الرواية بشكل ملفت عندما يلتقي الحارس مع وفد يحمل خريطة للمكان. يسأله الزائرون "أين تقع بالضبط القرية العربية المُحددة على الخريطة؟... لا بد أن تكون في مكان ما هنا، قرية عربية مهجورة" (ص ٢١٩). يؤكد الحارس لهم عدمَ وجود قرية في الغابة؛ إذ لا بد أن يكون هناك خطأ ما في الخريطة. لكن مع حلول الليل، يعود اسم القرية القديمة ليلاحق الحارس، فيتردّد اسمها مراراً وتكرارا في رأسه، ليستولي عليه القلق. سرعان ما يمضي إلى العربي النائم، هامساً باسم القرية في أذنه، حتى يقفز العربي واقفاً وينظر باتجاه الغابة.

تدلّل الخريطة التي تحمل اسم القرية العربية على العلاقة بين القرى الفلسطينية القديمة وأسمائها، وبين المدن الإسرائيلية الجديدة التي حلّت مكانها. كما وتدلّل على القلق والصراع الذي يعاني منه المثقف الإسرائيلي ما بين خريطتَيْ الماضي والحاضر. فعلى الرغم من إخفاء آثار القرية الفلسطينية المدمّرة والتخلص من سكانها و حالة النسيان الجماعي للماضي، إلا أن أشباح هذه القرى وأهلها لا تزال تطارد المجتمع الإسرائيلي وعقله الباطن.

في اليوم التالي، يُقام في الغابة احتفالٌ لمتبرعين يدفعون الأموال لتخليد ذكراهم، حيث يلتقط المصوّرون الصور وتُقص الشرائط، وتكشف اللوحة عن نقابها "وتُكشَف حقيقة جديدة للعالم، في جولة قصيرة في الغابة المغزوة". (ص ٢٢٠) في نهاية الاحتفال، يلتقي حارس الغابة مع مسؤول دائرة تشجير الغابات، الذي يخبره بعدم نشوب أي حريق في الغابة في الزمن الماضي، قائلاً: "الطبيعة ذاتها سخّرت نفسها لحماية مشروعنا العظيم". (ص ٢٢١) يسأله حارس الغابة عن القرية العربية المدمّرة التي تنمو فوقها الغابات، يجيبه المسؤول قائلاً: "كان هناك شيء مثل بناء مزرعة هنا، ولكن هذا شيء من الماضي.". (ص ٢٢٢).

تُظهر لنا الرواية هنا تحوّلاً في تفاعل الحارس مع مسؤول دائرة تشجير الغابات، حيث بات يشوب علاقتهما نوع من العدائية والنظرات المريبة. وبينما بدأ اهتمام الحارس بالغابة يتقلّص، نما اهتمامه بالقرية الموجودة تحت أشجارها. يشرع الحارس بالتواصل مع العربي دون الحاجة إلى الكلمات. يعلّمه كيف يشعل النار، ويعلّم ابنته معنى كلمة نار بالعبرية. تمضي الأيام ويصبح حارس الغابة والعربي رفيقَيْن.

في اليوم الأخير لعمل الحارس في الغابة، يختفي العربي. ينظر الحارس باتجاه الغابة بحثاً عنه، فيرى العربي يتحرك مثل "خنجر صامت"، (ص ٢٣١) فجأة ..نار، نار غير متوقعة، "العربي يُشعل النار في زوايا الغابة الأربعة، ويندفع بين الأشجار مثل روحٍ شريرة". (ص ٢٣١) يشعر الحارس بالإثارة والفرح وهو يشاهد أشجار الصنوبر تنقسم وتتحطم، "العربي يتكلم معه من خلال النار، يقول كل شيء". (ص ٢٣١) يوجّه الحارس نظره إلى الجبال، فتظهر أمام أعينه القرية المدمّرة، التي وُلدت من جديد "كرسم تجريدي، مثل كل الأشياء القديمة والمدفونة". (ص ٢٣٣) تقرّ الشُرطة أن الحريق كان مفتعلاً. تحقّق مع الحارس لساعاتٍ طويلة حتى ينهار ويلمح بعلاقة العربي باشتعال الحريق. يُزجّ بالعربي في السجن، فيما تبقى ابنته وحيدة. أما حارس الغابات فيعود إلى بيته، ويصبح غريباً بين أصدقائه، وفي بلدته التي كان يعرفها جيداً.

يتبيّن من خلال نهاية الرواية أن العربي المقطوع لسانه كان قادراً على الكلام، ليس بواسطة الكلمات، إنما عبْر إشعال النار في الغابة وإحراقها. فعلى الرغم من قطع لسان العربي، إلا أنه

يتبيّن من خلال نهاية الرواية أن العربي المقطوع لسانه كان قادراً على الكلام، ليس بواسطة الكلمات، إنما عبْر إشعال النار في الغابة وإحراقها. فعلى الرغم من قطع لسان العربي، إلا أنه تمكّن من رواية حكاية القرية الفلسطينية؛ حكايته.

تمكّن من رواية حكاية القرية الفلسطينية؛ حكايته. لم يكشف كلام العربي من خلال النار عن وجود القرية الفلسطينية المردومة فحسب، إنما أدّت تعرية الغابة من أشجار الصنوبر إلى تعرية الرواية الصهيونية من زيفها أيضاً.

يؤكّد الباحث جيلاد موراغ أن رواية "أمام الغابات" التي نُشرت عام ١٩٦٣ تعتبر جهداً روائياً مبكّراً لفضح الشعور العميق بالذنب. يعزو موراغ ذلك إلى أن الإسرائيليين رفضوا الاعتراف بتواطؤهم في القضاء على الوجود العربي السابق في الأرض. خلّف هذا تأثيراً صادماً على القراء، نظراً لتقديم مادة الرواية رسالةً لطالما عمل القراء الإسرائيليون على كبتها. في ضوء هذا، يبيّن يهوشواع أن العرب الصامتين يسكنون في العقل الباطن للمجتمع الإسرائيلي، الأمر الذي يسبب قلقاً وشعوراً بالذنب لدى المثقفين الإسرائيليين.[٣]

خلافاً للرواية الإسرائيلية المهيمنة في تلك الفترة، يظهر دور العربي مختلفاً هنا. فعلى الرغم من قطع لسان العربي في الرواية للإشارة إلى محاولات إسكاته وإقصائه من التاريخ، إلا أنه كسر ذاك الصمت المتوقّع. أصدر الفعل الذي قام به صوتاً عالياً، متمكّناً من رواية حكايته بوضوح. لم يحرق العربيّ الغابة وحده، بل كان حارس الغابة شريكه الذي ساهم في عملية الحرق، ليس من خلال فعل الحرق بذاته، بل من خلال عدم قيامه بواجبه بالتبليغ عن الحريق ووقف انتشاره في الغابة.

الدلالة الرمزية للغابة

لطالما احتلّت الغابات دلالات رمزية تعدّت دورها المادي في المجتمع الصهيوني. تشير الرواية الصهيونية إلى القيمة الرمزية الكبيرة للأشجار في الثقافة العبرية للمجتمع اليهودي منذ بدايات نشوئه قبل تأسيس الدولة الصهيونية في فلسطين. أصبحت الأشجار أيقونةً لإحياء القومية اليهودية، ورمزت إلى نجاح الصهيونية في "ترسيخ الجذور" في موطنهم القديم.[٤] عمل الصندوق القومي اليهودي مع الوكالة الصهيونية على تصوير زراعة الأشجار كنشاط ذي قدسية يؤدي بدوره إلى استعادة الأرض.[٥] واستمر الصندوق القومي اليهودي بسياسات التشجير حتى يومنا هذا، بل إنه لا يزال يدعو المتبرعين من كل أنحاء العالم إلى المشاركة في زراعة الأشجار في المنطقة عبْر موقعه الإلكتروني. يؤكّد الأخير دورَ الصندوق بزراعة الأشجار منذ مئة عام، ويعد المتبرعين بإرسال شهادات لهم مع كل طلب زراعة.[٦]

في ضوء ذلك، يتّضح لنا استغلال الحركة الصهيونية زراعة أنواع معينة من الأشجار كأداة لتكريس الاستعمار الاستيطاني من خلال تغيير ملامح الأرض الفلسطينية. كما وعملت على صناعة رمزيتها –الأشجار– بما يخدم تشكيل الخطاب الصهيوني الذي كان يدّعي إحياء أرض فلسطين الفارغة والقاحلة وبعث الحياة فيها. تزامنَ بذلك دور الأشجار المادي على الأرض مع دورها الرمزي في الخطاب الصهيوني. تمثّل هدفهما المشترك في محو الوجود الفلسطيني مادياً وتاريخياً، الأمر الذي حال دون إمكانية فصل الوجود المادي للأشجار والغابة عن سياقهما الرمزي في التشكيل التاريخي للخطاب الاستعماري.

تُعتبر رواية "أمام الغابات" جهداً روائياً مبكّراً، عمل على تحدّي بعض جوانب الرواية الصهيونية ورمزيتها المتعلقة بالغابات. لم يعرِّ الكشف عن القرية الفلسطينية الأرضَ من الأشجار التي استدخلها الاستعمار الاستيطاني إلى البلاد فحسب، بل حرّرها من رمزيتها كأداة من أدواته الاستعمارية

أيضاً. فكما يبين هيليل بارزيل أن أهمية رواية "أمام الغابات" لا تكمن في الغابات التي تحترق، بل فيما ترمز إليه الغابات. بنظره، لا تعبّر الغابات عن الأرض المادية لإسرائيل، أو دولتها السياسية فقط، بل ترمز إلى الرواية التاريخية التي تقدّمها دولة إسرائيل؛ أي أن الغابات هي تجسيد مجازي للرواية الوطنية الإسرائيلية وتاريخها.[٧]

تنقلنا هذه المقاربة إلى الصراع الداخلي لحارس الغابات في الرواية، والذي يمثّل بدوره الصراع الذي يعاني منه المثقف الإسرائيلي. إنّ رمزية الغابات في الرواية للدلالة على الخطاب الصهيوني، تجعل من وظيفة حارسها حماية الغابة من الحريق، وبالتالي حراسة الرواية الصهيونية والحفاظ عليها. ولعلّها تعبّر أيضاً عن الوظيفة التقليدية المنوطة بالأديب أو المثقف الإسرائيلي. فعلى مدار الرواية، تتجسّد فصول الصراع الداخلي لدى الحارس ما بين الواجب الذي يحتّم عليه أداء وظيفته بإخلاص وحماية الغابة من الحريق؛ أي الحفاظ على الرواية الصهيونية من جهة، وبين رغبته الدفينة في إشعال الحريق الذي سيعرّي الغابة من أشجارها، ويعرّي الصهيونية من روايتها من جهةٍ أخرى. تساهم رؤية القرية المردومة تحت أشجار الصنوبر بعد الحريق في إدراك جزء من تاريخ المجتمع الإسرائيلي المنسيَّ والمدفونَ في الباطن.

من جهةٍ أخرى، فإنّ رواية "أمام الغابات" تروي قصة الصراع العاطفي والسيكولوجي الذي يصاحب جهود تجاوز حدود الخطاب الرسمي، والوصول إلى جوهر الأشياء كما يجادل جيليد موراج.[٨] يظهر هذا الصراع عند حارس الغابات في علاقته مع العربي في عدة مواقف في الرواية التي تجسّد مشاهد حميمة بين الاثنين، تبدأ وتتطور بعد قيام حارس الغابة بسؤال العربي عن اسم القرية العربية المدمرة. فإدراك الحارس لوجود القرية هو بمثابة إدراك لوجود العربي، الأمر الذي يجعل العربي على استعداد للتواصل معه والاقتراب منه. لكن يظهر موقف آخر للحارس مع العربي في أكثر من مشهد في الرواية، اقتبس منها المقتطف التالي؛ "العربي يشرح شيئاً ما من خلال إيماءات سريعة ومشوشة وهو يلوي لسانه المقطوع ويقذف رأسه، يتمنى أن يقول أن هذا بيته، وأنه كانت توجد قرية هنا أيضاً، وأنهم ببساطة أخفوها كلها، وأنها دُفنَت تحت الغابة الكبيرة". "حارس الغابة ينظر إلى هذا التمثيل الإيمائي ويمتلئ قلبه بالفرح. ما الذي يثير هذا الشغف عند العربي؟ يبدو أن زوجاته قتلن هنا أيضاً، قضية مظلمة بلا شك. تدريجياً يتحرك بعيداً متظاهراً بأنه لم يفهم. هل كان يوجد قرية هنا؟ هو لا يرى أي شيء إلا أشجاراً." (ص ٢٢٩). على الرغم من معرفة الحارس بوجود القرية العربية، إلا أنه في أحيان أخرى تظاهر بجهله بوجودها، وعمل على إقصاء العربي وعدم إدراكه، غير أنّ هذا الصراع ينتهي بالعمل المشترك بين العربي وحارس الغابات بحرق الغابة.

تكمن أهمية رواية "أمام الغابات" التي نُشرت عام ١٩٦٨ في المرحلة التاريخية التي نُشرت بها الرواية، وامتازت بدورها بهيمنة الرواية الصهيونية الرسمية. بالمجمل، تُعتبر الرواية جهداً أدبياً مبكراً طرح قضايا جدلية لم يتطرق إليها الباحثون الإسرائيليون بشكل موسع إلا بعد ربع قرن من نشر الرواية، حينما نشر بني موريس – الذي كان ينتمي إلى من أطلق عليهم اسم المؤرخين الإسرائيليين الجدد– عام ١٩٨٩ كتاب ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ١٩٤٧–١٩٤٩. احتوت مقدمة الكتاب على خريطة للمئات من القرى العربية التي هُجّر سكانها، وبعدها خريطة للمستوطنات اليهودية التي تأسست بعد النكبة.[٩]

بناءً على ما تقدّم، يمكن القول إنّ الفترة التي نُشرت فيها رواية "أمام الغابات" كانت تمتاز بوجود ما وصفه يهوشواع في مقابلة أجريت معه "بنوع من الصهيونية البنائية، حيث مارست المراكز والكتاب الاشتراكيون الكتابة براحة من داخل حدودها، وكانوا أكثر اهتماماً بمواضيع التجربة القومية، .. يتوجب علينا في السنوات القادمة أن نجد طريقنا في إسرائيل لا يوجد فيها مركز".[١٠]

وأخيراً، لا يمكن فهم الرواية ودلالاتها بعمق دون البحث في مواقف وآراء كاتبها، التي تظهر بشكل واضح خلال مناظرة عاصفة بينه وبين أنطون شماس – واحد من أهم الكتاب الفلسطينيين الذين عاشوا داخل دولة إسرائيل في تلك الفترة – حيث قال يهوشواع إنّ شماس لن يستطيع أن يجد تعبيراً كاملاً عن هويته الوطنية الفلسطينية إلا في دولة فلسطينية مستقبلية، والتي ستنشأ يوماً ما خارج الحدود الإسرائيلية.

جاء رد شماس على يهوشواع في روايته المشهورة أربيسكا التي نشرت عام ١٩٨٦، من خلال شخصية يوش (يهوشواع) الساخرة. انتقد شماس سخافة العديد من المثقفين الإسرائيليين أمثال يهوشواع غير القادرين على الاعتراف بقدرة الفلسطينيين الذين يعيشون بينهم على امتلاك هوية وطنية فلسطينية داخل حدود إسرائيل.[١١]

الاستنتاجات

مما لا شكّ فيه أن رواية "أمام الغابات" تمثّل أحد أهم الجهود الأدبية التي عملت على نقد بعض القضايا في الخطاب الصهيوني الرسمي. تنبع هذه الأهمية من السياق التاريخي والمكاني لنشر الرواية التي عبّرت عن الصراعات التي يعاني منها الإسرائيليون على الصعيدين الفردي والمجتمعي، والصراع الذي يعاني منه الأديب أو المثقف الإسرائيلي بشكل خاص. عمل يهوشواع من خلال الرواية على نقد الرواية الصهيونية، وإظهار بعض القضايا التي تجنّبها خطابها الرسمي. ركّز الكاتب على نقد صراع المجتمع الإسرائيلي مع نفسه، وصراع المثقف الإسرائيلي بين الحقيقة التي يعرفها، ووجوده في مجتمع قائم على الاستعمار الاستيطاني، بمعنى آخر تعكس هذه الرواية محاولات يهوشواع للتعامل مع شعور الذنب المرتبط بكونه جزءاً من مشروع الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي، حيث يمكن اعتبارها نوعاً من الكتابات التأملية التي تحاول التعامل مع ما تتركه البنية الاستعمارية من علل في نفوس المُستَعمرين الجدد، ومحاولات مثقف إسرائيلي للتعبير عن مشاعر الذنب المكبوتة في العقل الباطن لمجتمعه، لالتماس نوع من السلام الداخلي ولكن دون العمل على تغيير البنية أو الأدوار الاستعمارية.

ختاماً، أعتقد بوجود صلة ربط بين شخصية الكاتب وشخصية حارس الغابات في الرواية، فكلاهما يسعيان إلى كشف جزء من الحقيقة، حيث يتمسكان بها أحياناً، فيما يعملان على تجاهلها أحيانا أخرى، وكلاهما يحاولان التعامل مع قلقهما الداخلي من خلال محاولات الكشف عن واقع الآخر –العربي– المردوم تحت أرضٍ صُنع فوقها واقعهم الاستعماري. سماع صوت العربي لا يعكس أهمية مكانته بالنسبة ليهوشواع أو حارس الغابات، بل يعكس محاولة التعامل مع صوت شبحه الذي يلاحقهم ويلاحق ضمائر المجتمع الاستعماري، فهو الصوت المنسيّ الذي لا يمكن نسيانه، فيسمعانه تارةً ويسكتانه تارةً أخرى، كمحاولة لاستدراك لحظة سلام في معركة الاستعمار؛ أي إنها لا تؤدي إلى إعاقته بل تساعده على التماس التوازن الذي يؤدي بدوره إلى الحفاظ على استمرار البنية الاستعمارية وبقائها. يبقى السؤال الأهم: ما هو التغيير الذي ينتج عن الاعتراف بالحقيقة؟ وهل محاولات كشف جزء من حقيقة الواقع الاستعماري كافية لتطهير الناقد أو المثقف من دوره ومكانته في البنية الاستعمارية –التي تستمر في بناء وإعادة تشكيل ذاتها كما تستمر في استباحة واستلاب حق العربي–، فهل ستنمو أشجار الصنوبر فوق القرية الفلسطينية وتمحوها مرة أخرى؟ أم سيعود لها صوتها وأبناؤها؟

الهوامش

1. Stephanie Tankel, " A.B. Yehoshua To this author and social critic, Israeli identity comes first," My Jewish Learning, date not available, https://www.myjewishlearning.com/article/a-b-yehoshua/
2. A. B. Yehoshua, *The Continuing Silence of a Poet: The collected stories od A. B. Yehoshua*, (The United States of America, 1st Syracuse University Press ed, 1998), p. 203-237.
3. Gilead Morahg, "Shading the Truth: A. B. Yehoshua's "Facing the Forests"." In History and Literature: New Readings of Jewish Texts in Honor of Arnold J. Band, edited by Cutter William and Jacobson David C., 40918-. Brown Judaic Studies, (2020).
4. Yael Zerubavel, "The Forest as a National Icon: Literature, Politics, and the Archeology of Memory," *Israel Studies* 1, no.1, (Spring, 1996), p. 60
5. Zerubavel, p. 62
6. Jewish National Fund, "JNF Tree Center," Jewish National Fund, June 5, 2020. https://usa.jnf.org/jnf-tree-planting-center/
7. Morahg, p. 413.
8. Morahg, p. 414.
9. Gershom Gorenberg, "The War to Begin All Wars," The New York Review of Books, May 28, 2009. https://www.nybooks.com/articles/200928/05//the-war-to-begin-all-wars/
10. Joseph Cohen, Voices of Israel Essays on and Interviews with Yehoda Amichai, A.B. Yeoshu, T. Carmi, Ahrom Appelfeld and Amos Oz, (Albany: State University of New York Press, 1990), p. 72.
11. Amir Eshet, Futurity: Contemporary Literature and the Quest for the Past, (Chicago: University of Chicago Press, 2013), p. 129130-.

أميرة عبد الحفيظ عمارة*

رواية "القرش"

رواية «القرش» لميشقا بن دافيد

سنة النشر: ٢٠١٧م

دار النشر: تِخيلِت

عدد الصفحات ٤٣٨

مقدمة

حينما تقرأ رواية مستقبلية لكاتب خدم في الموساد نحو ١٢ عامًا، وشارك في العديد من العمليات السرية، منها عملية الاغتيال الفاشلة لخالد مشعل، لابد وأن تتخذ القراءة أبعادًا مختلفة؛ وذلك على الرغم من أن الكاتب يؤكد في مطلع الرواية أن جميع أحداثها، بما فيها الغواصة الإسرائيلية، محض خيال، وأنه لا علم لديه بالقوة النووية الإسرائيلية، ولكنه اعتمد في الكتابة على معلومات من الإنترنت ومن بعض الكتب ومن أفلام وثائقية كثيرة.

خضعت هذه الرواية المليئة بالمعلومات التقنية والبحرية وبالتفاصيل العسكرية والحربية لرقابة صارمة وزارية وعسكرية وأيضًا لدى الموساد. فالرواية مستقبلية خيالية، تصف سلسلة من الأحداث التي تدور في العقد القادم، وفي مركز الأحداث غواصة إسرائيلية حديثة متطورة تدعى «القرش»، تحمل صواريخ نووية لإطلاقها في الوقت الذي يصبح فيه بقاء إسرائيل مرهونا باستخدامها.

تتكون الرواية من قسمين بهما ثمانية فصول، القسم

* محاضرة الأدب العبري بجامعة المنصورة- جمهورية مصر العربية.

الأول بعنوان «بين غزة وتل أبيب»، والقسم الثاني عنوانه «بين طهران والقدس». وتُصنَّف هذه الرواية ضمن أدب الديستوبيا الإسرائيلي الذي انتشر في السنوات الأخيرة انعكاسًا للقلق الوجودي الذي يعيشه الإسرائيلي، وتعبيرًا عن الواقع البائس في ظل الحكم اليميني، وفي ظل تفاقم المشكلات الاجتماعية والسياسية التي يعانيها الإسرائيليون أيضًا. وقد بدأت الكتابة الديستوبية في الأدب الإسرائيلي منذ ستينيات القرن الماضي، وازدادت وتيرتها بعد الحروب التي خاضتها إسرائيل وبعد والانتفاضات الفلسطينية أيضًا. و يركز هذا الأدب في عمومه على انهيار إسرائيل من خلال عوامل مختلفة سواء من داخل الدولة نفسها أو لأسباب من خارجها؛ لكنه في النهاية وسيلة للتعبير عن حالة الخوف المتأصلة لدى الإسرائيلي ومحاولة أدبية لتنبيه الوعي الإسرائيلي لتجنب حدوث مثل هذه الكوارث الوشيكة.

الغواصة «القرش»

عنوان الرواية هو اسم الغواصة الإسرائيلية التي صممت كغواصة إستراتيجية تحمل صواريخ نووية، والتي تختلف عن سابقتها الدولفين وغيرها من الغواصات الإسرائيلية الأخرى بقدرات متطورة للغاية ، كأن تظل تحت الماء لأسابيع دون أن يعلم أحد عن وجودها، وبقدرتها على البقاء بعيدًا عن قاعدتها مدة ثمانين يومًا دون إمدادات، والغوص تحت الماء لعشرين ألف كيلومتر دون التزود بوقود، والتجول بسرعة ٢٠ عقدة والغوص إلى عمق ٣٥٠ مترًا، والتزود ببطارية سعتها ثلاثة أضعاف البطاريات الأخرى في الطاقة، وإمكانية احتواء قنابل ذات قوة تدميرية عالية من مئتين كيلوطن من مادة تي إن تي، أي ما يعادل ١٥ ضعف قنبلة اليورانيوم التي أسقطت على هيروشيما و١٠ أضعاف قنبلة البلاتينيوم التي أسقطت على ناجازاكي. وقد صممت هذه الغواصة في ألمانيا، وقد كان التبرير الألماني لأميركا ودول الاتحاد الأوروبي والدول العربية بأن يتم تعريفها بأنها منصة إطلاق أقمار صناعية وذلك بعد المحادثات التي أجريت بشأنها.

تسهب الرواية في التفاصيل الفنية والتقنية للغواصة بدءًا من طريقة تشغيليها وغوصها، مرورًا بالمعلومات الخاصة بالصواريخ النووية وكيفية الإطلاق وحساب الإحداثيات، إلى وصف حياة أفراد طاقمها الشخصية وغرفهم ومعيشتهم. وتقع المسؤولية التاريخية في إطلاق الصواريخ النووية على

غلاف «القرش»

عاتق قائد الغواصة العقيد يرون غال بمساعدة نائبيه الرائد عوديد البلق والرائد ميخائيل شوشان اللذيْن تتباين آراؤهما حول حجم المسئولية الأخلاقية لإطلاق صاروخ نووي.

أحداث الرواية

في الوقت الذي يتم فيه إقرار مشروع اتفاقية سلام بين فلسطين وإسرائيل برعاية أميركية، يرى سكان غزة أن هذه فرصتهم الأخيرة لتغيير مصيرهم قبل الموافقة على الاتفاقية. تحفر حماس النفق الأطول في تاريخها، أسفل الحقول الإسرائيلية، دون أن يستطيع أحد اكتشافه، ومن خلاله يتجه نشطاء حماس إلى المستوطنات الإسرائيلية لترهيب وقتل المستوطنين ولاختطاف رهائن كوسيلة للضغط على إسرائيل في محادثات السلام، وفي الوقت نفسه تتدفق حشود من الفلسطينيين بالآلاف إلى المستوطنات الواقعة شمال قطاع غزة كسيل بشري لا يمكن إيقافه، ويتطور الأمر إلى إطلاق حماس صواريخ بعيدة المدى تصل إلى العمق الإسرائيلي، إلى أن تضرب برج عزرئيلي في تل أبيب.

ترد إسرائيل بقصف المستشفيات والمدارس والبنى التحتية في غزة؛ فيتحرك الجيش المصري ويتقدم عبر سيناء إلى غزة، في الوقت الذي تغيرت فيه السلطة في مصر وعادت إلى يد الإخوان المسلمين بعد الإطاحة بالرئيس السيسي جراء الأزمات الاقتصادية المتتالية التي عانت منها مصر.

يثور أيضًا فلسطينيو الداخل –الذين عانوا من التمييز العنصري والأحوال الاقتصادية البائسة– ويشنون هجمات على المستوطنات الإسرائيلية ويتدهور الوضع الأمني داخل إسرائيل في تلك المناطق، وبالتزامن يبدأ حزب الله في التحرك مدعومًا من إيران وتصيب أحد صواريخه سفينة أمونيا إسرائيلية راسية في ميناء حيفا، فتنتشر سحابة من أبخرة الأمونيا السامة تقتل آلاف الإسرائيليين، وترد إسرائيل بهجوم بري على لبنان لكن ذلك لم يكن رادعًا لتوقف الصواريخ. في الوقت نفسه يتقدم الجيش السوري نحو الجولان مدعومًا بروسيا التي شلت القوة الجوية الإسرائيلية عبر قواعدها في المتمركزة في سورية.

لا يتوقف الهجوم عند محاربة إسرائيل على أربع جبهات، بل يتقدم الجيش الأردني إلى شرق وادي الأردن بتشجيع ودعم من الدول العربية، ثم إلى أريحا باتجاه القدس، وتنضم داعش الأردن إلى داعش سيناء في قوافل طويلة إلى إيلات، ويعلن الرئيس الفلسطيني استقلال دولته، وتعلن المدن الفلسطينية استقلالها على التوالي.

يواصل الجيش السوري تقدمه بمساعدة الدروز، والمصري يتقدم نحو نتيفوت وأوفاكيم وعسقلان، والألوية السعودية باتجاه عمان، ولا تستطيع إسرائيل مواجهة هذا الحراك العربي على الرغم من تحرك قواتها البرية وضربها البنى التحتية في لبنان والأردن وغزة، وقذفها لحقول الغاز في قطر (التي ساعدت الجيوش العربية بمليارات الدولارات إضافة إلى دعمها حماس)؛ لتفكر إسرائيل في استخدام النووي كحل أنسب.

الموقف الدولي

تمعن الرواية في تصوير الأزمة التي وصلت إليها إسرائيل في حربها مع الدول العربية بتخلي الحليف الأميركي عنها، وبالمقاطعة الدولية لها؛ فأميركا أدارت برنامجًا سريًا ضد اليهود فيها، وأعلنت رفضها لما تقوم به إسرائيل وأخلت رعاياها عن طريق مروحيات هبطت على مبنى السفارة الأميركية في إسرائيل، إضافة إلى انضمامها لدول فرنسا وإيطاليا وهولندا ودول اسكندنافيا لمقاطعة إسرائيل تجاريًا. أيضًا دعت الأمم المتحدة إلى قطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية مع إسرائيل، واعترفت بها كدولة احتلال، مؤكدة أن الصهاينة الموجودين اليوم لا علاقة لهم بالآثار الموجودة في فلسطين.

استخدام النووي

أطلقت إيران ثمانية صواريخ نووية، اعترضت إسرائيل ستة منهم خارج الغلاف الجوي، بينما أصاب واحد مفاعل ديمونا النووي فدمره، والثاني دمر مفاعل الأبحاث الإسرائيلي جنوب تل أبيب.

حينما تصل هذه الأخبار إلى الغواصة يقرر قائدها يرون غال الرد لإنقاذ إسرائيل، فيقرر ضرب مدينة قم الإيرانية المليئة بالمقدسات والآثار، ويتم تدمير المدينة بالكامل. وإزاء هذه الضربة القاضية لإيران، تستمر الغواصة في إطلاقها صواريخ نووية تعترضها السعودية بصواريخ أميركية، غير معروف ما إذا كان مطلقوها سعوديين أم أميركيين، لكن العالم السني يشاطر العالم الشيعي الحزن على مدينة قم الأثرية، وينشب خلاف حاد بين طاقم الغواصة حول المسئولية الأخلاقية وعواقب ذلك على إسرائيل؛ فيطلق ميخائيل شوشان النار على عوديد البلق ويرديه قتيلاً بعد اعتراضه على طريقة إطلاق الصواريخ. ويستمر القائد يرون في الإطلاق وهو المسئول الأول عن اتخاذ قرار إطلاق النووي في ظل انقطاع الاتصال مع البحرية الإسرائيلية –جراء هجوم روسيا السيبراني على إسرائيل– فيقرر ضرب القوات المصرية المتمركزة بين رفح وغزة والتي تعد بحجم جيشين، وعلى إثر هذه الضربة يأمر الرئيس المصري بالقبض على رئيس الأركان الذي يوقف الرئيس المصري بدوره وينقلب عليه ويتم سحب القوات المصرية إلى قواعدها.

وتتوالي الضربات النووية إلى ضرب القوات الروسية المتمركزة في اللاذقية فيتم تدمير القوات البحرية والجوية والسفن الحربية وحاملات الطائرات، ثم ضرب أسطول سفن تركي يحمل مساعدات لغزة، ثم ضرب عواصم دول لبنان والأردن وسورية، مما أدى إلى حدوث تمرد في تلك الدول. وتبرر إسرائيل للعالم الثائر بأنه لا اتصال لديها مع الغواصة، وأن الفاعل سيعاقب في لاهاي على جرائم الحرب.

عندما تقترب الغواصة النووية الروسية «فلاديمير٢» –الأضخم في العالم، والتي تحمل صواريخ عابرة للقارات– من

الغواصة الإسرائيلية يقرر يرون تدميرها على الفور. لكن القرار الأكثر خطورة هو قرار يرون تدمير مدينة القدس، لتحرير معتنقي الديانات الثلاث الإسلامية والمسيحية واليهودية من نير التعلق الديني والنزاع السياسي، ويثير هذا القرار خلافًا وضجة كبيرين بين طاقم الغواصة. وجراء هذه الضربات المتتالية تنسحب جميع القوات الأجنبية من إسرائيل وتتجه الغواصة إلى سواحل إسرائيل في أول زيارة لها هناك لاستقبال أبطالها، لكن بوصولها تضربها طائرة فتدمرها ويُخلى طاقمها، ويبقى يرون بداخل الغواصة التي تغرق.

خلاصة

تستشرف الرواية مستقبل إسرائيل من خلال نظرة متشائمة يكتنفها البحث عن حلول للخلاص؛ وعلى الرغم من أن استشعار التهديد الوجودي والقلق على مصير إسرائيل ليسا جديدين في الأدب الإسرائيلي، إلا أن هذه الرواية اتخذت بعدًا جديدًا، هو استعراض القوة النووية الإسرائيلية، التي من شأنها تخليص إسرائيل من أعدائها وتحقيق الشعور بالأمن لدى المواطن الإسرائيلي العاجز عن استشعاره. ويرى عوفر دروري أن الرواية تشكل تحديًا حقيقيًا لقادة الأمن في إسرائيل، ويتساءل إلى أي مدى إسرائيل مستعدة للكارثة الموصوفة في الرواية، وإلى أي مدى تشكل القرارات المتعلقة بتقليص الجيش وقواته المدرعة خطرًا وجوديًا، وما إذا كانت الدبابة مصممة لمحاربة العدو في حرب ما فقط، أم أنها قوة متحركة باستطاعتها الاستجابة لمختلف أنواع الأحداث.[1]

ما يميز هذه الرواية تفاصيلها الكثيرة التي تجعلها أكثر قربًا من الواقع، فالرواية مليئة بأسماء أماكن ومستوطنات إسرائيلية ووحدات عسكرية إسرائيلية وأنواع أسلحة وتفاصيل فنية وتقنية، «ومن المدهش رؤية كمية المعلومات الموجودة في الرواية، حتى وإن كانت غير دقيقة وحتى وإن جال بها خيال الكاتب لساعات طويلة؛ فإن الشكل الذي تظهر به الرواية يخلق واقعًا أدبيًا أصيلاً ومقنعًا تمامًا».[2] كما تلفت الرواية الأنظار إلى حجم القوة العسكرية الإسرائيلية في الواقع وما يجب أن تكون عليه مستقبلاً للانتصار في أي معركة مع دول الجوار، وتخلص إلى أن «القوات البرية غير مؤهلة بما يكفي للانتصار في المعركة، ومصيرها متعلق بالقوات البحرية والجوية».[3]

يذيل الكاتب الرواية ببعض التوضيحات منها تبنيه كثيرا من الآراء التي دارت في النقاشات بين طاقم الغواصة على لسان يرون، ويخلص إلى أن عدم تحقيق السلام من شأنه أن يؤدي إلى كارثة كبيرة لا يمكن تلافيها، وخصوصا حينما تكون إسرائيل مضطرة للدفاع عن وجودها. جدير بالذكر أن كاتب الرواية ميشقا بن دافيد ولد في جفعات شموئيل عام ١٩٥٢، ودرس الأدب والفلسفة في الجامعة العبرية. وقد شغل منصب ضابط مخابرات في الجيش الإسرائيلي، وخدم في الموساد بين عامي ١٩٨٧ و١٩٩٩، ونال درجة الدكتوراه في عام ١٩٨٩ في الأدب العبري من الجامعة العبرية في القدس، وله نحو ٢١ عملاً أدبيًا ما بين الروايات والمجموعات القصصية وقصص الأطفال، وقد نال عدة جوائز منها جائزة رئيس الوزراء للأدب، وتصدرت روايته «القرش» قائمة الكتب الأعلى مبيعًا فور صدورها.

الهوامش

١. دروري، عوفر. «القرش»، ISRAEL DEFENSE, 8-1-2018
https://www.israeldefense.co.il/he/node/32542
(شوهد في ١-٣-٢٠١٩)

٢. دي شليط، يونتان. «بين الأنفاق والغواصات، نشر في ملحق السبت، مكور ريشون، ٢٠١٧/١٢/٢٦
https://bit.ly/2Woojtc (شوهد في ١-٣-٢٠١٩)

٣. فنكل، غال بيرل، «سيناريو الرعب: هل ستكون القوات البريّة في الجيش الإسرائيلي كافية في المعركة القادمة؟، دبار ريشون، ٢٠١٨/٤/١.
https://www.davar1.co.il/103146 (شوهد في ١-٣-٢٠١٩)

المكتبة

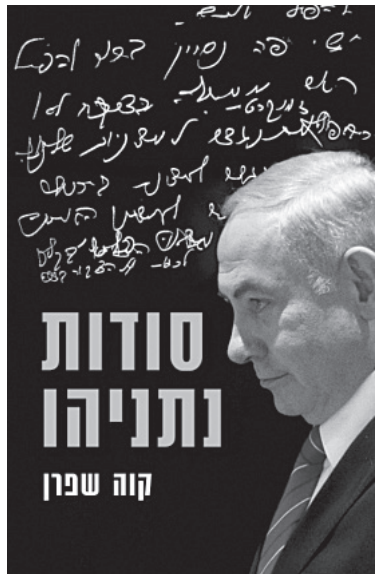

اسم الكتاب: أسرار نتنياهو
تأليف: كوا شيفرون
ناشر: كينيرت
عدد الصفحات: ٣٢٠

يتعرّض هذا الكتاب لظاهرة "نتنياهو" عن كثب، نتنياهو الذي قيل فيه الكثير إعلاميًا: ساحر الإعلام، آلة إعلاميّة، خطيب لامع، كاريزماتي، عبقري، ساحر وسواها من التوصيفات والعبارات. إذ يُسلط المؤلّف الضوء على أسئلة تدور حول ظاهرة نتنياهو الإعلاميّة: كيف وصل نتنياهو إلى ما وصل إليه، كيف أسس نفسه، بماذا تميّز؟ ونحوها من الأسئلة. يكشف الكتاب الوثائق والمُستندات، مُسوّدات الخطابات التي حضّرها قبل الوقوف على المنبر، مكاتباته الشخصيّة مع مُستشاريه وحتّى خربشاته الذاتيّة وما كتب وتراجع عنه في الدقائق الأخيرة، هذا عدا عن البرقيات السريّة التي تُعرض للمرّة الأولى. إلى جانب هذا كُلّه، يأتي مؤلّف هذا الكتاب والذي عمل مُستشارًا شخصيًا لنتنياهو بقصص خاصة حول ما حدث في مكتبه على مرّ السنوات، ابتداءً من التدرب أمام المرآة ووصولًا لاختياره للملابس.

اعتمادًا على كل هذا يُميط المُؤلّف اللثام عن علاقة نتنياهو بالإعلام والظهور الإعلامي.

المؤلّف عمل إعلاميًا لسنوات، وعُيّن من قِبَل مكتب رئيس الحكومة مسؤولًا على إعداد الوزراء وأعضاء الكنيست وكبار المسؤولين للوقوف أمام الجمهور والكاميرا، يعملُ أستاذًا في البلاغة، لُغة الجسد والتأثير، ومُدربًا للعديد من مُحاضري TED ومُستشارًا في الحملات السياسيّة والانتخابية.

اسم الكتاب: الخلاص – خرجتِ من مصر وتعهدتِ أن أروي
تأليف: آموتس شفيرا
ناشر: تساميرت
تاريخ النشر: ٢٠٢٠/٠٣
عدد الصفحات: ١٧٤

يقدّم هذا الكتاب بثوب جديد قصة خروج اليهود من مصر، إحدى القصص من التاريخ اليهودي، إذ يتناول عددًا من أساطير التاريخ اليهودي مثل: الأعمال الشاقة، إبادة الأبناء، ظهور موسى، الوصايا العشرة، وأخيراً شق البحر والنزوح. هذا ويأتي الكتاب على ما يُسميه المؤلّف بـ"السيرورات الإلهية" والخوف والشوق الذي ساور اليهود خلال تلك الأحداث.

يُجيب المؤلف على الطلب التوراتي "وحدّث أبناءك" بكتابتهِ لهذا الكتاب، إذ يوضّح أنّ أحد أسباب إصراره على إخراج الكتاب للنور هو ألّا يترك شعب إسرائيل غير مبالٍ "بتلك الأحداث العظيمة"، وفق تعبيراته.

مؤلّف الكتاب من عائلة حريدية مُتدينة، يعمل مراسلًا للشؤون القانونية في قناة "كان" – هيئة الإذاعة الإسرائيلية، وعمل سابقًا مقدّمًا ومحررًا في إذاعة صوت إسرائيل.

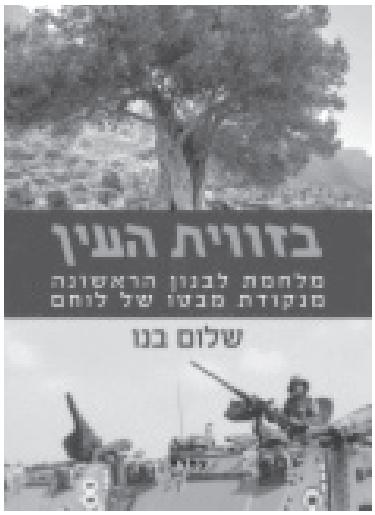

اسم الكتاب: بزاوية العين – حرب لبنان الأولى من وجهة نظر مِقاتل
تأليف: شالوم بنو
ناشر: تساميرت
تاريخ النشر: ٢٠٢٠/٠٢
عدد الصفحات: ١٩٨

يتناول هذا الكتاب قصة حرب لبنان الأولى – "سلام الجليل" وفق التسمية

الإسرائيلية، من وجهة نظر "آساف"، المقاتل في لواء غولاني – ويعرف أيضا باللواء رقم ١ في إسرائيل وهو لواء مشاة ضمن الجيش الإسرائيلي، أحد ألوية ما تسمى بـ"النخبة"، تم تأسيسه بتاريخ ٢٢ شباط ١٩٤٨ عندما تم تقسيم لواء جفعاتي، وهو أحد أهم وأقوى ألوية النخبة في إسرائيل– ، شارك آساف في المعارك الحربية ومرّ بتدريبات وتجهيزات خاصة. يروي قصته طوال فترة الحرب في لبنان، مرورًا بالجرح والتعافي ونهاية الحرب.

من جهة، يعكس الكتاب المنظور النقدي للمحارب والقائد، التدريب والحرب. الفشل والمآسي والموت – ومن جهة أخرى النجاح وما يُسميه الكاتب "الانتصارات المجيدة".

مؤلف الكتاب جندي سابق في وحدة جولاني واستخباراتي في جهازي الشاباك والموساد سابقًا.

اسم الكتاب: السلام والانكسار
تأليف: إيتان بن تسور
ناشر: يديعوت للكتب
عدد الصفحات: ٢٠٨

عَمِل مؤلّف هذا الكتاب سنوات طويلة في وزارة الخارجية الإسرائيليّة، إذ شَغِلَ منصب السكرتير السياسي لوزير الخارجية أبا إيبان، ومدير وزارة الخارجية خلال فترات الوزراء ديفيد ليفي وأريئيل شارون وبنيامين نتنياهو. يتناول المؤلّف في كتابه هذا مسارات السلام في المنطقة، منذ قرار التقسيم ٢٤٢ الصادر عن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة حتى حرب ١٩٦٧، فرفض مبادرة السلام عام ١٩٧١ التي كان من الممكن أن تمنع حرب ١٩٧٣، وصولًا لاتفاقيّة أوسلو والتي كانت تُشكّل درّة محادثات مدريد مخطط السلام في المنطقة.

من وجهة نظر جيلين، يُقدّم بن تسور ملاحظاته وإضاءاته على النجاحات التي حققتها الدبلوماسيّة الإسرائيليّة وعلى إخفاقاتها وعلى الخصائص التي شكّلت المسارات السياسيّة. إذا يأتي المؤلّف على الهرب والجرأة واللامبالاة والعاطفة في السياسة؛ الوهم مقابل الواقعية؛ الدولة مقابل الطموح الشخصي؛ السهو وقلة الانتباه وقِصَر النظر. كما يتطرق للثمن المدفوع على ما لم يُعمَل بِهِ، على عدم الاستثمار في النفوذ السياسي والرغبة في تحقيق الأمجاد الشخصيّة.

يحتوي الكتاب إلى جانب هذه القضايا المهمة، أيضًا، على نوادر وتجارب شخصية من حياة رجالات الدبلوماسية الإسرائيلية، بالإضافة إلى قصص من تاريخ العلاقات الخارجية لإسرائيل، مثل الاتصالات مع كوريا الشمالية والاتصالات العلنيّة والسرية مع الدول العربية.

اسم الكتاب: ذئب رمادي
تأليف: روني إلياب
ناشر: تسامير ت
تاريخ النشر: ٢٠٢٠/٠٢
عدد الصفحات: ١٨٦

يتناول هذا الكتاب قصة حياة جندي إسرائيلي خدم على مدار أربعين عامًا ويأتي على مختلف المحطات التي مرّ بها: التجنيد في وحدة الكوماندوس، التدريب، العمليات المختلفة، العلاقات، الصداقات، فقدانه لأبنائه على أثر عملية استشهادية وعودته للجيش بعد مرور سنوات.

المؤلف ما زال يخدم في جيش الاحتلال برُتبة مُقدّم، كما خدم سابقًا في وحدات النُخبة، عمل في حياته المدنية حارس أمن، وشغل مناصب إدارية أمنية في إسرائيل والخارج، أدار مشاريع في السلطات البلدية، بما في ذلك تأسيس أنظمة أمان في المؤسسات التعليمية الإسرائيلية. أسس في مطلع الألفية الثانية شركة أمنية تختص بتدريب وتجهيز رجال أمن تدرب فيها الآلاف من إسرائيل وخارجها.

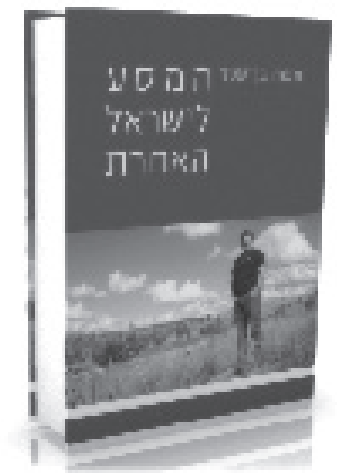

اسم الكتاب: رحلة إلى إسرائيل أخرى

تأليف: موشيه بن عطّار

ناشر: كرمل

تاريخ النشر: ٢٠٢٠/٠٣

عدد الصفحات: ٤٧٠

رحلة إلى إسرائيل الأخرى هي مجموعة من المقالات المنشورة في السنوات الأخيرة في صحيفة هآرتس تحمل أفكارًا ذات طابع مُحفزٍ للتفكير، والكتاب أقرب إلى ما يكون يوميات لمشاهِد عن كثب "للدراما" على الساحة الإسرائيلية التي تُغيّر وجه الدولة. ويُحذّر المؤلّف من عددٍ من المسارات المُقلقة في السياسة الإسرائيلية، إذ يصف الدولة في سلسلة مقالاته على أنّها تقف على مفترق طرق بين الازدهار وأفول نجمها، كما يتطرق إلى الحاجة لإصلاح جذري وتقويم المسار من الألف إلى الياء. هذا ويتطرق أيضًا لأثر التغييرات العالمية وانعكاساتها على شكل المجتمع الإسرائيلي وعلاقة مُركباته بعضها ببعض.

يتناول المؤلّف مسائل مُختلفة ذات أهمية بالغة في السياق الإسرائيلي بأكثر من عشرين فصلًا أهمها: العولمة وأثرها على دولة إسرائيل، الدين والدولة، القدس والتصورات المُستقبلية، الاقتصاد والمجتمع، مستقبل السلام، المنظومة السياسيّة، التربية والتعليم، الفساد في أجهزة الدولة، الدروز، المحرقة اليهودية، العرب حَمَلَة المواطنة الإسرائيلية، الصهيونية الدينيّة ومواضيع أخرى..

المؤلف يعمل في مجاليّ التربية والتعليم، والدعاية والتسويق. كما شغل منصب المدير التنفيذي للمجلس الصهيوني، ويُعتبرُ ناشطًا اجتماعيًا إذ قاد عشرات المُبادرات وعمل مُستشارًا لكبار الشخصيات السياسيّة في إسرائيل ومنهم وزراء ورؤساء للمعارضة وشخصيات أخرى.

اسم الكتاب: بغض النظر عن الدين أو العرق، التوترات العرقية - القومية بين اليهود والعرب في النظام الصحي الإسرائيلي

تأليف: أريـيـلا بـوبـار – جفعون، ياعيل كيشت.

ناشر: كرمل

تاريخ النشر: ٢٠٢٠/٠١

عدد الصفحات: ١٣٨

تتناول الكاتبتان عددًا من الأسئلة التي طفت على السطح على أثر الارتفاع الملحوظ في عدد المهنيين العرب في الكوادر الطبيّة والمستشفيات الاسرائيليّة في ظل التوترات العرقية والدينية. ومن أبرز ما تتناوله الباحثتان قيمة المساواة في بيئة العمل في المؤسسات الصحيّة، الحياد في الطب والقيم الإنسانية وإمكانيات التغلّب على التوترات السياسيّة وفُرص تسربها إلى هذا الحيّز المُشترك المعني بالعلاج والرعاية. يبحث الكتاب في اندماج العرب في الجهاز الصحي في إسرائيل وكيفية بناء علاقة مُتوازنة بعيدًا عن التوترات.

بروفسور أرئيلا بوبار جيفعون هي مختصة في الانثروبولوجيا الطبيّة وتعمل محاضرة في كليّة دافيد يالين، رئيسة قسم علم الاجتماع في كليّة الجليل الغربي ومُختصّة في مجاليّ الصحّة والرفاه.

اسم الكتاب: الدولة اليهودية – الانتقال إلى الطبيعيّة

تأليف: شموئيل طريجنو

ناشر: كرمل

تاريخ النشر: ٢٠٢٠/٠١

عدد الصفحات: ٢١١

يفتتح المؤلّف هذا الكتاب بقوله: أن الصهيونية سعت لتحويل الشعب اليهودي لشعب كسائر الشعوب. ويتناول في هذا الكتاب، معنى كلمة "التطبيع" –أي مسعى الصهيونيّة– مفاهيميًا واصطلاحيًا المُتأتي على تاريخ اليهوديّة. ويحاول الإجابة على السؤال المركزي بعيدًا عن سفسطة السياسيّين وغوغاء الشعارات: هل تحول اليهود إلى شعب طبيعي؟

يتطرق المؤلّف لفشل الصهيونية في هذا الصدد ويُبيّن أنّ دولة إسرائيل ليست دولة طبيعية في نظر الأمم، وأصبحت هدفًا لأعدائها. هذا الفشل في الساحة الدولية يُفاقم من أزمة الهوية التي تمزق الشعب اليهودي. كما يدّعي أن المجتمع الإسرائيلي يقف على مفترق طرق، لا سيّما أنّ مسألة المكون اليهودي لم تصل إلى تعبير متفق عليه من قبل مركبات المجتمع الإسرائيلي، إضافةً لكون الصهيونية لم تنجح في أن تتجدد وتخرج من لبوسها القديم.

يأتي الكتاب في فصوله السبعة على عدد من المفاهيم والأفكار المهمّة أبرزها: التحرر الذاتي، الفشل السياسي، الفشل الأخلاقي، فشل النُخب، مواجهة التحديّات، سؤال اليهوديّة، قيام دولة إسرائيل من جديد.

مؤلّف الكتاب هو عالم اجتماع وفيلسوف يهودي فرنسي وباحث متخصص في علم الاجتماع الديني، أستاذ فخري في جامعة نانتير لاديفونس في غرب باريس.

اسم الكتاب: أمهات مثليّات الجنس في إسرائيل

تأليف: ألونا بيليج

ناشر: ريسلينج

عدد الصفحات: ٢٣٠

يُعالج هذا الكتاب مسألة الهوية المثليّة في إسرائيل، إذ يتتبع البناء التطوري للهوية المثلية من علم الأمراض إلى التصنيف الثقافي البديل، عبر التعريج على مفهوم الوصمة المُجتمعيّة والوعي الجماعي بين مجموعات الأقليات التي تُراوح بين الهامش والمركز.

يدرس الكتاب انتقال النساء المثليّات إلى الأمومة وبناء الأسرة من منظور النساء أنفسهن، إذ يُحاول الإجابة على أسئلة الهويّة والتجارب الشخصيّة، لا سيما وأنّ الكتاب يتناول قصص الجيل الأول من الأمهات المثليّات اللواتي اضطررن للتعايش والتأقلم مع "الوصم المُجتمعي المُزدوج": وصمة "العار" فيما يتعلق بتوجههن الجنسي، ووصمة العار فيما يتعلّق بتكوين أسرة بدون أب.

في نهاية الكتاب، تُضيف المُؤلّفة مخططًا تفصيليًا للاعتراف بالمساواة بين الجنسين وإدماجهن، إذ تُقدّم مجموعة من المبادئ والتوصيات التطبيقية لواضعي السياسات وصانعيها بالإضافة إلى المعلمين والمستشارين التربويين والأخصائيين الاجتماعيين والمعالجين.

المُؤلّفة: هي باحثة في مجالي الجندر والتربية، وتعمل مُستشارة تربويّة وتنظيميّة ومحاضرةً في التربية في عدد من الكليّات.

صـدر عـن مـدار

صـدر عـن مـدار

صـدر عـن مـدار

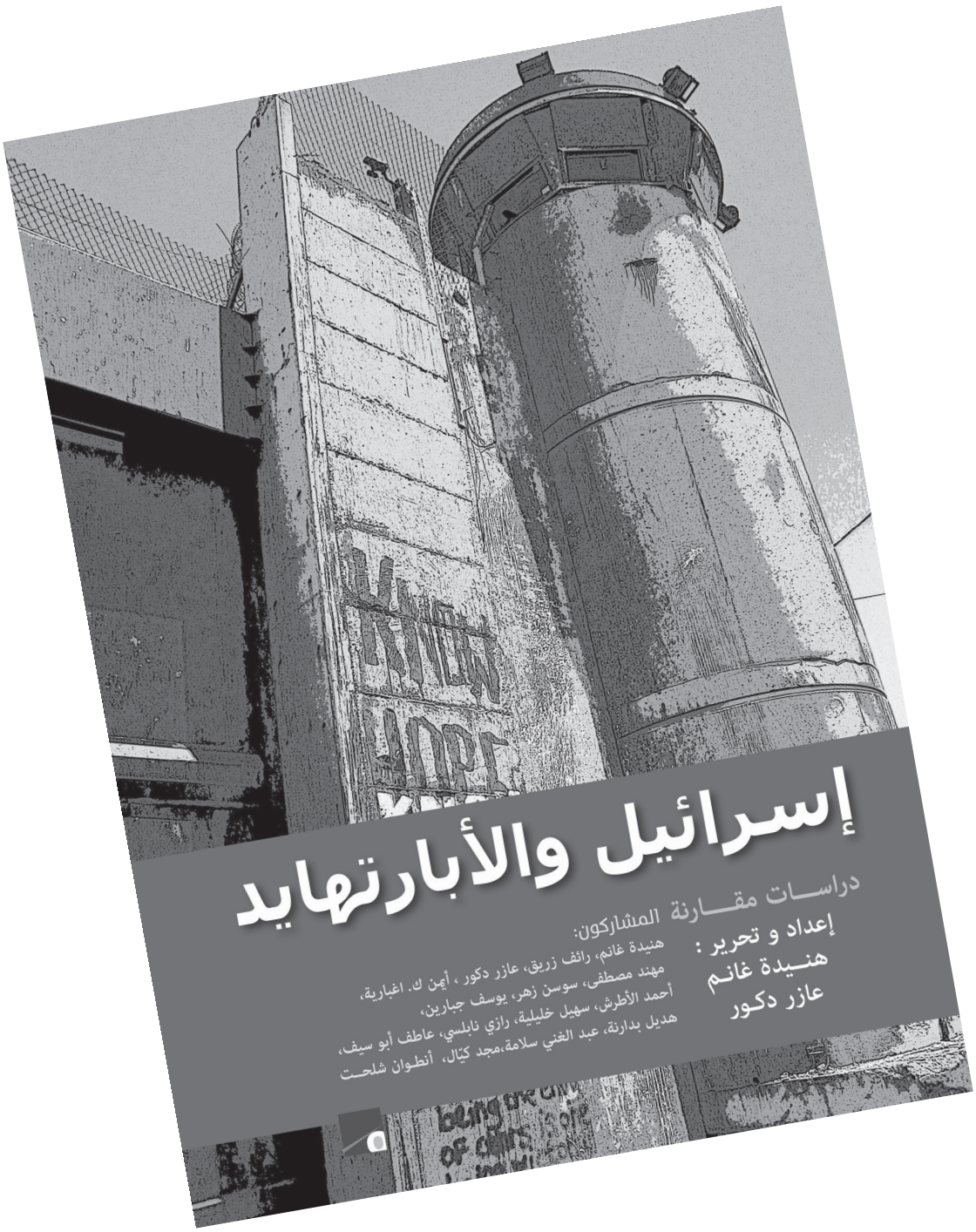

Editorial

Anti-Semitism, Zionism and the Question of Palestine

Since the International Holocaust Remembrance Alliance (IHRA) adopted a new definition of anti-Semitism, the question of Palestine has entered a new phase, both morally and politically. As applicable, the new definition transforms the whole Palestinian narrative into one that can be characterised as anti-Semitic. It is of the view that the right of return and demand for a state of citizens in Israel seek to abolish Jewish privileges over Palestinian citizens, making both anti-Semitic claims. So is the case of anyone who dreams of a binational state in Historic Palestine or of one secular, liberal and egalitarian state. This ushers in a new stage of the war on Palestine's narrative and just claims. It is true that these claims could not be realised so far. From now on, however, these mere claims become unlawful and anti-Semitic.

This danger is not just hypothetical, but has also transformed into practice in many European countries and in America. These have adopted and acted in tandem with the IHRA definition. All the more so, in Germany, a parliamentary decision considered that the Boycott, Divestment and Sanctions (BDS) movement as anti-Semitic. Along this vein, the Palestinian narrative and claims associated with the question of Palestine are being targeted by a wide-ranging campaign of international delegitimisation and condemnation. Accordingly, the victim is turned into a convicted executioner simply because he rises to his feet and cries out for his rights. He seeks justice from a Euro-American community, which believes that the Palestinian people are an excess. As cries of distress emanating from Palestine disturb Euro-American peace, Palestinians have to be silenced. The unwavering voice of Palestine reminds Europe of its crime and liability for the Holocaust. In the name of victimisation, however, the victim cannot convert a whole people into a victim.

In this issue, we have addressed the issue of anti-Semitism, countering anti-Semitism, Zionism, and the nature of the relationship between these and the question of Palestine. We believe that this is a major – if not the greatest – challenge to the question of Palestine. Palestinians have lost many military and political battles, but have managed to keep their moral question alive. This is the last and most important stronghold for Palestinians. If it ceases to exist, so will Palestine and the question of Palestine. It is, therefore, a fate-determining battle for history in the first place, and for the future in the second place.